القافلة

مجلة ثقافية تصدر
كل شهرين • يناير - فبراير 2007



ملف العدد

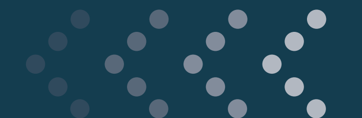
الدمية

الملكية الفكرية في عصر التكنولوجيا

المطوِّف

العدد 1
المجلد 56

■ قافلة الأبحاث



تنظِّم مجلة **القافلة** نشاطاً بحثياً الهدف منه إشراك الباحثين الراغبين، خاصة طلاب وطالبات الجامعات، بأبحاث ميدانية معمقة في موضوعات تقترحها المجلة أو يقترحها المتقدمون أنفسهم. والهدف من هذه الخطوة هو كتابة موضوعات تتجاوز المقال العادي وتحقق الشمولية و الإحاطة بكافة زوايا الموضوع المطروح، ليتم تقديمها في النهاية على شكل موادٍ صحفية جادة تتمتع بعناصر الجذب والتشويق الصحفي .

للمشاركة في هذا النشاط البحثي يرجى مراسلة فريق تحرير القافلة على العنوان الإلكتروني التالي:
qresearch@qafilah.com

وذلك من أجل

- الاطلاع على قائمة الأبحاث المقترحة من المجلة.
- معرفة شروط اعتماد البحث وصلاحيته للنشر.
- الاتفاق على الموضوع وتبادل الرأي حول محتوياته وآفاقه.
- تحديد عدد الكلمات وملحقات البحث.
- تحديد الفترة الزمنية للبحث والاتفاق على موعد التسليم.

بعد اعتماد البحث للنشر من هيئة تحرير المجلة، ستتم مكافأة الباحث حسب سلم المكافآت المعتمد لدى المجلة لكتابها.

صورة الغلاف



Corbis

تخصص القافلة غلاف هذا العدد للوحة الفنان غابريال مونتر تمثِّل طفلة تحمل لعبة.

القافلة



ارامكو السعودية
Saudi Aramco

الناشر
شركة الزيت العربية السعودية (أرامكو السعودية)، الظهران

رئيس الشركة، كبير إدارييها التنفيذيين
عبدالله بن صالح بن جمعة

نائب الرئيس لشؤون أرامكو السعودية
مصطفى عبدالرحيم جلالي

مدير العلاقات العامة
زياد محمد الشيحة

رئيس التحرير
محمد عبدالعزيز العصيمي

مدير التحرير الفني
كميل حوّا

سكرتير التحرير
عبود عطية

فريق التحرير
فاطمة الجفري
محمد أبو المكارم
مأمون محيي الدين
أمين نجيب
رولان قطان (بيروت)
ماجد نعمة (باريس)
رياض ملك (لندن)

تصميم وإنتاج
المحترف السعودي

طباعة
مطابع السروات، جدة

ردمد ISSN 1319-0547

محطات العدد

يناير - فبراير 2007
ذو الحجة 1427 - محرم 1428

قضايا 10–19

طاقة واقتصاد 20–35

بيئة وعلوم 36–48

الحياة اليومية 55–67

الثقافة والأدب 68–86

الملــف 87–102



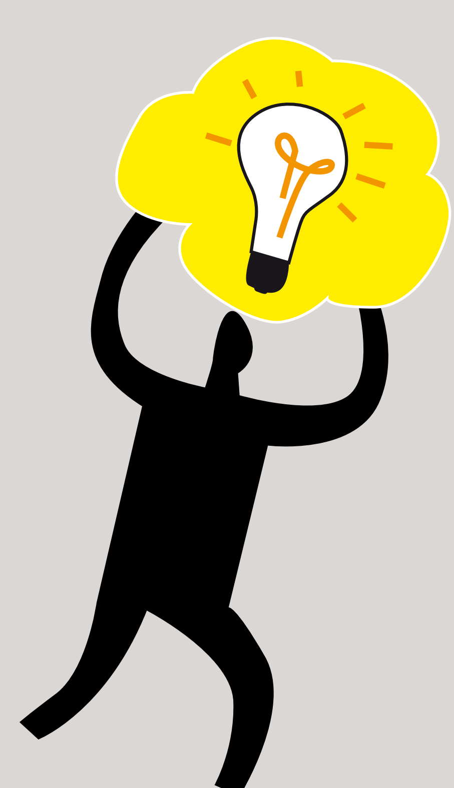
توزع مجاناً للمشتركين
- **العنوان:** أرامكو السعودية
ص . ب 1389، الظهران 31311 المملكة العربية السعودية
البريد الإلكتروني: alqafilah@aramco.com.sa

- **الهواتف:** رئيس التحرير 7321 874 3 966+
فريق التحرير 0607 897 3 966+
الاشتراكات 6948 874 3 966+
فاكس 3336 873 3 966+

رسالة المحرر

1 قضايا

الملكية الفكرية وحقوقها من القضايا التي ازدادت تعقيداتها في الآونة الأخيرة لعوامل عديدة، غير أن أبرزها يبقى في حجم الصناعة العملاقة التي باتت تشكلها براءات الاختراع وعائداتها الاقتصادية الضخمة من جهة، وتقاطع بعض الاختراعات مع بعضها الآخر، خاصةً في عالم برامج الكمبيوتر. ناهيك عن الأعباء التي تهدِّد الدول النامية المستهلكة للملكيات الفكرية المسجلة في معظمها في الدول المتقدمة.

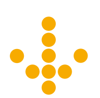


أما باب قول في مقال فيتناول أسباب الفشل الذي انتهت إليه بعض المواقع العربية التجارية على شبكة الإنترنت بعد أن كانت تأمل خيراً من اتباع الخطى الغربية نفسها.

2 طاقة واقتصاد

بعد ذلك يتناول باب الطاقة والاقتصاد موضوعين، أولهما عن الجهود الهادفة إلى اكتشاف بديل عن النفط والغاز اعتماداً على المصادر النباتية، حيث يؤكد الكاتب أن ما تم إنجازه حتى الآن يبقى أقل بكثير مما تحاول المصادر المتفائلة ترويجه. والثاني حول مستقبل صناعة الإعلان في دول الخليج العربي على ضوء نموها اللافت خلال السنوات الأخيرة.





3 علوم وبيئة

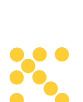
وبالوصول إلى مناخ البيئة والعلوم، يطالع القارئ في هذا العدد قراءة جديدة لما تم إنجازه عالمياً على صعيد الاهتمام الحديث بالبيئة، بحيث إن أسماء مدن مثل ريو وكيوتو وغيرها أصبحت مرادفة للأنظمة والطموحات في عالم البيئة.

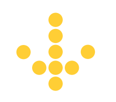


الفاصل المصور

ويدعونا الفاصل المصور في هذا العدد إلى استراحة جمالية مع أعمال المصورة السعودية هيفاء المطوع التي تستوقفنا بتركيزها على أجزاء الأشياء لخطابها الخطي والشكلي، إضافة إلى بعض الصور الشخصية اللافتة بتشبعها بكل مقومات الأعمال الكلاسيكية في هذا المجال.







4 الحياة اليومية

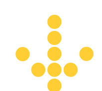
وفي مناخ الحياة اليومية موضوع رئيس: المقهى العربي المعاصر. هذا الجديد على مدننا العربية، المختلف تماماً عن المقاهي كما عرفتها مدننا تاريخياً، والذي يبدو موحداً ما بين الرياض وجدة والقاهرة وبيروت والمغرب.



5 الثقافة والأدب

ولمناسبة تزامن صدور هذا العدد مع عيد الأضحى المبارك، يتضمن المناخ الثقافي موضوعاً رئيساً حول المطوف.. مضيف الحجاج إلى بيت الله الحرام ومرشدهم في أداء مناسك الحج.

ويتناول هذا المناخ قراءة لآخر ما أصدره الروائي المغربي محمد عز الدين التازي بعنوان «كائنات محتملة»، مع التركيز على سمة من سمات الرواية المغربية نعرف عنها القليل في المشرق.



6 ملف العدد

أما صفحات الملف فتخصصها القافلة للدمية.. الدمية التي كانت دائماً مرادفاً للطفولة. ولكن الملف يؤكد لنا أنها ذات شأن وتشعبات أكبر من أن تنحصر في هذه النظرة البسيطة.



المحرر

الرحلة معاً

تفاؤل عربي

إذا سلَّمنا المقود لإحساسنا العارم بالتأخر العربي على كل الأصعدة فإن أحداً لن يلومنا. كما أننا، في الوقت نفسه، لن نصل إلى شيء، غير ما وصلنا إليه من الأسى والأسف على تردي أحوالنا وانكسار إرادتنا وطموحنا. في السنتين الأخيرتين، على الأقل، بدأت أشعر بأننا أفضل، وأن حالنا مقدور عليها إذا تفاءلنا ووضعنا (يأسنا) الكبير جانباً. أشعر، والشعور ابن عم الحلم، بأن أمتنا بدأت، وإن ببطء، تتفهم نفْسها المعاصرة. في كل أصقاع الأرض العربية هناك عدد من المثقفين العتاة يتنازلون علناً عن الارتباط بالأحلام الكبيرة لينتسبوا إلى عالم الواقع. يحدث ذلك في السياسة والاقتصاد والثقافة وعلم الاجتماع. وبينما كان هناك في مراحل سابقة من يصرخ في وجه الآخر: إما كل شيء أو لا شيء، صار الأغلب الأعم يؤمن بنظرية التدرج للخروج من المأزق. وبنى كثير من المفكرين آراءهم الحديثة على غير ما بنوا عليه تلك الآراء القديمة، التي لا يجوز أن نحكم عليها بالبطلان بقدر ما نضعها في ظروفها الزمانية والمكانية المناسبة.

لم يعد العربي، وليكن ذلك في تصوري فيما بعد العام 2000م، سائراً بين حكمين: إما حكم المكابرة أو حكم جلد الذات. فلا الأولى أوصلتنا إلى نتيجة ترتجى ولا الثانية بعثت فينا الهمة والعزم على النهوض من سباتنا. بل ربما سقطنا جرَّاء اجترار الحالتين في هوة سحيقة فقدنا معها قدرتنا على التوازن والتصرف بحكمة مع واقعنا وقيمتنا الحضارية بين الأمم. وربما، أيضاً، تسببت حالة الاجترار هذه في قفز بعض الأفكار المتربصة لتصطاد في مائنا العكر وتؤكد على رسوخنا في حالة اليأس، إلى حد اتهامنا بافتقادنا القدرة على الحياة والتجديد.

اليوم تنتشر عبر الأرض العربية الشاسعة عدوى الحوار، وهي عدوى حميدة تؤسس لمنطلقات جديدة ومتغيرة في التفكير والتداول ومبادلة الآخر أفكاره ورؤاه. ليس الآخر الشقيق أو المجاور فقط، بل الآخر البعيد أيضاً، الذي يقيم معنا علاقات مصالح مشتركة ومتشابكة لا يمكن فك ارتباطها بالتشنجات والإلغاءات. وبينما كانت هذه العدوى، عدوى الحوار، مستبعدة أو كامنة،



جرى مؤخراً تأسيس عدد من المنابر التي أطلقت الأفكار والألسنة والأقلام لتفصح عمَّا تراه، بغض النظر عن الاتفاق أو الاختلاف معها. المهم، وهذا ما يثير طرفاً من التفاؤل، أن الناس تتعلم الآن على الاختلاف وتدير شؤونها تحت مظلات وطنية، بقدر ما تتيح لها الفرصة تمنحها حالة من الاطمئنان إلى المستقبل.

وما يمكن أن يلاحظه المراقب في الحوارات الدائرة أنها تتجاوز العادة القديمة في قصر الحوار على النخب الرسمية إلى إجراء الحوار بين هذه النخب ونخب المجتمع المدني بكل أطيافه وألوانه، مما يمهِّد لخلق مسؤولية جماعية أو (مجتمعية) تجاه القضايا الراهنة والاشتراك في نقلها إلى حالة بنَّاءة تعود بفائدتها على الجميع دون استثناء أو استئثار.

الحوار، أيضاً، بصفته سبباً رئيساً للتغير المنشود خلق مجموعة أسباب أخرى لا تخطئها عين المراقب. فالتعليم مثلاً، باعتباره المُبشِّر في نهوض المجتمعات والمؤثِّر في حركتها، يخضع الآن لحوارات متعددة لا تسبقها شروط أو أجندات جاهزة. وبات الناس يطالعون في محافل رسمية وشعبية الكثير من الأفكار الجادة والحادة فيما يتعلق بأطره ومناهجه ومخرجاته. يحدث ذلك في الوقت الذي تُبدي فيه النخب الرسمية استعدادها للاستماع والتجاوب، بعد أن أدركت أن نواتج العملية التعليمية لا تؤثر فقط في المسار المعيشي اليومي للناس، بل تؤثر في أمنهم النفسي والاجتماعي. وبالتالي أصبح من الجائز أن يبدأ التغيير في هذه العملية من النخب الرسمية نفسها، ويكون دور نخب المجتمع رفد هذا التغيير بالاستعداد لمناقشته على قاعدة المصلحة العامة وتجنب الأحكام المسبقة في حقه، الأمر الذي سيضعنا على الطريق الصحيح لتحقيق نهضة تعليمية ترفع من قدر حضورنا وتأثيرنا في مسار حضارة اليوم والمشاركة في صناعتها.

وإذا كان الحوار المفتوح حول مسائل التعليم سبباً من أسباب حالة التفاؤل فإن الإعلام العربي يمثِّل سبباً آخر لهذا التفاؤل. وأكاد أجزم أن الإعلام العربي تجاوز حالة الحوار والتداول إلى حالة من التطبيقات الصحيحة التي نراها على الأرض. فهذا الإعلام توافر له منذ سنوات الكثير من الإمكانات والتقنيات التي وضعته في مصاف المنافسين الكثر حول العالم. أما صناعة التحليل والحوار وبناء الرؤية المؤثرة في الرأي العام فقد تطورت بما لا يقاس بما كان يحدث قبل بضع سنوات، حين كان أداء الإعلام العربي تقليدياً وعاجزاً عن الوصول إلى الأسئلة الكبرى التي تدور في أذهان الناس. وأظن أن الإعلام العربي بالذات سيواصل تطوره مدفوعاً بالمنافسة المشتدة على هذا الصعيد من جانب وبالمتغيرات العربية المتسارعة من جانب آخر.

ولأن هذه الزاوية بدأت تضيق على موضوعها فإن ما أردت قوله هو أن هناك الآن ما يمكن أن نسميه ردم الفجوات العربية. تلك الفجوات الكائنة بين ما يتطلع إليه الناس وما هو قائم بالفعل. هناك في الأفق نوايا وأعمال صادقة على كل مستوى، سواء أكان مستوى رسمياً أم شعبياً. المهم هو أن يشجع المسؤول والمثقف العربي الظروف والعوامل الذاتية والموضوعية التي تكفل ردم هذه الفجوات، لئلا يطول بقاء العربة أمام الحصان.

رئيس التحرير



قافلة القرّاء

إلى.. رئيس التحرير

ترحّب القافلة برسائل قرائها وتعقيباتها على موضوعاتها، وتحتفظ بحق اختصار الرسائل أو إعادة تحريرها إذا تطلب الأمر ذلك.

ساعات الكوارتز

أحييكم وألفت انتباهكم إلى خطأ بسيط ورد في العدد الأخير من القافلة في باب زاد العلوم.

فصورة الحجر المنشورة مع الخبر بعنوان «ساعات الكوارتز وسر الدقة» هي لحجر «أميتيست» بدليل لونه البنفسجي. وهو الحجر الذي عرفه العرب باسم «الجمشت».

صحيح أن هذا الحجر هو من عائلة الكوارتز، ولكن الحجر المستعمل في صناعة الساعات هو الكوارتز الأبيض (عديم اللون) المسمى بالبلور الصخري، وكان من الأصح نشر صورته بدلاً من نشر صورة نسيبه.

يعقوب بلان
جدة

حول رحلة الرعب

قرأت في العدد الأخير من القافلة بحثاً طويلاً بعنوان «رحلة الرعب»، يدور حول أفلام الرعب في السينما ورواياته في الأدب. وقد استوقفتني بعض فقراته رغم جودته بشكل عام، ومسعاه إلى أن يكون شاملاً لمختلف جوانب الموضوع.

إذ يقول الكاتب في البداية إن «الأدب الغربي متعلق بالعصور الوسطى ويجتر هذا الماضي إما استقراءً أو نقداً أو تمجيداً». ولا أعرف حقيقة من أين أتى بهذه الملاحظة.

فالأدب الأوروبي عرف ولا يزال يعرف منذ عصر النهضة انقلابات مستمرة ليس فيها من اجترار الماضي شيء، فما علاقة دانته وبكاشيو في عصر النهضة بمن سبقهما؟

وما علاقة هوغو وشانوبريان بدانته وبترارك؟ وما علاقة فلوبير بشكسبير؟ إن الأدب الأوروبي يعيش كما هو حال الثقافة الأوروبية بأسرها، في تطور مستمر من دون إلغاء لماضيه، بل يتعامل مع هذا الماضي للانطلاق نحو الجديد والمختلف.

أعتقد أن ما دفع الكاتب إلى أن يقول ما قاله هو موقف شخصي من الثقافة الغربية ككل. وهذا ما أدى به إلى إطلاق تعميمات مسيئة مثل قوله في الفقرة الأخيرة «هكذا انتقلت ثقافة الرعب عبر أفلام هوليود العنيفة حيث لا مكان للأخلاق». ولا نعرف من أين أتى بهذا الحكم على سينما هوليود.

فمقابل كل فليم مسيء للأخلاق، هناك عشرة تروج للأخلاق الحميدة، وتؤكد انتصار الخير على الشر. ومقابل كل فليم مبتذل هناك عشرة تقوم على روايات أدبية راقية.

وفي هذا المجال فإن السينما الهوليودية تنتصر على كل وسائل التعبير الفنية الأخرى. ويكفي لتوكيد ذلك أن نشير إلى آلاف وآلاف الأفلام البوليسية التي تتحدى فيها قوى الخير العاملة على تحقيق العدالة كل الصعوبات وتقدم التضحيات كي تنتصر في النهاية للمظلوم. ناهيك عن مئات الأفلام التي تؤكد حتمية النجاح للمستقيم والمُجِدّ وما شابه ذلك.

المفاجئ حقاً في المقال هو أن الكاتب أستاذ إعلام وإيديولوجيا في معهد فرنسي. ومن حقنا في هذه الحالة أن نتوقع منه الإشارة إلى مهرجان «أفورياز» الفرنسي لأفلام الرعب «ولكننا لم نجد إشارة إليه في المقال.

جمال أسعد إبراهيم
بيروت

البطاقة الممغنطة

أشكر القافلة على كل ما تقدمه لنا من مادة علمية وثقافية دسمة. وأود أن أخبركم بأنني أقرأ أول ما أقرأ فيها قصة ابتكار وقصة مبتكر. وقد حدث معي أمر طريف مؤخراً. فبالصدفة، وبعدما قرأت موضوع البطاقة الممغنطة، سافرت إلى البحرين حيث نزلت في أحد الفنادق التي تستعمل هذه البطاقات.

ردود خاصة

إلى الأخوة

- عبدالله علي عامر الأحمري: **من الأسهل أن ترسل أرقام الأعداد التي تنقصك. فتزويدك بها أمر ممكن إذا كانت متوافرة.**
- علاء الدين حسن، الحسكة، سورية: **يمكنك مراجعة «قافلة الأبحاث» الوارد عنوانها على الغلاف الداخلي من المجلة.**
- حسني محمد بدوي، الإسكندرية: **سبق أن أجبنا عن رسالتكم بريدياً، واعتذرنا لضيق المجال.**
- بندر بن صالح السبعان، الأحساء: **ما طلبته ليس من اختصاص القافلة، وهو غير متوافر لديها.**
- محمد أحمد علي البقشي، الهفوف: **نعم، الأمر يتعلق بالبريد، إذ أن اسمك كان ولا يزال على لائحة المشتركين.**

كنت أعرف سابقاً أن هذه البطاقات تُستعمل لفتح الأبواب فقط. ولكن بطاقتي كانت مثل التي كتبتم عنها. ولو لم أكن قد قرأت المقال في القافلة، لما عرفت عند وصولي إلى غرفتي أنها تستعمل أيضاً للإنارة، ولعرَّضت نفسي لموقف محرج.

عباس حمد خليفة
الدمام

أين الرياضة؟

أهنئكم بداية على ما تقدمونه للقراء من مواد علمية وأدبية رفيعة المستوى، تجعل القافلة مجلة كل بيت يرغب في الاستزادة من العلوم والمعرفة. ولكن لي ملاحظة ألا وهي غياب الموضوعات الرياضية عنها.

إن الاهتمام بالرياضة يجتذب الشباب إلى المجلة، وأنا أنطلق من هذا ليس لأنني شخصياً مهتم بالرياضة، بل لأن أولادي يهتمون بها، وآمل أن تكون الموضوعات الرياضية سبباً كي يبدأوا بقراءة القافلة، علَّهم يقرأون بعد ذلك المقالات العلمية والأدبية ويعتادون عليها.

هباس وحيد سليمان
الرياض

القافلة: سبق ونشرنا موضوعات كثيرة حول شؤون الرياضة والشباب. وسنستمر في ذلك -إن شاء الله-. أما تغطية النشاطات الرياضية الاعتيادية فلا تدخل في نطاق عمل المجلة.

ملف حول القافلة

يسعدني جداً أن تصل القافلة إلى مقر سكني. فلكم مني جزيل الشكر والتقدير لما تبذلونه من جهد. وقد طالعت ملفاً حول الجريدة قبل أن تصل إليك، وأعجبني كثيراً، وأبهرني فعلاً العمل الضخم الذي لا نرى مثيلاً له في مكان آخر. فخطرت لي فكرة، ألا وهي تخصيص ملف حول القافلة قبل أن تصل إليك، كي نعرف ما نجهله عن خفايا العمل الكبير لإرضاء أصدقاء القافلة وقرَّائها. ويسرني جداً أن أرى ذلك يتحقق في الأعداد المقبلة -إن شاء الله-.

عمر برمان
الجزائر

أوبئة العلاقة المضطربة

قرأت في القافلة (العدد الثالث من المجلد 55) مقالاً بعنوان «بين الإنسان والحيوان» للدكتور أحمد مغربي، وسعدت جداً بذلك. ففيه جهد واضح ويدق ناقوس الخطر المحيط بعلاقتنا بعالم الحيوان. كما أود أن أشكر الكاتب على العرض الذي قدمه لتاريخ الأمراض التي انتقلت على مر العصور من الحيوان إلى البشر. وأخص بالذكر هنا الجانب المتعلّق بالطيور، التي لا تخلو منها مائدة أية أسرة وذلك لرخص ثمنها، وغناها بالبروتينات ومذاقها المميز، إضافة إلى وجود بعضها للزينة. ويا ليت الدكتور مغربي توسَّع في حديثه عن أنفلونزا الطيور والوقاية منها.

نادرة أحمد عبدالفتاح
طنطا، مصر

نادرة في اليمن

يطيب لي أن أقدِّم لكم الشكر والتقدير على الإخراج والعمل الجيد المميز في هذه المجلة، حيث سبق أن اطلعت على أحد الأعداد من أحد الأصدقاء فكنت من المعجبين حقاً بهذه المجلة التي هي بسيطة في قراءتها وجميلة في معانيها ومواضيعها. لذا أطلب منكم أن أكون ضمن قائمة المشتركين. خاصة أنني شغوف بقراءتها، وهي نادرة في اليمن.

غازي علي محروس
حضرموت، اليمن

بلا مجاملة

أقول بلا مجاملة إنها مجلة ثقافية منوَّعة وفي القمة. فقد وجدتها مؤخراً على رفوف مكتبتنا الجامعية بالجزائر العاصمة. فأنا طالب جامعي في كلية العلوم الإسلامية في السنة الرابعة، تخصص لغة ودراسات قرآنية. تناولت عدداً منها، لأقع في شراك حبها منذ تلك اللحظة. طالعت أعدادها الواحد تلو الآخر.

أفادتني كثيراً لما تحويه من معلومات قيمة. قلَّما تعثر عليها في الكتب، إضافة إلى الدراسات الميدانية التي تبحث في الظواهر المستجدة في المجتمعات العربية والإسلامية، وكذلك تعجبني فيها أركانها المميزة خاصة: الملف، قصة ابتكار وقصة مبتكر، ومواضيع الطاقة والاقتصاد وركن القضايا.

أرجو أن تطلعوني على شروط الاشتراك، لأني لا أريد تفويت فرصة قراءة هذه المجلة.

طاهيري عبدالعزيز بن بلخير
الجلفة، الجزائر

القافلة: لا شروط للاشتراك غير الاهتمام، وستصلك المجلة بانتظام -إن شاء الله-.



المشتركون الجدد

مهوس محمد مهوس فلاج، حائل - محمد سليم السلمي، كيرلا، الهند - حسن عبدالرحمن الكاف، جدة - محمد فقيه، أدرار، الجزائر - علي عبدالمجيد حسن النمر، الدمام - ياسر حمد هلال العامري، سلطنة عُمان - رحماني طه، آفلو، الجزائر - محمود سليمان، نجع حمادي، مصر - صالح عبدالله يوسف الدخيل الله، القصيم - حابس خالد إسماعيل، تبوك - سليمان بن إبراهيم النملة، المدينة المنورة - يوسف علي الحمدان، الأحساء - صالح بن محمد بن عبدالرحمن الثنيان، الأحساء - ثابت أحمد سعود الحربي، العيون - عبدالرحمن بن محمد السيد الهاشم، الأحساء.

القافلة: وصلتنا عناوينكم، ونرحِّب بكم أصدقاءً للقافلة التي ستصلكم أعدادها بانتظام من الآن فصاعداً -إن شاء الله-.

قافلة القرّاء

نافذة جديدة في بريد القافلة لكتابات تناقش موضوعات طرحت في أعداد المجلة فتكون أكثر من رسالة وأقل من مقال.

قراء القافلة مدعوون للمساهمة في هذه المناقشات على أن تكون كلمات المشاركة بين 300 و 600 كلمة، مع احتفاظ فريق التحرير بحق الاختصار إذا دعت الحاجة لذلك.



شر مريض مستطير.. ومن دون سبب

استمتعت بقراءة موضوع «رحلة الرعب من القارة القديمة إلى هوليود» في عدد القافلة الأخير، وكنت أود لو أن الكاتب استطرد في حديثه أكثر لنفهم ولع المشاهد الغربي، ولنقل الشاب الغربي اليوم، بأفلام الرعب. فدراكولا وفرنكشتاين وجودزيلا لم يعودوا قادرين على بث الرعب في قلوب المشاهدين الغربيين كما كانوا يفعلون سابقاً. هذه الوحوش تنحت لتفسح المجال أمام تيمة جديدة في أفلام الرعب، وهي تيمة القاتل السيكوباتي التسلسلي. القاتل الذي يؤدي عمله في حرص واتقان ودقة، ومن دون غاية منطقية إذا جاز لنا التعبير.

فهذا القاتل، سواء أكان رجلاً أم امرأة، لا يبغي من سلسلة ضحاياه نفعاً مادياً، ولا يرجو أن تتحقق له فائدة قد يستطيع المشاهد فهمها بسهولة والتوحد معها بطريقة أو بأخرى. هذا الاتجاه يتمثل في سلسلة من الأفلام، ذكر بعضاً منها الكاتب د. أمين الصوصي مثل فيلم «سبعة»، وفيلم «كابوس في إلم ستريت»، وفيلم «الصرخة».

تعكس هذه الأفلام بعضاً من خصائص المجتمع الغربي في العقدين الأخيرين من القرن العشرين وحتى بدايات القرن الحادي والعشرين، وبدلاً من «التطهير» الذي يتوقعه المشاهد بانتصار الخير على الشر في نهاية الفيلم، وبالتالي الإحساس بالأمان من المخاوف الدفينة في النفس الإنسانية، يحصل المشاهد للفيلم على سلسلة لا تنتهي من الأجزاء التي تستثمر نجاحه في جزئه الأول، وبالتالي تحافظ على جذوة العنف والرعب، حتى الجزء التالي. وتحصر الضحية في هذا الفيلم -التي لم تقدم شيئاً تستحق عليه كل هذا العقاب- في دائرة ضيقة من العجز وقلة الحيلة أمام شر مستطير، والأدهى أنه شر مريض أيضاً لا يقدّم أسباباً مقنعة من الأسباب التي قد تدفع البشر إلى ارتكاب الجرائم كالطمع أو الغيرة أو الانتقام. وربما نستطيع أن نعتبر الكثير من هذه الأفلام مرآة لمخاوف المجتمع الغربي في العصر الحالي، فالشباب من أبطال هذه الأفلام، يفتقرون إلى الجدية في تناولهم لأي شأن من شؤون حياتهم. شباب قاس وخال من العاطفة، وغير قادر على التفريق بين حياته الواقعية، وبين ما يُراه على الشاشة من عنف ودماء.

وتوضح الكاتبة الأمريكية باربرا كينجسولفر في مقال لها بعنوان «الحياة قيمة، أو ليست كذلك؟» أن الجرائم السيكوباتية التي تهز المجتمعات الغربية من حين لآخر، وهي تلك الجرائم العنيفة التي تحوي من الشر ما لا يستطيع العقل البشري تخيله، نتيجة طبيعية للعنف الذي دأبت وسائل الإعلام على تقديمه للأطفال الذين سرعان ما يتحولون إلى مراهقين يطالبون بالمزيد من العنف، لأن الدماء الموجودة حالياً على الشاشة لم تعد تثير خوفهم لكثرة تعرضهم لها.

إسعاد عثمان

مصر

حول موضوع «رحلة الرعب من القارة القديمة إلى هوليود»، القافلة عدد نوفمبر-ديسمبر 2006



شاعر وذئب رابع

اطلعت في العدد الرابع من المجلد 55 على مقال رائع للكاتب صلاح عبدالستار الشهاوي، عن ثلاثة شعراء وثلاثة ذئاب، وأحببت أن أزيد عليهم شاعراً رابعاً وذئباً رابعاً وهي قصة الشيخ الشاعر محمد بن عبدالله بن بليهد -رحمه الله- مع الذئب.

قال ابن بليهد: بت ليلة في بيداء مقفرة، فأقبل عليَّ الذئب وقد أشعلت ناري وطرحت صيدي بجانبها. وقمت أصلي وناقتي معقولة أمامي. وبعد فراغي من الصلاة لاحظت أن الذئب قد همَّ بي فألقيت إليه بعض اللحم. ثم خشيت إن هو ذاقه ألا يتركني وتلك عادة معروفة لدى الذئاب. فسحبت اللحم فكأني قد استثرته فأخذ يبدي من الحركات ما يسبق انقضاضه في العادة، فغافلته وقتلته. ثم أسرعت في إنضاج شوائي وحملته بين يديَّ لآكل منه على ظهر ناقتي، ثم أسرعت إليها فأطلقت عقالها وهربت من المكان لأن الذئاب حين تشم رائحة دم صاحبها ستسرع للانتقام، وبهذه المناسبة نظمت هذه القصيدة:

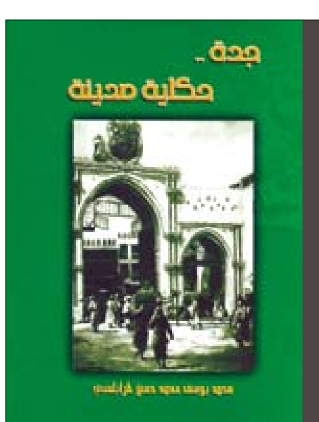
وذئب جسور الخطو غير مجرّب ... لفعلي ولم تمسسه بعد قناتي
وقد غرَّه منـي سكوتي وأنني ... مـن البرد قـد لفّت علـيَّ عباتي
فأقبل كالمختال يمشي محرحراً ... آتـاه المنـى فـي مقفـر الفلوات
فلي نظرة منها وأخرى لناقتي ... أمامـي وقـد أوثقتهـا بحباتـي
وقد قمت للرحمن ربي مصلياً ... فأمهلنـي حتـى قضيت صلاتي
هو الله لم يمكنه مني بسجدة ... ونـاري من خلفـي أشـد حماتي
بقدرته حتى قضيت عبادتي ... وأدنيت مني صارمـي وعصاتي
وقلت له ياذئب إني وناقتي ... عليك حـرام فأقنعن بهباتـي
سأطعم من صيدي وأعطيك بعضه ... وإن أنت لم تشبـع رميت قناتي
إليك فإن أغـرتك فيّ شـراسة ... بطبعك لـم تقنـع بغيـر حياتي
فدونك إن ما شئت ضربة صارم ... له من سيوف الهند خير شباتي
تمطى وأرخى فكه في ثنائب ... ليخدعني أو أن تلين حصاتـي
علمت بأن الحـرب بيني وبينه ... علـى كف شيطـان دعاني هاتي
فقلت على رسلي لألحظ فرصة ... يكون بها الحظ السعيد مواتي
فخاتلته حتـى أتت ففجأته ... بهجمـة فتـاك كجمـع كمـاة
وأعملت فيه السيف والرمح والعصا ... ولـولا الأذى أكرمتـه كعفاتـي
وما هبته مثل الفرزدق إذ دعا ... إلـى صخبـة مجلوبـة بهباتـي

حسن بن عبدالله الثقفي

الطائف

حول موضوع «ثلاثة شعراء وثلاثة ذئاب»، القافلة عدد يوليو-أغسطس 2006

• جدة.. حكاية مدينة



واحد من الكتب البارزة التي تتناول المدن السعودية وتاريخها القديم، وتغوص في تفاصيل تاريخها الحديث، من تأليف محمد يوسف محمد حسن الطرابلسي، صدر مؤخراً في جدة، ويقع في 608 صفحات.

يتسم هذا الكتاب بالشمولية إلى حد كبير من حيث الجوانب المختلفة التي يتناولها من تاريخ المدينة ومسيرة تطورها حتى القرن العشرين، بدءاً بالجغرافيا وانتهاءً بأبرز المحطات في مسيرة تحديثها بعد توحيد المملكة.

ومن أبرز فصول هذا الكتاب: حوادث ووقائع تاريخية، الطبقة الاجتماعية للمجتمع الجداوي، البناء في جدة القديمة، جدة والماء، التجارة والاقتصاد، أشهر المساجد والزوايا، الزيجات في جدة القديمة، الزي في جدة القديمة، الإنجازات (العصرية) في جدة، ورجالات من جدة.

والواقع أن عنوان كل فصل هو عنوان جملة مقالات شبه مستقلة عن بعضها البعض. إذ نجد تحت عنوان «التجارة والاقتصاد» مجموعة عناوين فرعية مثل: الأسواق، الأحواش، القبوة والخانات، زقاق الخراطين، السبح وخراطتها، قصة سوق النورية، المنادي، موزع البريد الكفيف، الفنادق، السيارات، تجارة الرقيق والأعراف التجارية السائدة.

إلى ذلك يزدان الكتاب بمجموعة من الصور القديمة لجدة وأبرز رجالاتها في القرن الماضي.

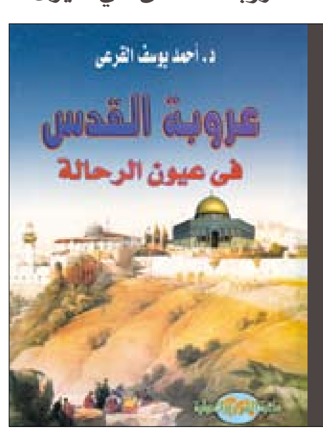
• «السيطرة على الإعلام»



الطبعة الثانية من كتاب المفكر الأمريكي ناعوم شومسكي وتعريب أميمه عبداللطيف.

يقع هذا الكتاب الصادر عن مكتبة الشروق الدولية بالقاهرة، في نحو 60 صفحة فقط، ولكنه استقطب وقت ظهوره بالإنجليزية اهتماماً إعلامياً كبيراً، نظراً لشهرة مؤلفه أستاذ علم اللغويات في معهد ماساشوستس للتكنولوجيا، ولتناوله الدور المتعاظم الذي يلعبه الإعلام على الساحة الدولية في عصرنا. ومن أبرز فصول هذا الكتاب: الإنجازات الهائلة للبروباجندا، العلاقات العامة، إدارة الرأي العام، استعراض الأعداء، انتقاء التصور، والصحفي القادم من المريخ.

• «عروبة القدس في عيون الرحالة»

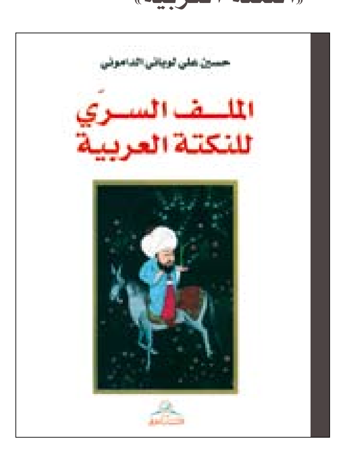


كتاب من تأليف الدكتور أحمد يوسف القرعي، يسجّل شهادات عدد من الرحالة العرب والمسلمين والأجانب التي تدعم توثيق عروبة القدس تاريخياً، وذلك من واقع المشاهدة والرؤية لمعالم المدينة المقدسة.. الأرض والإنسان، الأثر والعين، التاريخ والجغرافيا.

يقع الكتاب في 111 صفحة وهو يتناول من رحلات العرب والمسلمين:رحلة ناصر خسرو، ورحالة عاصروا الحملات الصليبية مثل الإدريسي، ابن جبير، الهروي، ابن منفذ، إضافة إلى ابن بطوطة وغيره.

أما من الرحالة الأجانب فيتناول المؤلف الرحالة الألماني فيلكس فابري، والكاتب الفرنسي شاتوبريان، وعدداً من الأمريكيين الذين زاروا القدس العربية في القرن التاسع عشر.

• «النكتة العربية»



«الملف السري للنكتة العربية» هو عنوان الكتاب الذي وضعه حسين علي لوباني الداموني، وصدر عن دار الانتشار العربي في بيروت.

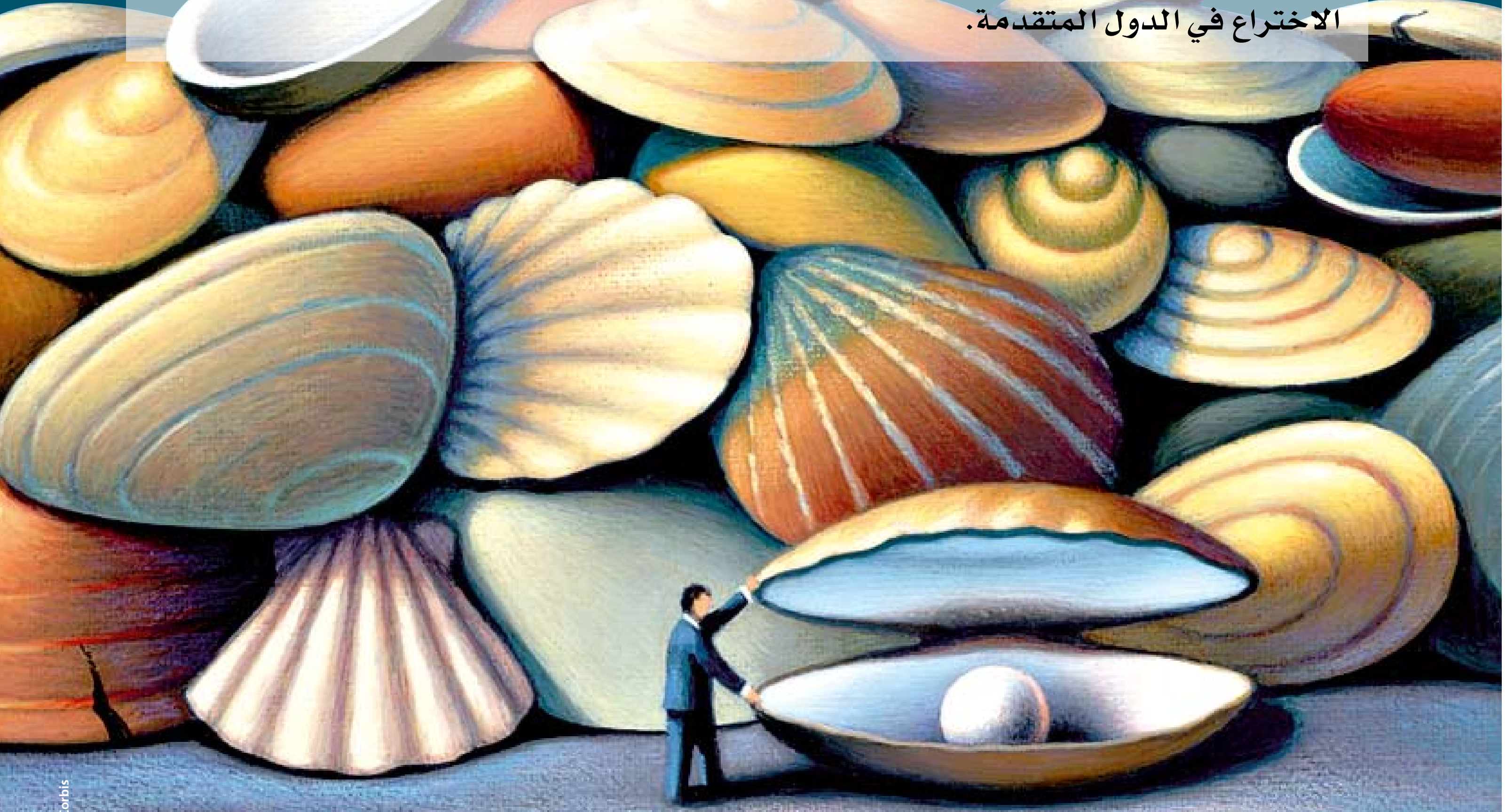
والكتاب الواقع في 268 صفحة يتعدى تجميع الطرائف التي تمثل معظم صفحاته، إذ ضمنه الكاتب مقدمة طويلة نسبياً تتناول حس النكتة عند العرب وتاريخها، وأبرز طرفاتهم، إضافة إلى بعض انطباعاته الخاصة عن أسباب رواج بعض الطرائف أكثر من غيرها. وبعد ذلك، تناول مجموعات من الطرائف المبوبة حسب مصادر جمعها (أو تأليفها). ومن أبرز أدباء الفكاهة الذين يعود إليهم المؤلف، نذكر أنيس فريحة، بوعلي ياسين، خالد القشطيني، علي مروّة، راجي الأسمر، عبداللطيف البرغوثي، وبهاء الدين العاملي، إضافة إلى بعض المقتطفات من المجلات والدوريات المختلفة.

الملكية الفكرية في عصر التكنولوجيا

تشنج بين صناعة براءات الاختراع والمنفعة العامة

يطرح تسجيل براءات الاختراع، بشكله المحموم حالياً والذي تضاعف خلال عقد واحد، قضية مستجدة تتمثل في وجوب إعادة النظر في مفهوم الملكية الفكرية وحقوقها.

هدى بتروبولس* تتناول هذه المسألة التي أصبحت شائكة من جانبين رئيسين: أولاً التعقيدات القانونية المتزايدة نتيجة تطور التكنولوجيا وبشكل خاص برامج الكمبيوتر، حيث تزداد يوماً بعد يوم صعوبة تحديد أصحاب الحقوق المستفيدين من بعضهم البعض، وثانياً بدء سياسات حماية الحقوق المتشددة في جرف مفهوم الملكية الفكرية في اتجاهات تكاد تكون عكس الغاية الأساس من مفهوم التطور والاختراع، ألا وهو تعميم الفائدة والمعرفة على الجميع، مع كل ما في ذلك من تداعيات على الدول النامية وشعوبها المستهلكة لبراءات الاختراع في الدول المتقدمة.



Corbis

* باحثة عربية مقيمة في اليونان



أدخلت التطورات التكنولوجية والعلمية المتسارعة المجتمع البشري في إشكالية بين استخدام هذه التطورات لحل مشكلات لا تزال البشرية تعانيها بشكل واسع كالفقر والتخلف والأمراض، وبين حماية حقوق الملكية الفكرية في وضع ينزع إلى تقوية هذه الحقوق في الميدان الاقتصادي.

وقد راجت تعابير ومفاهيم جديدة لوصف التطور الحاصل، مثل «اقتصاد المعرفة» و «مجتمع المعرفة» و «مجتمع المعلوماتية»، ورغم أنها لا تزال تبحث عن تعريف رسمي لها، فإنها تنطق بدلالات مهمة، في ظل الاستخدام المتنامي للمعرفة من أجل إنتاج منافع اقتصادية، وفي الإطار المجتمعي وصناعة المعلومات والتداول بها ومعالجتها، الأمر الذي أصبح نشاطاً ثقافياً واقتصادياً مهماً جداً، تحتل فيه تكنولوجيا المعلومات دوراً مركزياً.

في هذا الوضع الجديد تتعرض المعادلة السابقة بين نشر المعرفة وحماية حقوق الملكية الفكرية لتغيرات مهمة. يعبِّر عنها، من جهة، النزوع إلى تقوية حقوق الملكية الفكرية في الدول المتقدمة تكنولوجياً، من خلال انتشارها ومعاملة المعرفة كمنتج تجاري، أو حسبما يراها البعض، كأحد عناصر الإنتاج الرئيسة التي تستبدل بأهميتها العناصر الأخرى في صناعة الثروة الاقتصادية، ومن جهة أخرى، تطور التكنولوجيا الرقمية التي تسهِّل نقل ونشر المعرفة والتعامل بها وتقوِّي نشاطاً للمشاركة المعرفية ومجانيتها.

هذا التشنج القائم بين السهولة التقنية لنقل ونشر المعرفة والنزوع المتزايد إلى حصرها، يثير استقطاباً مهماً في جدل الملكية الفكرية، وبشكل أساس في براءات الاختراع وحقوق النشر، وما إذا كان ممكناً الوصول إلى توازن ما بين تقدم العام وتشجيع الخاص وكيف؟

المعرفة.. سلعة ما زالت تتضخَّم

باتت الأهمية الاقتصادية للأفكار ظاهرة معممة في الاقتصادات المتقدمة. وهي وإن لم تكن غائبة في السابق، إلا أنها أصبحت اليوم ظاهرة مستقوية بشكل غير عادي. فقد بات عدد من الشركات الكبرى كماً وشركات التكنولوجيا الحديثة في الدول الاقتصادية المتقدمة تعتمد في أرباحها بشكل أكبر على بيع أو ترخيص أفكارها، أي ما يسمى براءات الاختراع، أكثر من اعتمادها على منتوجاتها.

ويظهر في ملف خصصته مجلة «الإيكونوميست» (في 20 أكتوبر 2005م) لموضوع الملكية الفكرية أن «ثلاثة أرباع القيمة للشركات المتداولة في الولايات المتحدة تأتي من موجودات غير مرئية، بينما كانت هذه النسبة 40% في الثمانينيات»، وتنقل المجلة عن الرئيس السابق للبنك المركزي الأمريكي آلان غرينسبان قوله: «إن المنتج الاقتصادي الأمريكي أصبح بشكل غالب مفاهيمي».

إن حلول الأفكار والمفاهيم محل الموارد المادية في الإنتاج والخدمات خلال العقود الماضية كان مذهلاً في حجمه. وتبدل معه المحيط الصناعي باتجاه الاستعاضة عن المواد الثقيلة بمواد أخف وأصغر وإلى تخصصية في الإنتاج غير مسبوقة. وانطلقت عملية رسملة الابتكار والإبداع بسرعة وعلى نطاق غير معهود تحت وطأة الثورة الرقمية. وقد تبدل دور حقوق الملكية الفكرية ضمن هذا التغيير بشكل جذري، وهو تبدل لم يحصل في فراغ، بل في الإطار والممارسات القانونية تحت ضغط لوبي الصناعات الجديدة التي تعتمد بشكل رئيس على الأفكار. وانتهت مجلة اقتصادية مرموقة (إيكونوميست أكتوبر 2005م) إلى وصف الملكية الفكرية اليوم بـ «سيولة الابتكار»، أي أن الملكية الفكرية تتجه، حسب المجلة، «من تمكين نقل المعرفة إلى إنشاء سوق تجارية لها».

الانتقال من حق النشر إلى براءة الاختراع

تتخذ حقوق الملكية الفكرية من الولايات المتحدة إلى أوروبا واليابان منحى واحداً تمثل في العقدين الأخيرين بالزيادة في عدد براءات الاختراع، الذي تضاعف خلال العقد الأخير من الزمن. هذه الظاهرة باتت أيضاً ترسم معالم ازدواجية اقتصادية بين قطاعات إنتاج تعتمد على الملكية الفكرية وقطاعات لا تحتاج إلا إلى القليل منها. ويشير المحللون إلى مصدر هذه الازدواجية بأنه بخلاف قطاعات مثل الزراعة والصلب، فإن كلفة إعادة الإنتاج قليلة جداً في قطاعات مثل الاتصالات وتكنولوجيا المعلومات وصناعة الأدوية والتكنولوجيا العالية وغيرها، ومن دون حماية قانونية للملكية الفكرية فإن المنافسة القوية قد تؤدي إلى تقويضها.

إن ما سمح بهذا التزايد في عدد براءات الاختراع هو التحول الذي حصل في الممارسات القانونية. فقد توسع نطاق براءات الاختراع ليشمل علوماً جديدة بات ينظر إليها كتكنولوجيا في قطاع علوم الأحياء وفي برامج الكمبيوتر (بدءاً من أوائل الثمانينيات في الولايات المتحدة)، والتي كانت حتى آنذاك تعتبر كعلوم صرفة في إطار حقوق النشر

وليس البراءات. والفرق أن براءة الاختراع لها مدلول سلبي تجيز لحاملها منع استخدامها من قبل الآخرين لفترة زمنية محددة. وامتدت براءات الاختراع في الولايات المتحدة عام 1998م إلى «مناهج الأعمال» (بيزنيس ميثود)، أي لوسائل جديدة للقيام بالأعمال التجارية وبشكل أساس تطبيقاتها الحاسوبية. ويؤخذ على هذا الانتشار أن الحد الفاصل بين الابتكار المفيد والابتكار غير المفيد أصبح واهياً، وأيضاً متشعباً، بحيث إن سطراً واحداً في برنامج حاسوبي (سوفت وير) يتألف من مئات البراءات قد يكون كافياً لانتهاك حقوق الملكية. والمعارضة الأشد التي تواجه هذا المنحى تتركز أكثر في موضوع برامج الكمبيوتر، باعتبار أن معاملتها كبراءات اختراع هي إعاقة مهمة لتطورها المبني على التراكم.

وعود الإنترنت بنشر المعرفة بدأت تضيق أمام استقواء الدفاع عن حقوق الملكية الفكرية

وفي الممارسة أصبحت براءات الاختراع سلاحاً رئيساً في المنافسة وضدها. إذ تلجأ اليوم الشركات إلى التعاقد لتبادل الرخص وتجميعها كإحدى الوسائل الرئيسة لتجنب الإعاقات الناتجة عن انتشار حقوق الملكية الفكرية وزيادة تكاليف الدعاوي القانونية الناشئة عنها. ويغذي هذه التعاقدات نزوع إلى «سباق تسلح» بين رجال الأعمال لحيازة أكبر عدد ممكن من براءات الاختراع لوضع معوقات قانونية في وجه المنافسين، والمقايضة في الدعاوي القضائية أو التوصل إلى اتفاقات لتبادل الرخص تجنبهم دفع مبالغ كبيرة. وينشأ عن ذلك سلوك انتهازي كالبحث عن براءة اختراع لاستخدامها كطعم ضد شركات منتجة أو تحكم الشركات الكبيرة التي تملك آلاف البراءات بالشركات الأصغر. والشركة التي لا تملك براءات اختراع هي في موقع لا تحسد عليه. ومما يُسهِّل من هذه الممارسة، المرونة في إعطاء حقوق من هذا النوع، وهو ما يؤخذ اليوم على الواقع الحالي في الولايات المتحدة، ويدفع البعض إلى مساءلة شرعيتها وما إذا كانت نسبة قليلة منها لها قيمة فعلية.

إن الحرص على حماية حقوق الملكية الفكرية على المستوى العالمي من قبل الدول التي «تنتجها» أصبح مسألة ملحة في واقع الاعتماد المتزايد لتلك البلدان على الصناعات التكنولوجية، وانتقال أجزاء مهمة من الصناعات الأقل اعتماداً على التكنولوجيا إلى حيث العمالة الأرخص في بلدان أخرى. وقد أرفق منذ عام 1994م بعضوية منظمة التجارة العالمية اتفاقية «الوجه المتعلق بالتجارة لحقوق الملكية الفكرية»، التي توسع نطاق حقوق الملكية لتطال برامج الكمبيوتر والصيدلة وغيرهما من التقنيات الحديثة، على أن تنتهي المهلة التحضيرية لتطبيقها عام 2006م. لذلك، فإن الاهتمام بإيجاد نظام ملكية فكرية ملائم لحاجات كل بلد ومنسجم مع الاتفاقيات الدولية يشغل اليوم عدداً كبيراً من البلدان، ويثير معه سجالاً حول ما هو الملائم.

ففي أوروبا يدور سجال صاخب حول امتداد البراءات إلى برامج الكمبيوتر والمعارضة له حالت دون تصديق البرلمان الأوروبي (2005م) على مشروع من أجل موقف أوروبي موحد في هذا الشأن. ووضعت الهند قانوناً جديداً لتقوية حقوق الملكية الفكرية (2005م). وفي الصين تضاعف الحكومة كل سنة العدد الذي تمنحه لبراءات الاختراع. فمع تقوية حقوق الملكية الفكرية عالمياً، ستكون البلدان التي لا تملك المعرفة التكنولوجية في موقع أضعف.

إلى ذلك، فإن الازدواجية التي يتسبب بها انتشار الملكية الفكرية بين قطاعات إنتاج لا تعتمد عليها كثيراً وقطاعات شديدة الاعتماد عليها، هي أيضاً ازدواجية تتأسس عالمياً، بين من يملك التكنولوجيا الحديثة ومن لا يملكها، ذلك أن 90% من براءات الاختراع عالمياً تعود إلى الولايات المتحدة واليابان وأوروبا.

التكنولوجيا الرقمية وحقوق النشر

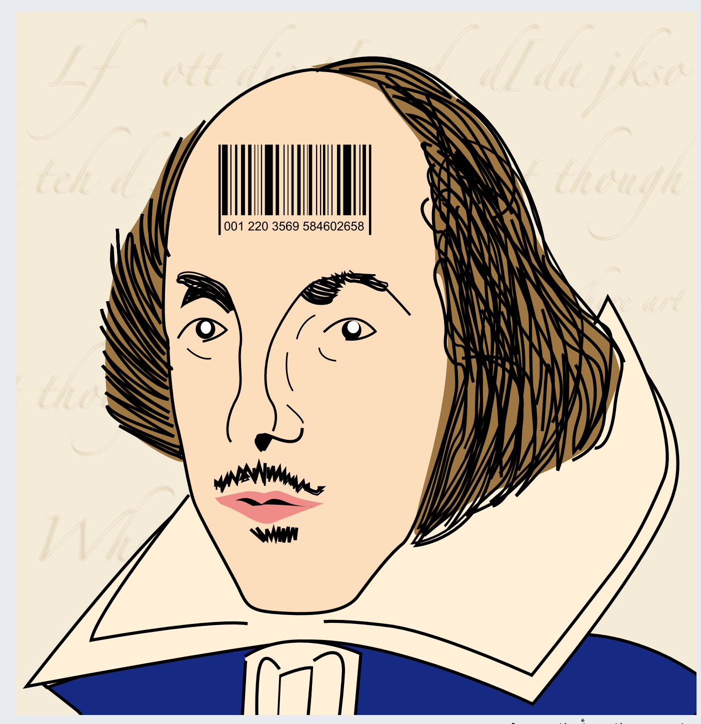
أحدثت الثورة الرقمية تغيراً مهماً في المفاهيم والممارسات في عالم النشر.
والوعد الذي قطعته وسائل المعلوماتية الجديدة، كالإنترنت، في صناعة حيز عام واسع للمعرفة يشجِّع الإبداع وحرية الرأي لم ينفذ كما كان متوقعاً له، لا بل بات يضيق أمام استقواء نزعة الدفاع

عن حقوق الملكية الفكرية. إذ توضع اليوم أشكال متنوعة من الحماية للملكية الفكرية، منها التقني لمنع الوصول إلى المادة، ومنها القانوني الذي شدد حصرية الملكية الفكرية في التكنولوجيا الرقمية أكثر مما كان موجوداً في الماضي. وفي أغلب الأحيان، فإن استخدام المعلومات والموسيقى والرسوم وغير ذلك لم يعد متوافراً من دون دفع بدل الإذن بذلك.

كانت حقوق النشر السابقة للعصر الإلكتروني تعطي لصاحب العمل المبدع، سواء أكان في الآداب أوالموسيقى أو الرسوم أو التصميم أو غيرها، حقوقاً قانونية حصرية تتيح له استغلال عمله بطرق مختلفة، مثل إعادة الإنتاج والتوزيع والعرض أو الاشتقاق، وكان قيام آخرين بنسخ العمل أو توزيعه من دون إذن صاحبه يعتبر انتهاكاً لتلك الحقوق. ولأن الهدف الأساس من حقوق النشر هو تحفيز المعرفة وليس إعاقتها وإغناء المجال العام، فإن حقوق النشر ليست غير محدودة التصرف من قبل حاملها، بل تقابلها حقوق أخرى تراعي استثناءات في التعليم والمصلحة العامة لجهة الوصول إلى المعرفة.

لقد كان هذا التوازن الدقيق بين نوعين من الحقوق في أساس مفهوم الملكية الفكرية. فما يعرف باسم «الاستعمال العادل» أو «التعامل العادل» في بريطانيا، هو المبدأ الذي يسمح بالنسخ والتسجيل ضمن شروط محدودة في إطار التعليم والبحث والنقد، على ألاَّ يكون استخدامها لعمل ربحي أو تجاري، وهو الأمر الذي يفسح المجال أمام الطلاب لاستنساخ مقالات، وأمام المعلمين لاستخدام مواد ذات حقوق ملكية في التدريس وللباحثين بالاقتباس. لا بل إن حقوق النشر لا تمنح لصاحبها حق السيطرة على الفكرة نفسها بل طريقة التعبير عنها. وهناك أيضاً حقوق أخرى تجعل من الممكن لمن يشتري كتاباً أو شريطاً موسيقياً أن يعيره أو يعيد بيعه، ذلك أن حق النشر محصور في المحتوى وليس في المادة التي تحويه. بالإضافة إلى استثناءات في حقوق النشر متعلقة بالتعليم والمكتبات وغيرهما.





شكسبير.. للبيع أم للجميع؟

لقد غيَّرت الثورة الرقمية معادلة التوازن هذه. فالسهولة التي يمكن فيها نقل المعلومات من خلال الإنترنت أو تسجيل الأفلام والبرامج أثارت مخاوف الناشرين من أن يؤدي عدم السيطرة على محتويات حقوق النشر إلى تقليص الأرباح، ودفعتهم باتجاه الضغط لتغيير القوانين من أجل حماية حقوقية أكثر مما هو موجود، خاصة في الدول التي يحتل فيها الإنترنت دوراً اقتصادياً مهماً كالولايات المتحدة وأوروبا. وهذا التغيير أزال من طريقه معظم الحقوق المقابلة لحق النشر واستثناءاتها في استخدامات الإنترنت. فلم يعد ممكناً التسجيل والنسخ ضمن شروط محدودة كما يحصل في الإطار التقليدي أو شراء المادة وإعادة بيعها، وزادت قدرة الناشرين على التحكم بالمادة وتوزيعها. ففي معظم الأحيان يقدِّم الناشرون مادتهم للمكتبات ليس كعملية بيع بل على شكل رخصة تعاقدية لفترة زمنية محددة، ويتصرفون أحياناً كثيرة بالمادة الأصلية، ويشترطون في الرخص عدم توزيع المحتوى أو إعارته خارج جمهور المستخدمين المباشر. وتنتهك هذه الممارسة في طريقها الخصوصية الفردية لما تتطلبه الرخص من تعريف بالأشخاص المشتركين، ولقدرة مراقبة المتصفحين وأي مواد يتابعون. ويشكو العاملون في المكتبات من تأثير ذلك على تهديد دورهم الأساس في حفظ وتسجيل الميراث الثقافي، وفي عدم قدرتهم على تطبيق الاستعارة بين المكتبات فيما يخص المحتويات الرقمية وغيرها من الأمور المعيقة.

الحقوق تؤدي إلى عكس غايتها؟

إن الإضعاف الذي تعرضت له الاستثناءات في حقوق النشر المرتبطة بوصول الجمهور إلى المعرفة في إطار التكنولوجيا الرقمية يهدد في نظر البعض التوازن الدقيق الذي قامت على أساسه ممارسات حقوق النشر في المجالات التقليدية، ويعزز الاتجاه لجعلها حقوقاً اقتصادية بحتة وتحويل المعلومة إلى منتج استهلاكي. ويشار أيضاً إلى أن حق النشر لم يعد يحمل صفة الحق المؤقت، حيث تصل مدته في أمريكا وأوروبا إلى 95 عاماً للشركات و 70 عاماً للأفراد بعد الحياة (قبل عام 1976م كانت المدة 28 عاماً في الحالتين)، وذلك في وضع تنتقل حقوق النشر فيه من الأفراد الذين يضطرون لبيع حقوقهم للموزعين والشركات الكبيرة.

هل أصبحت حقوق الملكية الفكرية في ظل التطور التكنولوجي عائقاً أمام نشر المعرفة بدلاً من أن تكون تسهيلاً لها؟

في دراسة أعدت في هذا الإطار سيقت أمثلة متنوعة لمعوقات من هذا القبيل في مجالات استخدام الإنترنت، مثل تأثير مخاوف انتهاك الحقوق الفكرية على مشاريع تعليمية تهدف إلى تبادل الخبرات والأساليب التعليمية بين المدرسين، وأن حقوق النسخ المسموحة في التدريس للطلاب لا تنطبق على حقوق التسجيل، وأن مشاريع حفظ المعرفة والموسيقى والتراث عبر التكنولوجيا الرقمية قد تجد نفسها أمام عمل شاقٍ جداً في محاولة لإيجاد التراخيص المطلوبة في حقوق النشر والتعامل معها، وما يسمى بالترخيص الإلزامي برسوم محددة من أجل المصلحة العامة أو لهدف تعليمي هو محدود بشكل كبير في الإطار التقليدي وغير موجود في إطار التكنولوجيا الحديثة.

إلا أنه يصعب التصور، في وضع طوَّرت خلاله تكنولوجيا المعلومات العديد من الطرق لتلقي المعلومات واستخدامها في الحياة اليومية والاقتصادية وسهَّلت وسرَّعت إلى حد كبير من استخداماتها، إن حصرية الاستخدام التي تفرضها الممارسات القانونية في البلدان المتطورة تكنولوجياً ستقوض هذه السيرورة بشكل فعلي وجذري. إن الاحتمالات الكبيرة التي تقدِّمها التكنولوجيا الرقمية تشكِّل رأياً عاماً أكثر اندفاعاً للمعرفة والتواصل والإبداع في وجه الحصرية المتزايدة لحقوق النشر، وتعبر عن ذلك إرادات مختلفة، منها ما يهدف إلى تغيير الوجهة القانونية الحالية من أجل التأسيس لاستثناءات

في حقوق النشر هدفها المصلحة العامة كما يحصل في المجال التقليدي، ومنها ما يعمل لتثبيت مشاريع ضخمة لحفظ التراث الثقافي على تنويعاته، وأخرى تسهم في تشكيل فضاءات معرفية وثقافية مشتركة تشجِّع الإبداع والتواصل وتراكم المعرفة والعلوم وتعمل على مبادئ مختلفة عن حقوق النشر تغلب فيها المشاركة على حقوق التملك.

لقد أصبح سجال الملكية الفكرية أكثر صخباً في العصر الرقمي، لكنه لا يزال يطرح سؤالاً قديماً قِدَم قوانين الملكية الفكرية نفسها حول ما إذا كان بالإمكان تشجيع النشر الواسع للمعرفة والمحافظة في الوقت نفسه على الدوافع التي تأخذ شكلاً حقوقياً للمبدعين والموزعين، وكيف؟

كل مخترع يقف على أكتاف مخترع آخر، وعزل فكرة واحدة وادعاء ملكيتها قد يغيِّب الصورة الأكبر

وإذا كان هذا السجال مطروحاً بشكل أساس في الدول المتقدمة تكنولوجياً، إلا أنه يعني وبشكل جوهري الدول الأخرى، خاصة الفقيرة منها والتي يفتح مجال التعليم الرقمي بالنسبة لها إمكانات مهمة بسبب نقص الموارد التعليمية بشكل عام، وهي تعمل في إطار حقوق نشر مختلفة لا تحصر بل توسع الوصول إلى المعرفة من خلال تسهيل استثناءات حقوق النشر التعليمية وزيادة استخدام التراخيص الإلزامية لأهداف التعليم والمصلحة العامة. كما أنها معنية أكثر من السابق في هذا السجال في وضع يتجه إلى تقوية حقوق الملكية الفكرية عالمياً.

في أصول الملكية الفكرية وتبدلاتها

هذه الحصرية المتزايدة لحقوق الملكية الفكرية في الدول المتقدمة تكنولوجياً، والتي تعبر أيضاً عن نزوع إلى تقوية المنحى التجاري للمعرفة، تثير لدى العديد الحاجة إلى العودة إلى أصول مبادئ الملكية الفكرية ومساءلة ما إذا كان الفكر الذي هو ثمرة تاريخ إنساني عبر آلاف السنين من التراكم يمكن معاملته كملكية خاصة لفرد. ولكن يصاحب ذلك أيضاً قبول بالحاجة إلى ملاءمة مع العصر التكنولوجي، مع الاختلاف على طريقة التغيير التي قد تغذي أو تعيق تطور الإبداع ومراكمة المعرفة.

إن الملكية الفكرية كبراءات اختراع هي امتياز يعطى للفرد لاحتكار مؤقت لابتكار صناعي (وقد تطور عن نظام الاحتكار الجماعي للحرفة الصناعية لأوروبا القرون الوسطى)، ويعطى لصاحب الامتياز الحق باستخدامه حصراً دون غيره لمدة زمنية محددة على أن يكون الاختراع غير مألوف سابقاً وبالتلازم مع الإعلان عنه لكي يتسنى للآخرين تعلمه واستخدامه عند انتهاء مدة البراءة، وقد تحقق ذلك مع الإقرار بإلزامية مرافقة طلب البراءة بوصف كتابي للاختراع.

أما الملكية الفكرية في حقوق النشر فهي أيضاً من المفترض أن تكون حقاً مؤقتاً يمنح لشخص مبدع في إطار الثقافة والفنون تتيح له التصرف بمادته وإعادة نشرها واقتباسها وعرضها وغيره. والهدف الأصلي في نشأة الملكية الفكرية بشكل عام هو تعويض المبتكرين والمبدعين تكاليفهم وجهدهم وكحافز يشجعهم على الكشف عن اختراعهم أو نشر وعرض مادتهم بدل إخفائها.

وبقيت النظرة للملكية الفكرية كامتياز، حسبما تشير إليه دراسة تاريخية، حتى منتصف القرن التاسع عشر، وكانت رؤية الأفكار كملكية في أغلب الأحيان مستهجنة. فالإنسان يقف على أكتاف حضارات تعود إلى آلاف السنين، والمخترع الكبير يقف على أكتاف مخترع كبير آخر، والسهولة في عزل فكرة واحدة وادعاء ملكيتها قد تغيِّب الصورة الأكبر بأننا نعتمد على سلسلة من الأفكار لتطوير فكرة واحدة. وارتبط هذا الموقف بالملكية الفكرية كحق حصري يقدمه المجتمع أو لا يقدمه حسب إرادته وحسبما يجده ملائماً، وبالتالي فإن ما يعتبر طبيعياً ليس تملك الأفكار بل نشر المعرفة. وتعبير «الملكية» الفكرية لم يأت إلا بشكل متأخر كعنوان عريض لمجموعة حقوق تتعلق بالفكر والصناعة، مثل براءة الاختراع وحقوق النشر والعلامة التجارية وسر المهنة.

تجد هذه النظرة تعبيرها فيما خطه جيفرسون، وهو أحد واضعي الدستور الأمريكي، عندما كتب:
«لقد جعلت الطبيعة شيئاً واحداً أقل تقبلاً من غيره لأن يكون ملكية حصرية وهو فعل قوة التفكير، وتسمى الفكرة، والتي يملكها الفرد حصراً لطالما يحفظها لنفسه، لكن في اللحظة التي يجري إفشاؤها، فإنها تفرض نفسها في حيازة الجميع لها (...) إن الابتكارات إذن، لا يمكن، في طبيعتها، أن تكون موضع ملكية. والمجتمع يمكن أن يعطي حقوقاً حصرية للأرباح التي يمكن أن تنشأ عنها، كتشجيع للأشخاص على متابعة أفكار يمكن أن تنتج منفعة، لكن ذلك قد يحصل أو قد لا يحصل، حسب إرادة المجتمع وما يجده ملائماً من دون ادعاء أو احتجاج من أحد».

إن هــذه النظرة للملكيــة الفكرية قدمت نشــر المعرفة كهــدف، ولحقــوق الامتيــاز الدور المشــجع مــن خلال مكافــأة الأفراد وحثهم على الابتــكار والإبداع ومن أجل «نشر» الاختراع أو المادة، بدلاً من إخفائها، مع الإدراك لمعوقاتها، وأحياناً التشــكيك في أهميتهــا التي تفرض حقوقــاً حصــرية ويمكنهــا أن تمنع التطــور لمدة زمنية معينة.

هذا التوازن، إذا صــح التعبير، بين نشــر المعرفة وبين تشــجيع الابتكار بواسطة حقوق حصرية وحقوق نشــر لا يجنب بذاتــه محاذير قد تدفع بها باتجاه احتكاري أو بأضــرار قد تلحقهــا بإنتاج المعرفــة وتطورها. إذ إن تقصــير مدة حقوق الملكيــة أو إطالتها، واختيار ما هو مفيد أو غير مفيد، وتوسيع نطــاق حقــوق الملكيــة أو تضــييقه، كلها أمور قد تكون مؤثــرة في دفع التوازن في اتجــاه أو آخر. لكن من يقرر في النهاية هو المجتمع مع ما يحويه من مصــالح مختلفة، وقدرة تلك المصالح في التأثيــر على تطورات تحصــل من خــلال المحاكم التي قــادت في منعطفات أساســية (في الولايــات المتحدة) إلى استقواء الملكية الفكرية.

وما قيمة مفهوم الملكية الفكرية في حال اختلال التوازن بين المنفعة الخاصة والمصلحة العامة؟

يطرح هذا الأمر، بالنســبة إلى البعض، تســاؤلاً حول ما إذا كان مفهوم الملكية الفكرية بما يرتبط فيه من محاذير على تطور المعرفة هو الأفضل، أم أن هناك طرقاً بديلة، لتعزيز تقدم العلوم والآداب المفيدة وتشــجيع الابتكار الصناعي. فالملكيــة الفكرية، رغم أنها بقيــت مرتبطة بحقوق أفراد، إلا أنها أصــبحت تتغذى من شــركات ومصــالح كبيرة بدءاً من أواخر القرن التاســع عشــر، والفرد يضطر لبيع حقوقه للشــركات مدفوعــاً بالتكاليــف العاليــة للمخاطــر وتطوير الإنتاج وتوزيعه وبيعه.

الملكية الفكرية.. كي لا تصبح ملكية فقط

الهدف الأســاس للملكية الفكرية، أي نشــر المعرفة، يساق اليــوم في إطار الدفــاع عن التبدلات المهمة التي حصــلت فــي العقدين الأخيريــن. فيقال مثلاً فــي المنحى التجاري المتزايــد للملكية الفكرية إنه يشــجع إعــلان الابتكارات أو نشــرها بدلاً من إبقائها سرية، الأمر الذي يوسِّع استخدام المعرفة ولو بطريقة تجارية، وأنه تغيير يتماشى مع المنحى الاقتصادي الذي تتزايد فيه تعقيدات الإنتاج والتخصصية، بشكل حلت فيه شركات متخصصة تركِّز على أجزاء أضيق في الإنتاج محل الاندماج العامودي السابق، وأصبح الابتكار من أهم عناصر المنافسة.

لكن السؤال الأساس يبقى مطروحاً: ما قيمة مفهوم الملكية الفكريــة في حال اختــلال التوازن بين العــام والخاص في تعريفه؟ ففي معاملة المعرفة كسلعة اقتصادية بحتة لا يعود هناك لزوم لهذا التعبير ومفهومه، وكلمة ملكية مثل ســائر الملكيــات الأخرى قد تكفي. لقد أســهم هــذا التوازن على مدى قرون في استمرار نشر المعرفة والتطوير التكنولوجي رغم المعوقات الاحتكاريــة والتجارية. ومع اختلال التوازن في المنحى التجاري ستشــكل حقوق الملكية الفكرية عائقاً أمــام التطور بدلاً من أن تكون مُســهِّلاً، وتصــبح مشــاركة المعرفة مسألة شديدة الكلفة، وحصرية استخدام المعرفة أكثر تشدداً. وحتى بالنســبة إلى الأعمال التجارية الجارية تطرح مشــكلات عملية، مثل تجزئــة برنامج كمبيوتر واحد إلى مئــات البراءات، وتظهــر براءات لا قيمة لهــا، وتتأخر إجــازات البــراءات ســنوات بســبب الزحمــة علــى طلبها، وتصــبح تكاليــف الدعــاوي التي تنشــأ عن البــراءات غير عاديــة. وهذه كلها مؤشــرات تظهر اليوم فــي الدول الأكثر اعتماداً على الملكيات الفكرية.

الملكية الفكرية والمجال العام

يظهــر فــي وجــه تخصــيص المعرفــة نــزوع معاكــس إلى مشــاركة المعرفة تساعد الإنترنت على انتشارها وتطورها. والظاهــرة الأهــم فيها هي ما يســمى «المصــدر المفتوح» (أوبن ســورس)، وهي مشــروع يجعل مجموعــة من المواد الأصــلية متوافــرة علانية لاســتخدامها من قبــل الآخرين ضــمن شــروط محــددة، وأن تجري الإضــافة والتحســين على المادة الموجودة ضــمن الشــروط نفســها. وقد كانت البدايات في التعاون في برامج «السوفت وير»، وذلك بسبب التقليد الموجود أصلاً للمشــاركة والتعاون في هذا الحقل، وتكرســت بشــكلها الحالــي كرد فعــل على توســعة براءات الاختراع لتطــال برامج الكمبيوتر، وللتأكيد على اســتمرار مبادئ «حرية الاســتخدام وحريــة التعديل وحرية التوزيع»، وانتشــرت وأخذت طابعاً رســمياً في أوائل التســعينيات مع انتشــار الإنترنت. «النشــر الحــر» (كوبي ليفت) اســتبدل حقــوق النشــر (كوبي رايــت) كرخصــة، وهــو يتطلب من الذين يقومون بتحســين المادة بإعادتها إلى المجال العام. وأهمية المصدر المفتوح أنه يهيمن على سوق البرامج التي تســتخدم في الكمبيوتر لخلق صــفحات شــبكات الإنترنت، ويحتل تقريباً ربع ســوق أنظمة تشــغيل الكمبيوتر من خلال المصدر الأكثر شــهرة «لينوكس»، وتتطور مصادر مفتوحة في مجالات حاسوبية أخرى تتحدى فيها الأنظمة التجارية.

ومن المصــادر المعروفة واسعة التداول أيضاً ما يسمى الموسوعة المجانية «وكيبيديا».

ويعتبر «المصــدر المفتوح» كوسيلة تساعد الأكاديميين، خاصــة فــي العلوم التي امتــدت إليها بــراءات الاختراع كعلم الأحياء، للاســتمرار في العلم المفتوح في مواجهة التأثير السلبي لتحويل الجامعات إلى مساهمين ناشطين في اكتشــاف براءات الاختــراع. لكن رغــم الاحتمالات والبراعــم الموجــودة، لــم يتطور شــيء مماثــل لبرامج الكمبيوتر حتى اليــوم، والتطور في علم الأحياء باتجاه التعاون في مصدر مفتوح طــال حقــل اســتخدامات الكمبيوتر في البيولوجيا أكثر من شيء آخر.

> العلوم التكنولوجية تتعرض لاختناقات براءات الاختراع، و «التعاون» بات ضرورياً

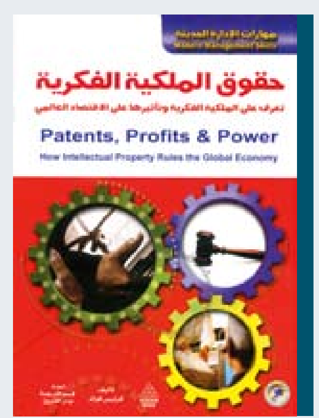
ومنــذ عـــام 2003م تتوســـع ظاهــرة مماثــلة فــي المجــال الثقافــي، تعــرف باسم «المشــترك الإبداعي» (كرياتيف كومونــز)، تســمح للفنانيــن بتقرير حقوق النشــر التي يرغبون فــي الاحتفاظ بها وتلك الحقوق التي يفضلــون مشاركتها. وتعبِّر عن سعي إلى الانتقال من موقف يعتمد بالكامل على حقوق النشر إلى إنشاء مجال عام إبداعي مشترك.

وقــد شــهدت الســنوات الأخيــرة زيــادة فــي توظيفــات الشــركات، خاصــة في إطار تكنولوجيــا المعلومات، في مشــاريع «مصــدر مفتوح»، أو فــي تخليها عــن عدد من براءات الاختراع (والمثل الأهم قيام شركة «آي. بي. إم.» بالاســتغناء عن 500 براءة اختراع للمصــدر المفتوح)، وقبول التنسيق مع مستخدمي المصادر المفتوحة من قبل مايكروســوفت. والأسباب قد تتعدد، إلا أن التعايش يبدو للبعض ضرورياً في وضع تتعرض فيه العلوم التكنولوجية لاختناقات براءات الاختراع المتعددة.

هــذه التطورات تشــير إلى أهمية المجــالات القائمة في إطــار التكنولوجيــا الرقميــة، وإلــى احتمالات التوســع الممكنة في شــكل تعاوني مفتوح. لكــن المراقبين يرون المصــادر المفتوحة عرضة لمحيطها الأوسع، وأسلوبها لــن يجنبها لوقــت طويــل التفاعل مع بــراءات الاختراع المتشــعبة وأشــكال الملكية الفكرية الأخرى، ويسجلون عليها افتقادهــا أطراً قانونية داعمة، ولكنها قد تشــكل رافعة فــي التــوازن المختل اليــوم للملكيــة الفكرية في الممارســة علماً بأنها لم تصــبح حتى الآن مفصــلاً في تغييره.

اقرأ للملكية الفكرية

حقوق الملكية الفكرية



يجيب كتاب «حقوق الملكية الفكرية»، الصادر عن دار الفاروق للنشر عام 2003م، للمؤلف كرتيس كوك، عن التساؤلات المتعلقة بالملكية الفكرية. ويقع هذا الكتاب في 211 صفحة موزعة على عشرة فصول.

في فصله الأول، يعرض الكتاب نبذة عن تاريخ الملكية الفكرية وكيفية نشأتها ومصادر تطورها. ومن النبذة التاريخية إلى فترة أقرب للوقت المعاصر، يعرض سبب تغلب «قوة العقل» على «قوة العضلات» كمقياس للجدارة والكفاءة على مستوى الشركات وعلى المستوى القومي أيضاً.

ويتناول الفصل الثاني مرحلة الانتقال من الأصول الملموسة التي ساعدت على نشأة الاقتصاديات الصناعية الأولى إلى الأصول غير الملموسة في الاقتصاد المعرفي. كما يلقي الضوء على موضوعات وثيقة الصلة بزيادة الاهتمام بالملكية الفكرية في دنيا الأعمال. بالإضافة إلى تناوله الأنواع المختلفة للملكية الفكرية والتي تستحق الحماية، ومنها براءات الاختراع والعلامات التجارية وحقوق الطبع والنشر والتأليف والتصميمات الصناعية وأسرار المهنة وغيرها.

ويحتوي الفصل الثالث على شرح تفصيلي مع أمثلة توضيحية للأساليب المتعددة التي يمكن من خلالها حماية الملكية الفكرية.

أما الفصل الرابع فيعرض المنظمات الدولية والقومية والإقليمية والقواعد التي وضعتها. ويكشف الفصل الخامس مدى فعالية نظام الحماية الحالي للأفراد في مجالات الإبداع والعلم والتجارة والأعمال، بينما يعرض الفصل السادس جرائم السرقة والاحتيال التي تقع فيها الملكية الفكرية وأسباب خرق القانون.

وبعد تكوين الفكرة الشاملة عن الملكية الفكرية يعرض المؤلف في الفصل السابع مستقبلها ومستقبل قيمة الفكر في السنوات القادمة. وبما أن صورة الملكية الفكرية في المستقبل لا تكتمل من دون تأثير الإنترنت، يشرح الكتاب في الفصل الثامن قواعدها في هذا المجال. أما عن العوائق التي تواجهها المدن النامية والإستراتيجيات التي تطبقها الحكومات من أجل الالتزام بقوانين الملكية الفكرية أو تجاهلها في إطار مجهوداتها لدعم اقتصادياتها، فيتناولها الكاتب في الفصل التاسع. ويأتي الفصل العاشر والأخير ملخصاً كل الجوانب المضيئة والمظلمة في موضوع الملكية الفكرية.

قول في مقال

أسطورة.. «ياهو العرب»!!

لماذا تنجح بعض المواقع التجارية على الإنترنت، ويتعثر بعضها الآخر؟ ولماذا ذهبت استثمارات عربية ضخمة في تأسيس المواقع أدراج الرياح، بينما نجح البعض الآخر في الاستمرار والتطور؟
الدكتور عمّار بكار يجيب عن هذه الأسئلة وغيرها انطلاقاً من بعض مقولات مؤسسي المواقع، وبالاعتماد على خبرته كرئيس تحرير لموقع «العربية.نت».

عندما وصلت طفرة تأسيس بوابات ومواقع الإنترنت التجارية إلى المملكة العربية السعودية، تحديداً في عام 1999-2001م، كانت هناك «دهشة» عامة صاحبت هذه الطفرة بإمكانات الإنترنت التقنية. استثمرت ملايين الريالات في هذه المواقع، والتي لم يعد أكثرها موجوداً في يومنا هذا، وكان أصحاب هذه المواقع يظنون أنهم بمجرد أن يؤسسوا الموقع المتاح على الشبكة لملايين المستخدمين فإنهم بذلك كسبوا «المباراة»، والأرباح الكثيرة التي ستعود عليهم.

فيما يلي استعراض لأهم «التصورات الخاطئة» التي سيطرت على الباحثين عن الذهب في الفضاء الافتراضي. وهي تصورات ما زالت موجودة في أوساط المستثمرين في الثورة الإلكترونية رغم مرور عدة سنوات الآن على بدء التجربة:

(1) «عندما يزورني ملايين الناس، فإن المعلنين سيأتونني من كل حدب وصوب»:

بالرغم من تحسن سوق الإعلان عن طريق الإنترنت عبر السنين، إلا أن الدخل الإعلاني ما زال محدوداً ولا يغطي التكاليف في كثير من الأحيان فضلاً عن تحقيق الأرباح، وذلك لأن سوق الإعلان ووكالاته تعمل بطريقة مختلفة وخاصة جداً ويتحكم فيها الكثير من العوامل الغريبة، فضلاً عن أن كثيراً من المعلنين لم تصلهم «دهشة» التكنولوجيا بعد، وغير مقتنعين بأن الإنترنت منتشر أصلاً في المنازل، خاصة إذا كانوا من أولئك الذين لا يجيدون استخدام الكمبيوتر. كيف إذن ستحقق المواقع دخلها إذا كان الإعلان لن يأتيها بأموال الشركات والتجّار؟ الجواب: استثمار الإنترنت هو استثمار طويل المدى، يتطلب سنوات من الإنفاق «المقنن» والتسويق المكثف والجودة العالية حتى يؤتي ثماره. الجواب الآخر: هناك بعض شركات الإعلان والمعلنين الذين بدأوا يفهمون قيمة شبكة الإنترنت ويهتمون بها، ولكن عليك أن تبحث عنهم في كومة القش، والجواب الثالث: عليك أن تلجأ إلى اللاعبين الكبار في سوق الإعلان وتعتمد عليهم.. لو استطعت ذلك!!

الروابط والتأسيس والتجديد

(2) «لدينا في الموقع عشرات الأقسام المنوعة وعشرات الخدمات»:

تصدر هذه المقولة عادة عندما يسعى فريق الموقع للاستفادة من إمكانات التكنولوجيا، فيؤسس موقعاً فيه الكثير من الأقسام والأفكار والخدمات، وهذه لها ثلاث مشكلات رئيسة:

الأولى: أن القارئ العربي لم يتعود بعد على التصفح الدقيق للروابط الكثيرة، فهو يحتاج روابط قليلة وأقساماً قليلة جداً، وإلا فإنه يضيع بين هذه الروابط مما يضعف الإقبال عليها ويذهب الجهد المبذول فيها سدى.

الثانية: أن الصفحة الأولى للموقع لا تتحمل الكثير من الروابط لأنها محدودة، وإذا أردت أن تبرز كل الأقسام بالشكل المناسب مع تشكيل صفحة مميزة تتضمن محتوى جذاباً يتجدد كل يوم، فإنك ستضطر إلى وضع بعض الأقسام في وضع ثانوي مما يقلل الاستفادة منها.

الثالثة والأكثر أهمية: أن تجديد وصيانة الصفحات بالمحتوى المتميز هو أهم من تأسيس هذه الصفحات، ولأن إمكانات مواقع الإنترنت محدودة عادة، فستجد لديك أقساماً كثيرة، ولكنها ليست مصانة بالشكل المناسب، ولا تجدد بالسرعة المطلوبة.

بناءً على ذلك، فإن النصيحة هي تأسيس أقسام قليلة، بحيث يتم اختيار كل قسم بعناية، ويبرز على الصفحة الأولى بعناية، ويتم تحديثه بعناية، بحيث يصبح كل قسم نقطة قوة للموقع وليس نقطة ضعف.

الاستراتيجية وحصر التوجه والتميز

(3) «نريد تأسيس موقع ضخم ومتميز وقوي ومتخصص في المجال التالي»:

تمثل هذه العبارة أو ما يشابهها العبارة الاستراتيجية الوحيدة التي يحملها كثير من المواقع والتي تشرح أهداف الموقع وخطته المستقبلية. ويمثل هذا في الحقيقة خطأ غير عادي، ويلجأ إليه الناس عادة بسبب الغموض الذي يكتنف سوق الإنترنت. مواقع الإنترنت هي مشاريع تجارية طويلة المدى عالية المخاطرة وتحتاج إلى استراتيجية واضحة تسترشد بها، والاستراتيجيات كما هو معروف تقوم على أهداف، وتقوم على فرضية استراتيجية معينة، وعلى كل الخطط التي ستبذل لتحقيق هذه الفرضية وتحويلها إلى واقع يصل بالموقع إلى النجاح في المنافسة. وفي رأيي الشخصي، من النادر أن ينجح موقع بلا استراتيجية واضحة.

(4) «ما دمنا نستطيع عمله، فلماذا لا نعمله؟»:

الخطأ هنا أن كثيراً من أصحاب المواقع يبحثون عما يمكن عمله في الموقع ثم ينطلقون إلى عمله. والمشكلة هي أن مدير الموقع يكتشف بعد فترة قصيرة أن هناك الكثير جداً مما يمكن عمله وهذا يعني تراكم الأفكار وأحياناً ترك أفكار مميزة لصالح أفكار ضعيفة. السؤال الذي يجب أن يُسأل: «ما الذي يجب ألا نعمله؟»، بمعنى أن تكون للموقع قائمة من الأفكار التي يتجنبها لأنها ضعيفة أو لا تتسق مع رؤيته الاستراتيجية وأهدافه التي يسعى لتحقيقها. الأفكار الجيدة نادرة جداً، وإذا شعرت بوفرة الأفكار لديك فهذا معناه أنك بحاجة لقائمة «ما لا نريد عمله».

(5) «نحن أفضل من المواقع الأخرى»:

الخطأ الكبير هنا هو الشعور بالرضا بسبب أن الموقع أفضل من المواقع الأخرى المنافسة، لأن الناس سرعان ما ستقلدك وتنتهي الأفضلية خلال أيام. النجاح في الإنترنت يتطلب عملاً يومياً دؤوباً في التطوير والبحث عن التميز وتحقيق الأفضلية. أردد دائماً في اجتماعات «العربية.نت» مع زملائي إنه لا يكفي أن نكون متقدمين على الآخرين بخطوة واحدة، لأنهم سيلحقون بنا غداً، ولا خطوتين لأنهم سيلحقون بنا قبل أن نبدأ في الحركة، بل بثلاث خطوات، حتى نبقى دائماً في المقدمة (لا أذكر الآن إذا كانت العبارة من تأليفي أو أنني قرأتها في مكان ما!).

(6) «صفحتنا قصيرة، ولا تحتاج فيها للكثير من النزول إلى الأسفل حتى تراها كلها»:

هذا خطأ في المرحلة الحالية، حيث الإنترنت ما زال بطيئاً في العالم العربي. فبالنسبة لعموم المستخدمين العرب، من الأفضل لهم أن ينزلوا إلى الأسفل بحيث تكون الصفحة طويلة، من أن يكون عليهم أن يضغطوا الكثير من الروابط حتى يصلوا إلى المعلومة التي يريدونها. لقد نجحت بعض المواقع في فكرة التعليقات رغم أن عدة مواقع أخرى حاولت في السابق تنفيذها، لأنك لا تحتاج إلى أن تضغط على أي رابط لقراءة التعليقات الخاصة بموضوع معين، بل تستطيع أن تقرأ التعليقات تحت الموضوع مباشرة. وحين طبقنا هذه الفكرة صار الناس يضغطون على المبرمجين ليضعوا التعليقات تحت الموضوع مباشرة من دون وجود رابط للضغط عليه (المبرمجون عادة يحبون وضع الروابط، لأن وضع عدة كائنات برمجية غير متجانسة في الصفحة يحتاج المزيد من الجهد!).

أم الأخطاء: تقليد موقع «ياهو»

(7) «نريد أن نؤسس موقع ياهو العرب»:

هذه أم الأخطاء، فمحاولة تقليد موقع ياهو «Yahoo» هي محاولة فاشلة في الصميم، وكثيراً ما سمعت هذه العبارة، وكل من حاول تنفيذها فشل، وذلك لأسباب بسيطة، منها أن المستخدم العربي ليس متعوداً على المواقع المتشعبة، وليس متعوداً على تغذية المواقع بالمعلومات الشخصية، وهناك سبب آخر وهو أن نجاح موقع ضخم كهذا يحتاج استثماراً كبيراً وسوقاً إعلانية نشطة، وهذا غير متوافر الآن. وبالمناسبة، يسعى موقع «Yahoo.com» إلى تأسيس صفحة عربية له مثل صفحات اللغات الأخرى التي يمتلكها، ولكنه يشترط أن يصل حجم السوق الإعلاني العربي على الإنترنت إلى عشرة ملايين دولار، بينما وصل مجمل السوق الإعلاني العربي على الإنترنت عام 2005م إلى خمسة ملايين دولار (هذا حجم الإعلانات التي تدفع نقداً، بينما هناك حوالي سبعة ملايين دولار أخرى قيمة لإعلانات متبادلة بين المواقع والشركات المعلنة)، ولموقع «Yahoo.com» مكتب في دبي يقوم بجمع هذه المعلومات كل عام في انتظار أن يصل الرقم إلى الهدف المحدد.

إن النصائح السابقة تدخل ضمن فن جديد اسمه «استخدامية الإنترنت» (Web Usability)، وهو فن بدأ يُدرَّس في الجامعات العالمية، وما زال جديداً على العالم العربي، ويتضمن مجموعة القواعد والأفكار التي من المطلوب تحقيقها للوصول لمستوى عالٍ من «الاستخدامية» أي القدرة على جذب المستخدم لتصفح الموقع والبقاء فيه لأطول فترة ممكنة ثم العودة إليه في اليوم التالي.

إذاً لا يمكننا تطوير فن «استخدامية» خاص بالعرب ومتناسب مع رغباتهم وعاداتهم التصفحية للإنترنت إلا بالاعتماد على البحث العلمي والخبرات، وهذا يحتاج من يقوم به، وحتى ذلك الحين، ابدأ بالنصائح التي ذكرتها أعلاه!

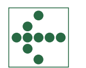


الطاقة البيولوجية..

توحي بعض وسائل الإعلام في حديثها عن الطاقة البيولوجية المستخرجة من الذرة والسكر وما شابه، بأن العلم بات على قاب قوسين من اكتشاف بديل عن النفط وأنواع الوقود الأحفوري الأخرى مثل الغاز والفحم. ولكن، بالرغم من أن ما تحقَّق في هذا المجال حتى اليوم يستحق الالتفات إليه، فإنه يبقى أقل من أن يخدش سوق الطاقة الأحفورية أو يؤثر عليها. أكثر من ذلك، فإن الدراسات الجديدة التي تناولت الطاقة البيولوجية من زواياها البيئية والاقتصادية وحتى الأخلاقية تعيد اليوم «المفرطين في التفاؤل» إلى أرض الواقع كما يبدو في بحث نشرته مؤخراً مجلة «نيوساينتست» يترجمه هنا بتصرف محمود زيَّان* مضيفاً إليه بعض المعلومات المستمدة من مصادر أخرى.

*باحث ومترجم من لبنان

.. العاصفة ما زالت في الفنجان



هل الطاقة البيولوجية هي الحل الذي يشبه البيوت الزجاجية في مجال الزراعة لجميع هموم الطاقة؟ إن الأمر ليس بتلك السهولة كما يقول فريد بيرس في دراسة له نشرتها مجلة «New Scientist» البريطانية مؤخراً. إذ يقول: «لقد بدأ التدافع نحو الذهب! نقِّبوا عن البترول واشتروا الذرة بقدر ما استطعتم، إنهما الاستثماران اللذان يضمنان الربح الأكيد».

وهذه هي، على الأقل، الرسالة التي يمكن أن نكون قد التقطناها من قراءة عناوين الصحف في الأشهر الماضية. قد قيل لنا: قريباً سوف يصبح توافر محصول الذرة مثل توافر الذهب الأسود. ولا يعود السبب بذلك إلى أن رقائق التورتيلا المكسيكي قد أصبحت الغذاء الأكثر رواجاً. ولكن السبب الحقيقي هو أن الذرة ومجموعة أخرى من المحاصيل قد تم الترويج لها على أنها مصادر الطاقة للمستقبل.

هناك أسباب عديدة لهذا الحماس المفاجئ لـ «الطاقة البيولوجية»، إلا أن التأثير الإيجابي الحقيقي المفترض للطاقة البيولوجية هو في صورتها التي تحافظ على البيئة.

إن المؤيدين للطاقة البيولوجية يقولون إنها تخفض بشكل كبير الغازات المنبعثة من البيوت الزجاجية لأن المحاصيل تمتص، وهي تنمو، ثاني أكسيد الكربون من الجو. لهذا، فإنه من غير المفاجئ أن يدعم السياسيون والمدافعون عن البيئة في جميع أنحاء العالم هذه الفكرة، على أمل استخدام هذا الخيار «العشبي» البديل للطاقة لتزويد السيارات والقطارات والحافلات. حتى أن رجل النفط الأسبق، الرئيس الأمريكي جورج بوش، أصبح من الداعمين لهذا النوع من الطاقة. ففي خطابه السنوي عن «حال الأمة» الموجه في مطلع السنة الماضية نادى بالقيام بحملة قومية لتسيير السيارات على الطاقة البيولوجية.

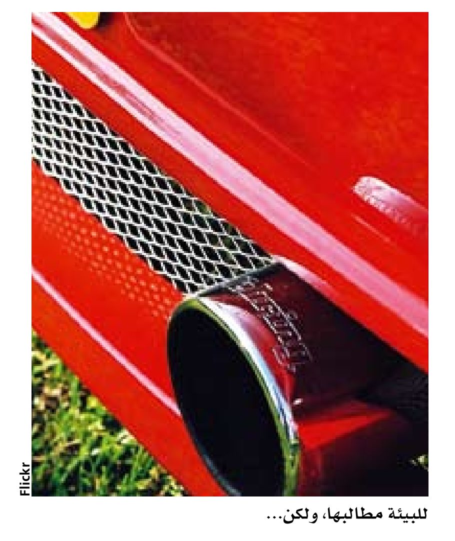


ولكن، قبل أن تأخذنا الحماسة، ليس كل شيء هو فعلاً كما يبدو على السطح. فقد بدأ العلماء بالتشكيك في التأثيرات الاجتماعية والبيئية للبيوثينول (Bioethanol) والبيوديزل (Biodiesel)، مقدِّمين أسباباً تشكيكية حقيقية عما إذا كان بإمكان تلك المادتين تحقيق هذه الأهداف الكبيرة. ويجد المدافعون عن البيئة أنفسهم في مأزق شديد مع وجود نصف المجتمع الأخضر يحتضن الطاقة البيولوجية حتى آخر حبة ذرة، والنصف الآخر مستعد للتمهل ودراسة الموضوع بصورة أدق.

أزمة النفط التي ظهرت سنة 1970م عادت بعض الدول إلى استخدام الطاقة البيولوجية. فالبرازيل مثلاً تستخرج الأثينول بكميات كبيرة من قصب السكر منذ 30 عاماً. وفي العام الفائت أصبحت تستخرج وحدها حوالي نصف الأثينول البيولوجي المستخرج في العالم. وينص القانون البرازيلي على أن يكون 20% من البنزين الذي يُباع في المحطات ممزوجاً مع الأثينول البيولوجي الذي يمكن أن تتحمله معظم السيارات العادية. كما أن 15% من السيارات في البرازيل يمكنها أن تعمل على الأثينول البيولوجي



بماذا ستعبأ خزانات سيارات المستقبل؟



Flickr

للبيئة مطالبها، ولكن...

ويقول المعارضون لفكرة الطاقة البيولوجية: إنها لن تقتصر فقط على توافر مصدر للطاقة، إذ إنها سوف تلوِّث الغابات الاستوائية وتمتص مخزون المياه الجوفية وتدفع بعض السلالات الحيوانية إلى الانقراض وترفع الأسعار. كما أنها ستسرِّع امتلاك الشركات لقطاع الزراعة، وتخلق المجاعات وتجعل مستوردي الطاقة أكثر اعتماداً على الدول الأخرى. والأسوأ من ذلك، فإن اعتماد الطاقة البيولوجية لا يبطىء الارتفاع الحراري العالمي على الإطلاق، إذا لم تتحسَّن سبل التكنولوجيا المتبعة في تصنيعها. وفي المقابل، يقول مناصرو الطاقة العضوية: إنها ما زالت في مراحلها الأولى ويجب إعطاء التكنولوجيا المتبعة فيها الوقت والاستثمار الكافيين لتحقيق ما وعدت به. إذاً من الطرف المحق؟

سجال جديد لطاقة قديمة

يمكن أن يكون السجال جديداً، إلا أن الطاقة البيولوجية نفسها ليست شيئاً جديداً. فقد تم تصنيع طراز «T» لسيارة فورد الأولى عام 1908م ليعمل على مادة الأثينول، كما أن رودولف ديزل الذي اخترع محرك الديزل عام 1892م أجرى تجربته الأولى على زيت الفول السوداني.

لقد تم الابتعاد عن الطاقة البيولوجية عند ظهور الطاقة المستخرجة من النفط والتي كانت أقل كلفة، ولكن مع

الصافي. ووفقاً لدراسة صدرت في يونيو عن مؤسسة «World Watch»، فإن البرازيل إن شاءت أن تصنِّع 10% من مجموع استهلاكها النفطي، فعليها أن تستخدم 30% من أراضيها الزراعية. لذلك فإنه ليس من المستغرب أن تقوم أماكن أخرى في العالم بتعظيم الطريقة البرازيلية. ولكن المشكلة أنه لا يمكن في معظم الدول الأخرى التوصل إلى النسب والأرقام نفسها.

إن الدراسة نفسها الصادرة عن المؤسسة قدَّرت بأنه من أجل التوصل إلى هدف الـ 10% هذا، فإن الولايات المتحدة تحتاج إلى 30% من أراضيها الزراعية كما تحتاج أوروبا إلى حوالي 72%، والسبب ليس أن البرازيليين يستخدمون السيارات أقل من الأمريكيين أو الأوروبيين فقط، بل إن أرضهم الخصبة ومناخهم المواتي يساعدان على استخراج محصول أكبر، كما أن الكثافة السكانية لديهم أقل.

وهنالك دول أخرى غير الولايات المتحدة وأوروبا تأمل في أن تكون التجربة البرازيلية نموذجاً لحل سريع للمشكلات البيئية وهموم الطاقة-الأمن التي تشكو منها، فالصين مثلاً تخطط لخفض استيراد النفط وخفض انبعاثات ثاني أكسيد الكربون بتسيير السيارات فيها على مادة الأثينول المصنوعة من نبات الـ «Cassava» أو المنيهوت، بينما

تأمل كوبا بإعادة إحياء صناعة السكر الميتة لديها بتصنيع المحصول لاستخراج الأثينول، وتأمل هنغاريا أن تستبدل وارداتها من الطاقة الروسية بالأثينول المستخرج من الذرة.

إن زراعة الذرة ومن ثم تحويلها إلى أثينول تتطلب كمية كبيرة من الطاقة، كما أن زراعة محصول كبير تستهلك كمية كبيرة من الأسمنت والمبيدات التي لها تكلفة بيئية وأثمان متعلقة بالطاقة. والسؤال: «هل الأمر يستحق ذلك؟».

من المشكلات في الأفق: المجاعة وارتفاع أسعار الحبوب إذا ما زاد الاعتماد على الأثينول النباتي

ليست أنظف من النفط

حاولت بعض مجموعات الأبحاث أخذ كل هذه الأمور في الحسبان وحاولت مقارنة الانبعاثات النفطية مع تلك التي تنبعث من الأثينول البيولوجي المستخرج من الذرة في كل مراحل الإنتاج من الحبة إلى المحرِّك. وواجهت تلك الدراسات بعض القضايا العلمية غير المؤكدة مثل السؤال عن كمية غاز «النيتروس أكسيد» المنبعث من البيوت الزجاجية، الناجم عن سماد النيتروجين الذي يُستخدم في زراعة الذرة. هنالك انقسام في الرأي حول ما يجب وما لا يجب أن تتضمنه تلك الحسابات. الأمر الذي يعني أن النتائج تختلف بشكل كبير. ولكن هناك دراسة قام بها دافيد بيمنتل في جامعة كورنيل الأمريكية في نيويورك خلصت إلى القول إن أثينول الذرة يؤدي إلى انبعاثات غازية من البيوت الزجاجية أكثر من حرق المواد النفطية.

هناك آخرون ليسوا بهذا القدر من التشاؤم. ففي مراجعة لدراسات عديدة نُشرت في مجلة «Science» في يناير الماضي، قدَّر ألكسندر فريل من جامعة كاليفورنيا في بركلي أن الأثينول البيولوجي يؤدي إلى 13% أقل من الانبعاثات الغازية من البيوت الزجاجية مقارنة مع كمية معادلة من البنزين. إلا أن الباحث توصل إلى هذا الرقم الإيجابي بعد أن افترض أن الفضلات البيولوجية التي تنتج بعد استخراج الأثينول البيولوجي، تستخدم كطاقة جافة في الأفران أو أنها تُطعم للحيوانات. ولكن معامل تكرير الأثينول البيولوجي لا تقوم كلها بمثل هذا العمل.

طاقة تنذر بخطر المجاعة

السبب الآخر الذي يدعو عدداً أكبر من الباحثين إلى معارضة الطاقة البيولوجية هو أن زراعة الذرة لاستخراج الأثينول تستهلك الأراضي التي تُستخدم في زراعة المواد الغذائية التي يحتاجها العالم. لن يجوع الأمريكيون إذا ما تم تصنيع الفائض من زراعة الذرة بدلاً من تصديره إلى الخارج. ولكن الانخفاض الذي سيحصل في الحبوب في العالم ستنتج عنه زيادة في الأسعار. ويرى الكثيرون في ذلك أمراً غير أخلاقي. ووفقاً لدراسات ليستر براون وهو معلِّق مخضرم وناشط في مجال السياسة الغذائية، فإن كمية الذرة المطلوبة لملء خزان وقود سيارة بالأثينول البيولوجي لمرَّة واحدة فقط تكفي لتغذية شخص واحد لمدة سنة. وهو يصف الازدهار في صناعة الأثينول البيولوجي كمنافسة بين الثمانمائة مليون شخص في العالم الذين يملكون سيارات والثلاثة مليارات نسمة التي تعيش على أقل من دولارين يومياً والتي يصرف الجزء الأكبر منها -أكثر من نصف مدخوله- على الغذاء.


المحترف السعودي

البنزين.. باقٍ لسنوات غير معدودة



أساسيات الطاقة البيولوجية

مصطلح «الطاقة البيولوجية» هو بمثابة المظلة التي تحتضن كل الصفات التي يمكن أن نصف بها الطاقة المأخوذة من المواد العضوية. وأهم مصدرين للطاقة العضوية هما البيوأثينول «Bioethanol» الذي هو بديل للبنزين، والبيوديزل الذي يدل اسمه على نفسه.
يمكن استخراج «البيوأثينول» بتصنيع المحاصيل النشوية أو المحاصيل المشبعة بالسكر مثل قصب السكر أو القمح أو الذرة. ففي حال المحصول النشوي يمكن تحويل النشاء إلى سكر بواسطة الأنزيمات. إذ يتم تخمير السكر باستخدام الخميرة من أجل استخراج الأثينول الذي يتم تقطيره فيما بعد. ومن ثم يمكن مزج الأثينول الصافي الذي يستخرج مع البترول وذلك بنسب مختلفة. ويمكن لمعظم السيارات حرق طاقة البترول الممزوجة مع البيوأثينول حتى نسبة 10% من دون إدخال أي تعديلات على المحرك، وهنالك سيارات جديدة يمكنها أن تحرق البيوأثينول الصافي.
ويشمل البيوديزل الطاقة المستخرجة من تصنيع مجموعة من الزيوت النباتية بما فيها زيت الصويا وزيت الكانولا وزيت النخيل وأيضاً الدهون الحيوانية. ويتم تصنيع الزيوت بطريقة تسمى عملية «التحويل». حيث يتم مزج الزيت مع الأثينول ومادة مُحفِّزة أو مسرِّعة عادةً ما تكون الصوديوم هايدروكسايد من أجل تفكيكه. ومن ثم إعادة تصنيعه بشكل ملح عضوي. ويمكن استخدام البيوديزل أو الديزل البيولوجي مكان الديزل من دون أي تعديلات على المحرك. ومع أن هذه الزيوت يمكن مزجها مع الديزل العادي من دون أي تصنيع ويمكن حرقها في محرك الديزل، لكنها غير مستحبة من مصنعي السيارات، كما أنه لا يمكن أن يطلق على هذا المزيج تسمية «البيوديزل» أو «الديزل البيولوجي».

Flickr

وطبقـاً لمنظمـة الزراعة والغـذاء التابعة للامـم المتحدة (الفاو) فإن المنافسـة قد بدأت فعـلاً. وتقول المنظمة إن تحويـل الذرة إلى أثينول هو السـبب الرئيس في الانخفاض الحاد في مخزونات الحبوب العالمية، وهو السبب أيضاً في الارتفاع المتناسب مع هذا الانخفاض في أسعار الحبوب في النصف الأول من عام 2006م. وهذا ما تردد في تقرير رُفع إلى المسـتثمرين في بنك غولدن ساكس في يوليو الماضي الذي تنبأ بارتفاع أسـعار الذرة مع زيادة اسـتخراج الطاقة البيولوجية. ووصف موظف كبير في الشركة العالمية «شل» استخدام المحاصـيل الزراعية في استخراج الطاقة بينما هنالـك جزء كبير من سـكان العالم يعانـون المجاعة بأنه «غير مناسب أخلاقياً».

إن اللافـت هي الكميـة الكبيرة من الأرضـ التي تحتاجها الطاقـة البيولوجيـة لتترك مسـاهمة فعالة في اسـتهلاك الطاقة. يقول جيسـون هيل وبعض زملائه في جامعة سانت بول في مينيسوتا الأمريكية في دراسة نشرت في الأكاديمية الوطنيـة للعلـوم في يوليو الماضـي إنه حتـى إذا ما عمدت الولايـات المتحدة إلـى تحويل جميع محصـولها من الذرة إلى إنتاج الطاقة البيولوجية فإنها سـتفي بـ 11% فقط من طلبها الحالي من البنزين. وتقدِّر مؤسسـة World Watch أنه من أجل إنتاج 10% من الطاقة المطلوبة لوسـائل النقل العالمية فقط، فيجب استخدام 9% من الأراضي الزراعية في العالم.

يقول المناصرون للطاقة البيولوجية إن مثل تلك الحسابات قد تكون مضـلِّلة. وإن الأسـعار المرتفعة الناتجة عن زيادة الطلب على الطاقة البيولوجية سـوف تشـجِّع زراعة مكثفة أكبـر للذرة، وامتدادها على مسـاحات أكبـر كانت معتبرة حتـى الآن غير مسـتثمرة. ولكن زراعة مكثفـة أكثر تحتاج إلى اسـتخدام مواد كيمائية أكثر، مما يزيد من اسـتهلاك الطاقـة والانبعاثات الغازية من البيـوت الزجاجية من طن واحد من الذرة. ويشـير الدكتور هيل إلى أن تمهيد وحراثة الأرض سوف يؤدي أيضاً إلى انبعاثات ثاني أكسيد الكربون ممـا يؤدي إلـى زيادة فـي الانبعاثـات الغازية مـن البيوت الزجاجية جرَّاء تصنيع الطاقة البيولوجية.

وماذا عن غير الذرة؟

هذا بالنسـبة للذرة. والسؤال هنا هل ستكون النتائج أفضل مع زراعة مواد أخـرى؟ يقول لورنس إيغلز العامل في وكالة الطاقة الدولية في فرنسا، إن استخراج الأثينول من قصب السـكر هو أفضـل للبيئة من اسـتخدام الذرة لأنها تتجنب المرحلـة الأولـى فـي اسـتخراج الأثينـول من الـذرة وهي تحويل النشـا إلى سـكر. ويضـيف إيغلز إنه بمعيار كل ليتر



من النفط بالنسبة لهكتار من المحصول وبالنسبة لتقليل انبعاث الغازات من البيوت الزجاجية، فإن قصب السكر يتفوق على الذرة.

وقد استوعب بعض منتجي الأثينول البيولوجي هذه الفكرة. ونتيجة لذلك، تضاعفت أسعار السكر العالمية خلال الثمانية عشر شهراً الماضية، وهذا ما قاله الخبير ريتشارد أوكسلي رئيس مجموعة الاستشارات الصناعية «Sugar online» الذي يضيف إن «جميع المنتجين الرئيسين مثل البرازيل والهند وتايلاند وغيرهم يعمدون إلى تغيير زراعتهم وزرع قصب السكر».

لكن المشكلة أن الأسعار المرتفعة أخذت تدفع المزارعين لتمهيد الأراضي وزراعة قصب السكر من دون الأخذ بالحسبان الآثار البيئية لذلك. ويخشى المهتمون بالبيئة مع زيادة الطلب على قصب السكر في الأسواق العالمية أن يهرع المزارعون البرازيليون إلى اقتحام غابات الأمازون الاستوائية إما لزراعة قصب السكر نفسه أو منتوجات أخرى تم استبدالها بقصب السكر.

ضغوط السكر على الموارد المائية

وكأن هذا كله لا يكفي. فإن مزارع قصب السكر تضع ضغوطاً كبيرة على الموارد المائية لأنها زراعة تتطلب الكثير من الري. وفي البلاد التي يقل فيها المطر يعمد المزارعون إلى استخراج المياه من الأنهار أو من الآبار الجوفية. وهكذا، وبالرغم من أن الري لا يشكِّل مشكلة كبرى في البرازيل فقط، بل أيضاً في البلدان الأقل حظاً، مثل ولاية مهاراشترا الهندية، حيث يتدافع المزارعون إلى زراعة القصب ليستغلوا الأسعار المرتفعة، ولكن مزارع القصب الموجودة قد استهلكت إلى الآن حوالي ثلثي مخزون المياه في الولاية، وقد خفضت مستوى المياه الجوفية إلى ما يصل إلى 50 متراً في بعض المناطق.

يشير أوكسلي إلى أنه على الصعيد العالمي لا أحد يبدو وكأنه مهتم بكمية المياه التي يتطلبها النفط البيولوجي. فالهند تعمد إلى استهلاك موارد المياه لديها بسرعة ستؤدي إلى جفاف الآبار والحقول الزراعية أيضاً كما أنها ستخفض مستوى مخازن القمح. فبالرغم من أن قصب السكر هو أكثر أماناً بالنسبة للزراعة في البيوت الزجاجية من الذرة لصناعة الأثينول، إلا أنه أسوأ بكثير بالنسبة للكميات الكبيرة التي يتطلبها من مخزون المياه في العالم.

هل نحن مخطئون بشكل كبير بظننا أن اللجوء إلى الطاقة البيولوجية سيقودنا إلى عصر الطاقة التي تحافظ على البيئة؟

فيما يشبه العودة إلى الصفر.. البحث عن مصادر أخرى

إن التكنولوجيا المتبعة في إنتاج الطاقة البيولوجية لا تزال في مراحل مبكرة ويفكر العلماء الذين يعملون في هذا المجال في أشياء كثيرة أخرى. إنهم يفكرون في طرق لإنتاج الطاقة البيولوجية من محاصيل غير غذائية ومن الفضلات البيولوجية. وهكذا يوفرون محاصيل الذرة وغيرها من المحاصيل الزراعية من أجل الغذاء. إنهم يفكرون بطرق للقيام بذلك مع المحافظة على النظام البيئي الطبيعي. وهم يعتقدون أنهم مع الوقت سيتمكنون من تحقيق ذلك.

لقد بدأ الباحثون الآن يكتشفون طرقاً ذكية لاستخراج الأثينول البيولوجي من دون استخدام المحاصيل الزراعية، وذلك بالتركيز أكثر على تحويل المواد العضوية الغنية بخلايا السلولوز (Cellulose) إلى الأثينول. فخلايا السلولوز هي المادة الأساسية في جميع النباتات الخضراء. تتكون جزيئياتها من سلاسل طويلة من السكر قاسية بما فيه الكفاية لتكوين جدران النباتات. وإذا ما استطعنا تفكيك تلك الجزيئيات لاستخراج السكر الذي تحتويه يمكننا تخميره للحصول على الأثينول.



Flickr

من الحقول إلى محركات السيارات

إن تطوير طريقة فعَّالة لتحويل خلايا السلولوز إلى الأثينول قد يفتح الباب أمام الكثير من المواد غير الغذائية مثل السويتشغراس (Switch grass) وهو عشب بري ينمو في الولايات الشرقية وفي وسط غربي أمريكا، والقش وفضلات المحاصيل مثل القضبان ورقائق الخشب. ويقول المتحمسون لهذه الفكرة إن مصادر خلايا السلولوز تلك قد تنتج ضعف كمية الأثينول التي يمكن استخراجها من هكتار واحد من الذرة، وقد يتم ذلك في أراضٍ تعتبر حالياً غير صالحة اقتصادياً وليس لها أية أهمية بيئية.

ويظن البعض أن الفضلات المنزلية مثل الورق والكتب وبقايا الطعام قد يمكن استعمالها كمصادر لإنتاج الأثينول.

وتقدر خريطة الطريق التي وضعتها وزارة الطاقة الأمريكية في يونيو الماضي حول تحويل خلايا السلولوز إلى الأثينول، أن الولايات المتحدة يمكنها أن تُنتج ثلث حاجتها من الطاقة باتباع هذه الطريقة في العام 2030م. وتقدم توصية باستخدام محاصيل معدلة وراثياً مثل «السويتشغراس» من أجل صناعة أصناف قاسية مضادة للحشرات. وهذا يعني أنها ستكون بحاجة إلى القليل من الصيانة، تقل معها بشكل كبير كميات الطاقة والمواد الكيميائية المستخدمة فيها إذا ما قارناها بالمواد المستخدمة حالياً.

ولكن، حتى الوقت الحاضر ما زالت معظم الشركات مترددة بشأن الاستثمار في الأبحاث التي تتطلبها معالجة تلك المشكلات. لذلك أنشأت وزارة الطاقة مركزين جديدين للأبحاث التي ستضخ فيها 250 مليون دولار في السنوات القادمة، بهدف تطوير مواد الطاقة البيولوجية المستقبلية. ويقول أورباش إن «هذا المشروع يحمل كثيراً من المخاطر بالنسبة إلى القطاع الخاص ولذلك تقوم الحكومة به».

ولكن هناك شركة كندية واحدة بدأت تعمل على ذلك. فقد قامت شركة آيوغن (Iogen) في أوتاوا ببناء منشآت قيادية تستخرج منها الأثينول من خلايا السلولوز بكميات صغيرة وذلك خلال السنتين الماضيتين. وهي تستخدم نوعاً من الفطر الإستوائي المعدل وراثياً من أجل استخراج أنزيمات تفكك خلايا السلولوز والتي يمكنها من أن تهضم جميع أنواع المواد البيولوجية.

ومؤخراً جذبت هذه الشركة استثماراً بقيمة 30 مليون دولار من شركة «غولدمن ساكس» كما أنها أعلنت في يناير الماضي أنها ستدرس إمكانية بناء مصنع مكتمل في ألمانيا بالشراكة مع شركة «شل» و «فولكسفاغن». وبانتظار معرفة صوابية تقديرات هذه الشركة، وحتى ولو صحَّت أكثر توقعاتها تفاؤلاً، فإن سنوات طويلة لا تزال أمام الطاقة البيولوجية لتصبح بديلاً -وجزئياً فقط- عن النفط.

حركة الديزل البيولوجي الارتجاعية

في وقت ما من صيف 2002م بدأت الشرطة في بلدة «ولش» الإنجليزية تشتم رائحة حيلة ما من أجل تفادي دفع الضرائب. إذ أخذ الناس في جنوب مقاطعة «ويلز» قبل بضعة أشهر يشترون كميات كبيرة مثيرة للشك من الزيت النباتي المستخدم للطبخ. ولكن بدلاً من أخذه إلى منازلهم من أجل استخدامه في الطهي بدأوا يفرغونه في سياراتهم وشاحناتهم التي تسير على الديزل.

سارت السيارات بشكل جيد على الزيت النباتي والاعتقاد بأنه مصفًّى وأنه مزوَّد بالقليل من الميثانول (Methanol) الذي يساعد على فعاليته في ساعات الصباح الباردة. أصبح الزيت النباتي بالمقارنة مع أسعار النفط المرتفعة بشكل جنوني، أرخص بكثير مما في محطات الوقود. ولكن هذا البديل لم يكن قانونياً لأن السائقين لم يدفعوا عليه ضريبة النفط. ولهذا أسست الشرطة، وبسرعة، «مجموعة القلي» وكانت مهمتها تنشُّق السيارات التي تسير على الزيت النباتي (الزيت النباتي ينتج رائحة مميزة).

ومع ذلك أدرك رجال الأعمال أهمية ما يقوم به هؤلاء الأشخاص بطريقة غير شرعية، وأخذوا يبنون المنشآت الشرعية لتحويل الزيت النباتي والدهون الحيوانية إلى ديزل بيولوجي. والديزل البيولوجي ليس فقط أرخص من الديزل النفطي، ولكنه، أيضاً، غير ضار للبيئة.

ويمكن استخدام أصناف كثيرة من الزيت النباتي مثل زيت الصويا وزيت دوَّار الشمس وزيت الكانولا وزيت النخيل. وجميع هذه الزيوت تصدر كميات من الانبعاثات الغازية مشابهة لتلك التي تنبعث من الأثينول المستخرج من قصب السكر وأقل بكثير من تلك المنبعثة من الأثينول المصنوع من الذرة. ويقدِّر أحد الخبراء الجامعيين أن الديزل البيولوجي يخفض انبعاثات ثاني أكسيد الكربون بحوالي 41% أي أكثر بثلاثة أضعاف من الانخفاض الذي يقدمه الأثينول المصنوع من الذرة. علاوة على ذلك، فإن الكثير من المحاصيل التي يمكن استخراج الزيت النباتي منها يمكن زراعتها من دون استخدام مواد أساسية متعلقة بالري وبالكيميائيات الزراعية.

وتعتبر ألمانيا حالياً من أكبر المصنِّعين للديزل البيولوجي. لقد أنتجت، في العام 2005م، أكثر من بقية بلدان العالم مجتمعة. لكن هناك مشكلات تترافق مع الظهور المفاجئ للديزل البيولوجي كبديل للديزل العادي. فمثلاً، دوَّار الشمس والكانولا اللذان يعتبران المصدرين الأساسين للديزل البيولوجي في الوقت الحاضر، يُنتجان كميات أقل من الليترات بالنسبة للهكتار الواحد من المحصول إذا ما قارناه بالذرة وإنتاجه للأثينول البيولوجي.

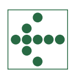
ويقضي قانون الاتحاد الأوروبي، حالياً، بأن جميع مصادر الطاقة يجب أن تُمزج بـ 75.5% من الطاقة البيولوجية بعد عام 2010م، ولكن، لا تملك كل الدول الأعضاء في الاتحاد الأوروبي المساحات الكافية من الأراضي للحصول على المحاصيل اللازمة. لذلك فهي بحاجة إلى استيراد كميات كبيرة من الزيوت النباتية للوصول إلى هذا الهدف.

أما ماليزيا وإندونيسيا فتسيطران معاً على السوق العالمي لزيت النخيل. فالنخيل يُنتج كميات أكبر بكثير من الطاقة بالهكتار الواحد من المحاصيل الأخرى. ويسعى البَلَدان حالياً لزيادة إنتاجهما، وقد أعلنا في يوليو الماضي خطة مشتركة من أجل توفير 40% من منتوجهما من زيت النخيل لاستخراج الديزل البيولوجي. كما أعلنت إندونيسيا التي تمتلك 6 ملايين هكتار من النخيل لإنتاج الزيت، خططاً لتوسيع ذلك بما يعادل 3 ملايين هكتار، وذلك ممكن، جزئياً، بتحويل 1.8 مليون هكتاراً من الغابات في «بورنيو» وهي غابات تبلغ مساحتها مساحة ولاية ماساتشوساتس الأمريكية.

أُدينت خطط التوسيع تلك من قبل «أصدقاء الأرض». ويقول إد ماثيو، وهو من الناشطين في حملات «أصدقاء الأرض» ضد إنتاج زيت النخيل، إن ازدهار صناعة زيت النخيل «يدق ناقوس الخطر بالنسبة للحيوانات البرية، ويعرقل الحرب التي تقف بوجه تغيير المناخ العالمي. وهي المشكلة التي من المفترض أن تُسهم الطاقة البيولوجية في حلها». وتقول جمعية «أصدقاء الأرض» إن مزارع زيت النخيل هي السبب الأهم في تراجع الغابات الاستوائية في ماليزيا وإندونيسيا.

صناعة الإعلان في مؤشر للمستقبل الواعد

يعتبر الإعلان من المجالات المهمة التي ما فتئت تتطور نتيجة المتغيرات التي شهدتها الساحات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والإعلامية والتكنولوجية في جميع أنحاء العالم. وكغيرها، شهدت دول الخليج تطوراً في النفقات الإعلانية بصورة لافتة للانتباه في السنوات الأخيرة، إذ تضاعفت أربع مرات بين عامي 2001 و2004م وارتفعت من مليار دولار عام 2001م إلى 3.9 مليار دولار عام 2004م. حول واقع صناعة الإعلان في دول الخليج ومستقبلها يحدثنا الدكتور المعز بن مسعود*.



يعتبر الخبراء أن صناعة الإعلان تعد واحدة من أهم أشكال الاستثمار التي تمتلك فرصاً جيدة للنمو، بالرغم من أن هذه الاستثمارات لا تزال قليلة جداً في المنطقة العربية، باعتبار أن الشركات العالمية العاملة في هذا المجال ما زالت تنظر إلى المنطقة بوصفها سوقاً استهلاكية تستفيد منها ولا تستثمر فيها على المدى البعيد.

فالعالم ينفق سنوياً ما يقرب من 400 مليار دولار على الإعلانات، مستخدماً في ذلك وسائل إعلام مختلفة كالصحافة المكتوبة والراديو والتلفزيون والسينما

*أكاديمي وباحث في جامعة البحرين، قسم الإعلام

وإعلانات الطرقات والإنترنت. وتشير الدراسات إلى أن صناعة الدعاية والإعلان تحقق دخلاً مرتفعاً في دول جنوب شرق آسيا يصل إلى حوالي 300 مليار دولار بينما لا يتجاوز دخل الدول العربية المليار ونصف المليار دولار في أفضل الأحوال على الرغم من الكثافة السكانية المرتفعة في هذه البلدان وتحسن مستوى المعيشة فيها.

وتبقى أمريكا واليابان وبلدان أوروبا الغربية أكثر البلدان إنفاقاً في مجال الإعلان، إذ تتصدر أمريكا النفقات الإعلانية بـ 161.487 مليار دولار حسب إحصاءات عام



دول الخليج يرتسم اليوم



المحترف السعودي

2004م تليها اليابان بـ 40.340 مليار دولار ثم ألمانيا 20.118 مليار دولار ففرنسا 12.424 مليار دولار ثم الصين 9.037 مليار دولار، فكوريا الجنوبية 6.796 مليار دولار ثم كندا 6.710 مليار دولار تليها دول مجلس التعاون الخليجي بإجمالي إنفاق يصل إلى 3.909 مليار دولار.

وخلافاً لما يعتقد البعض، لا يعتبر عدد سكان البلد الواحد مقياساً أساساً لتحديد حجم النفقات الإعلانية.



StockXchange

فعلى سبيل المثال، يبلغ عدد سكان الصين الشعبية 1306 ملايين نسمة لكن النفقات الإعلانية لا تتجاوز في هذا البلد 9.037 مليار دولار، في حين أننا إذا نظرنا إلى عدد سكان أمريكا فنجده يقارب 300 مليون نسمة أما النفقات الإعلانية فتتجاوز 161 مليار دولار. وتنطبق المعادلة نفسها على فرنسا وبريطانيا. فإذا نظرنا مثلاً إلى عدد سكان فرنسا نجده اليوم يتجاوز 61 مليون نسمة مع حجم إنفاق إعلاني يبلغ 12.424 مليار دولار بينما لا يتجاوز عدد سكان بريطانيا 60 مليون نسمة، في حين يكاد حجم الإنفاق الإعلاني في هذا البلد يبلغ ضعف ما تنفقه فرنسا، إذ وصل عام 2004م إلى 20.574 مليار دولار.

سوق الإعلان في دول الخليج

أما بالنسبة لبلدان الخليج فقد تزايد الإنفاق الإعلاني فيها بين عامي 1993 و2005م ليمر من 607 ملايين دولار سنة 1993م إلى 1.098 مليار دولار سنة 1997م ثم 2.830 مليار دولار سنة 2003م و3.909 مليار دولار سنة 2004م وأخيراً 4.558 مليار دولار سنة 2005م.

وتتصدر المملكة العربية السعودية قائمة البلدان الخليجية المعلنة وذلك حتى عام 2005م. إذ شهدت



المحترف السعودي

المحترف السعودي

نفقات السوق السعودي في مجال الإعلان تراجعاً طفيفاً لفائدة السوق الإماراتي. فقد بلغ الإنفاق الإعلاني في السوق السعودي عام 2005م 911 مليون دولار مقابل 913 مليون دولار للسوق الإماراتي، وهو ما يمثل نسبة 40% من جملة النفقات الإعلانية في بلدان الخليج إذا ما وقع احتساب إجمالي النفقات الإعلانية لهذين البلدين مجتمعين.

ارتفاع مستوى المنافسة وتطور وسائل الإعلام من أهم أسباب نمو صناعة الإعلان

وتتبوأ الكويت المرتبة الثالثة ضمن البلدان الخليجية المعلنة، بحجم نفقات يصل إلى 435 مليون دولار، تليها السوق القطرية بـ 118 مليون دولار، ثم سلطنة عمان بـ 104 ملايين دولار، ومملكة البحرين بـ 103 ملايين دولار، في حين تقدَّر النفقات الإعلانية في باقي الأقطار العربية بـ 1.972 مليار دولار وهو ما يمثل نسبة 43% من الإنفاق الإعلاني في الأقطار العربية مجتمعة.

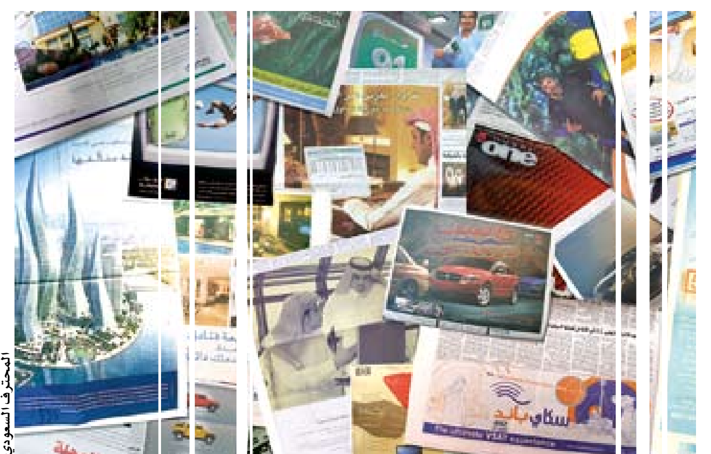
عوامل نمو النفقات الإعلانية

يعزى تطور النفقات الإعلانية في البلدان الخليجية إلى مجموعة من العوامل والحقائق الاقتصادية والسياسية والاجتماعية نخص منها بالذكر:

- ارتفاع مستوى المنافسة بين المؤسسات الإنتاجية، ووجود وعي لدى هذه المؤسسات بضرورة دعم عملها التسويقي.
- ما تمنحه بعض الدول الخليجية -ولو بدرجة بسيطة- من امتيازات للمؤسسات التي تقوم بالاستثمار في مجال الإعلان، وتتراوح هذه الامتيازات بين الإعفاء الجزئي من الضرائب والتخفيض من قيمة الضرائب السنوية المستحقة للدولة.
- تخصيص بعض المؤسسات جزءاً مهماً من ميزانيتها لتمويل حملات إعلانية أو دعم برامج تلفزيونية، تستهدف من ورائها استقطاب الجمهور من خلال وسائل الإعلام الجماهيري المختلفة، بقصد بناء صورة ذهنية جيدة للمؤسسة أو تسويق منتج معين.
- تطور وسائل الإعلام المختلفة، الجماهيرية منها وغير الجماهيرية، وظهور أساليب جديدة في توظيف وسائل الإعلام في مجال الإعلان، خاصة كل ما يتصل بتكنولوجيات الاتصال الحديثة مثل الإنترنت والبث الفضائي الرقمي وغير ذلك.
- تطور عدد المشاريع الاستراتيجية ونوعيتها في عدد من البلدان الخليجية نتيجة للطفرة النفطية وارتفاع أسعار النفط، وما يتطلبه ذلك من مجهودات على مستوى العمل الإعلاني.
- تغير البنية التحتية والتركيبة الهيكلية لأغلب القطاعات الاقتصادية التي أصبحت في حاجة مؤكدة لخدمة الإعلان.
- تبني نظام اقتصاد السوق الحر من قبل البلدان الخليجية وانضمام بعضها إلى منظمة التجارة العالمية.
- ارتفاع مستوى المنافسة في السوق المحلي بين الشركات والمؤسسات الخاصة، مما أدى بهذه المؤسسات إلى تخصيص أموال هائلة لتمويل برامج الترويج والإعلانات لتسويق منتجاتها، باعتبار أن عنصر المنافسة في السوق المحررة بات هو العامل الأساس في تحسين جودة الخدمات والسلع.
- زيادة متوسط دخل الفرد إثر الزيادة في الأجور التي أقرتها بلدان خليجية عديدة في الفترة الأخيرة نتيجة للارتفاع المتصاعد لأسعار النفط.
- ارتفاع معدل النمو وزيادة نسبة مساهمة الاستثمارات في الناتج المحلي الإجمالي لكل البلدان الخليجية من دون استثناء.



المحترف السعودي


المحترف السعودي

كما يعود تحقيق هذا النمو إلى التحسن الملحوظ في قطاع المشروعات المالية نتيجة لزيادة حجم العمليات المصرفية وانتعاش الأسواق المالية الدولية، إضافة إلى النتائج الجيدة التي حققتها معظم القطاعات والنشاطات الاقتصادية غير النفطية، كنشاط الصناعة التحويلية والمواصلات والاتصالات والخدمات البنكية والسياحة ...إلخ، في بعض البلدان الخليجية وعلى رأسها الإمارات العربية المتحدة، والمملكة العربية السعودية ومملكة البحرين.

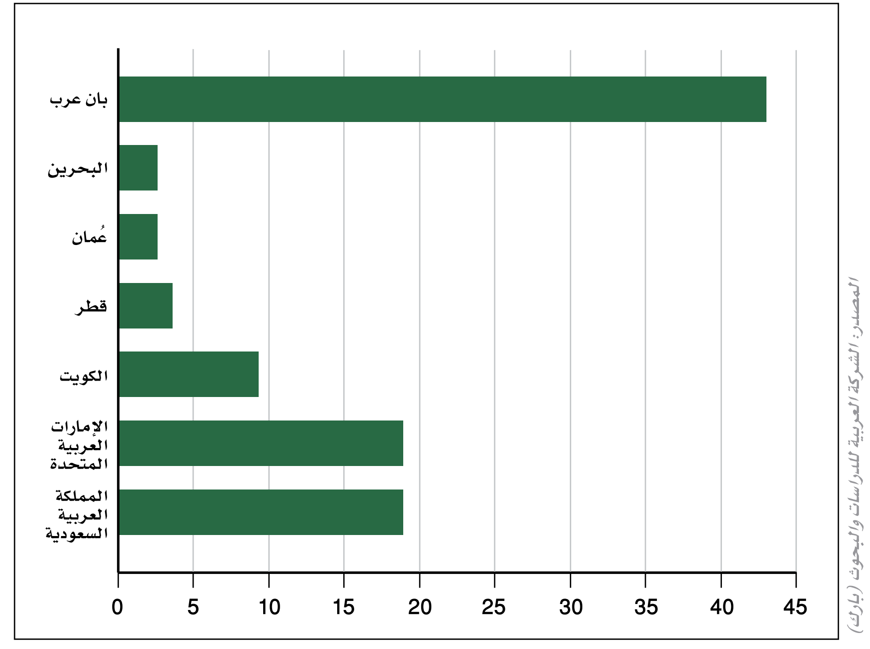
الصحف والمجلات تستأثر بنسبة 51% من السوق والباقي يتوزع على مختلف الوسائط

فعلى سبيل الذكر لا الحصر، ونتيجة لهذه العوامل بالأساس تطور الإنفاق الإعلاني في مملكة البحرين من 28.4 مليون دولار سنة 1993م إلى 77 مليون دولار سنة 2002م ثم 86.19 مليون دولار سنة 2003م فـ 116.2 مليون دولار سنة 2004م ليصل إلى 103 ملايين دولار سنة 2005م.

تفاوت النفقات بين الوسائل المختلفة

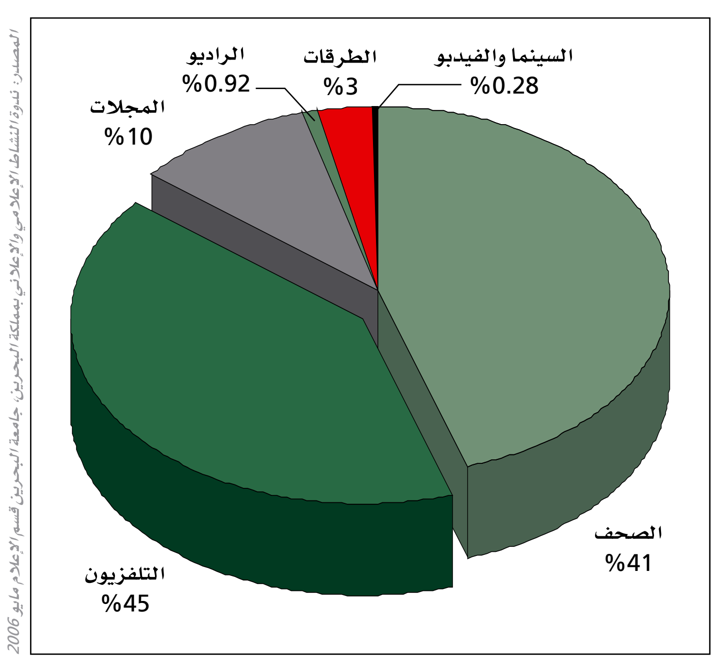
تعتبر المؤشرات الاقتصادية التي تم تحليلها في الفقرة السابقة من أهم العوامل التي تفسر تطور الإنفاق الإعلاني في بلدان مجلس التعاون الخليجي. ويتفاوت هذا الإنفاق بين وسائل الإعلام المختلفة وتذهب الحصة الأكبر منه إلى الصحف والتلفزيون.

فعالمياً يستحوذ التلفزيون على 45% من سوق الإعلان، وتؤول نسبة 40% إلى الصحف والمجلات، أما النسبة المتبقية فتذهب إلى إعلانات الطرقات، الراديو، السينما والفيديو والإنترنت، حسبما جاء في



المصدر: الشركة العربية للدراسات والبحوث (بارك)

رسم بياني رقم 1: حصص بلدان مجلس التعاون والأقطار العربية (بان عرب) من النفقات الإعلانية: يناير- ديسمبر 2005



المصدر: ندوة النشاط الإعلامي والإعلاني بمملكة البحرين: جامعة البحرين قسم الإعلام مايو 2006

رسم بياني رقم 2: حصص وسائل الإعلام من النفقات الإعلانية في البلدان الخليجية يناير – ديسمبر 2005

برنامج التقرير الذي بثته قناة «العربية» في 15 نوفمبر 2005م.

وتنطبق المعادلة نفسها تقريباً على الأسواق الإعلانية الخليجية، فالإعلان المطبوع في الصحف والمجلات يبقى المتصدر للنفقات الإعلانية عموماً في بلدان مجلس التعاون بنسبة 51% -حسب إحصاءات الشركة العربية للدراسات والبحوث (بارك) لسنة 2005م-، يليه التلفزيون بنسبة 45%، ثم الإعلان في الطرقات بنسبة 3% والراديو بنسبة 0.92% وأخيراً السينما والفيديو بنسبة 0.28%.

الإعلان التلفزيوني يتطلب الكثير من الوقت والمال، ولكنه فاعل في الترويج للمنتجات الاستهلاكية

وتأكيداً للإحصاءات المبينة أعلاه، بلغت نسبة الإعلان المطبوع في السوق السعودي -أكبر الأسواق الخليجية إعلانياً- نسبة 80% سنة 2004م (منها 72% للصحف و8% للمجلات)، يليه الإعلان التلفزيوني بنسبة 10% والإعلانات في الطرقات 8% وأخيراً الراديو بنسبة 2%.

وتتكرر هذه المؤشرات مع السوق الإماراتي -ثاني أكبر الأسواق الخليجية إعلانياً- إذ نلاحظ تصدر الإعلان المطبوع لإجمالي نفقات السوق الإماراتي بنسبة 73%، تتوزع كالآتي: 56% للصحف و 17% للمجلات. ويأتي الإعلان التلفزيوني في المرتبة الثانية بنسبة 19%، والإعلانات في الطرقات 5%، والراديو 2%، والسينما والفيديو 1%. كما تتأكد المعادلة نفسها مع السوق البحريني، إذ تبلغ نسبة الإنفاق الإعلاني في الصحف والمجلات 70.13%، مقابل 24% للتلفزيون و1.47% للسينما و0.82% للراديو و0.58% للإعلان في الطرق، حسبما جاء في ندوة النشاط الإعلامي والإعلاني بمملكة البحرين، التي عقدت في جامعة البحرين خلال شهر مايو من العام الجاري.

ويعود تصدر الإعلان المطبوع لباقي الأنواع من الإعلانات إلى طبيعة القطاعات المعلنة التي تجد في الإعلان المطبوع الوسيلة الفعالة في توصيل رسالتها الإعلانية، ومنها على سبيل المثال المصارف والاتصالات والطيران والفنادق والسياحة والسيارات ومراكز التسوق والمتاجر والهيئات والمؤسسات الحكومية والعقارات وغيرها من القطاعات. و «يوفر الإعلان المطبوع تغطية محددة لأسواق معينة، وبأسعار تناسب كل سوق على حدة عدا المطبوعات العربية العابرة للأقطار العربية (بان عرب) التي توفر تغطية أكبر»، استناداً إلى ماجاء في بحث بعنوان «مستقبل الإعلان وعلاقته بالإعلام» نُشر في جريدة الشرق الأوسط في 7 أغسطس 2005م.

أما التلفزيون الذي استحوذ على 50% من إجمالي النفقات الإعلانية الخليجية سنة 2004م، و45% من إجمالي النفقات سنة 2005م و42% في الأشهر الستة الأولى من 2006م، فإنه يبقى الوسيلة الإعلانية التي تتبع بناءً تغلب عليه الجاذبية خلافاً لما تحمله الكلمة أحياناً من إملال وتجهم يتطلب احتمالهما بذل مجهود


المحترف السعودي

إعلانات لكل شيء.. وعلى كل شيء


المحترف السعودي



الفن عامل مؤثر في صناعة الإعلان

كبير. وتقوم فاعلية الصورة الإعلانية التلفزيونية على الزمن المكثف أو المختصر، «والزمن المكثف على قصره مؤثر جداً في فاعلية الصورة الإعلانية وتأثيرها في الجمهور المستهدف»، حسبما يؤكد و. أرينز في بحثه حول «الإعلان المعاصر».

وعلى الرغم من أن الإعلان التلفزيوني يتطلب ميزانية إعلانية أكبر والكثير من الوقت لإعداده وإنتاجه، إلا أنه يبقى عامل جذب لقطاع إعلانات المنتجات الاستهلاكية سريعة الرواج كمستحضرات النظافة والتجميل والمواد الغذائية والأجهزة المنزلية وقطاع السيارات،... إلخ.

مستقبلاً: مزيد من التوجه صوب التلفزيون

وإن كان الإعلان المطبوع هو المتصدر للنفقات الإعلانية في منطقة الخليج في الوقت الراهن، إلا أنه سيأتي اليوم الذي سنعيش فيه زخماً كبيراً في الإعلانات التلفزيونية وتوجهاً أكبر من المعلنين نحو بث إعلاناتهم عبر التلفزيون، نتيجة للتحولات التي يحملها التطور التقني والاتصالي في الفترة الراهنة -فترة ما بعد الحداثة- التي يمكن أن نعتبرها حقبة الصورة بامتياز. وإذا كانت الحداثة وما قبلها قد ارتبطت بسحر الكلمة وفاعليتها، فإن مرحلة ما بعد الحداثة ستركز على فاعلية الصورة وتعتمد عليها بوصفها أداة رئيسة للتواصل والتأثير في الآخر.

أما بالنسبة لمدى استفادة الوسائل الاتصالية الأخرى من النفقات الإعلانية في منطقة الخليج، فإنه يمكننا التأكيد على تواضع النسبة التي تذهب إلى الراديو والتي لا تتجاوز نسبة 0.92%، حسب إحصاءات الشركة العربية للدراسات والبحوث (بارك) لسنة 2005م مقابل 3% لإعلانات الطرقات و0.28% للإعلان في السينما والفيديو. ويعود هذا التفاوت بين وسائل الإعلام المختلفة إلى سلوك المعلن نفسه الذي يعتمد في اختياره لوسيلة إعلانية معينة على درجة تأثير الوسيلة وفاعليتها في الوصول إلى المستهلك النهائي، ومدى ملاءمتها للميزانية المحددة مسبقاً.

أهم القطاعات المعلنة في الخليج

إن أسرع القطاعات المعلنة في بلدان الخليج نمواً هي: الهيئات والمؤسسات الحكومية التي ما فتئت تطور نفقاتها الإعلانية من سنة إلى أخرى. فعلى سبيل الذكر لا الحصر، تضاعفت النفقات الإعلانية للمؤسسات والهيئات الحكومية السعودية بين عامي 2003 و2005م خمس مرات، إذ ارتفعت من 40 مليون دولار سنة 2003م إلى 200 مليون دولار سنة 2005م. ويتم صرف أكبر نسبة من هذه النفقات في الإعلانات التوعوية والتوجيهية. وتستحوذ قطاعات الترفيه والفنادق والسفر والسياحة ومراكز التسوق وتجارة التجزئة على أهم نسبة من النفقات الإعلانية خاصة بدولة الإمارات العربية المتحدة.



المحترف السعودي

أما بالنسبة إلى مملكة البحرين فتتوزع هذه النسب بين القطاعات المعلنة خلال العام 2005م كالآتي: الترفيه 13.83%، الهيئات والمؤسسات الحكومية 11.99%، الفنادق والسفر والسياحة 9.86%، مراكز التسوق وتجارة التجزئة 9%، السيارات ولوازمها 7.8%، الخدمات المالية 7.3%، الخدمات المهنية 6.77%، المطبوعات ووسائل الإعلام 6.4%، الاتصالات والمرافق العامة 5.78%، الأجهزة المنزلية الكهربائية 5.27%، المقاولات ولوازمها 4.5%، مستحضرات النظافة الشخصية والمنزلية والتجميل 3.5%، الأغذية والمشروبات والتبغ 3.26%، الملابس والمجوهرات والإكسسوارات 3.13%، الخدمات 2.54%، العقارات والتأمين 2.43%.

فتح الأسواق الخليجية على قطاعات كالاتصالات والطيران والبنوك، يبشِّر بمزيد من النمو

المستقبل بين قوة الرقابة وقلة الضوابط

على الرغم من ارتفاع معدلات الإنفاق الإعلاني الخليجي عاماً بعد الآخر، إلا أن هذا الإنفاق ما زال أقل من المتوسط العالمي، كما أن متوسط نصيب الفرد في الاستثمار الإعلاني لا يتجاوز اليوم 112 دولاراً في البلدان الخليجية في حين يصل هذا المتوسط إلى 130 دولاراً في لبنان ولا يتجاوز أربعة دولارات في جمهورية مصر العربية.

ولعل من أسباب هذا القصور «عدم توافر وسائل إعلام متخصصة بالرغم من هذا الكم الفضائي الهائل الذي تعرفه البلدان العربية وعلى رأسها البلدان الخليجية، وهذا الكم الكبير من المطبوعات، حيث لا توجد في البلدان العربية عموماً مطبوعات أو محطات متخصصة في قطاعات معينة كما نجد ذلك في الأسواق العالمية.

كما أن تواضع الحوافز المشجعة للمعلنين للاستثمار في نشاطات الإعلان والترويج أدى إلى عدم توافر الميزانيات المناسبة كما هو الحال في الدول الرأسمالية -على سبيل المثال- حيث تحتسب كلفة الإعلان كجزء من كلفة المنتج أو الخدمة وتخصم من الضرائب. يضاف إلى ذلك حركة السوق الإعلاني في الدول العربية نفسها، إذ بدأت هذه السوق تتحرك أكثر باتجاه اعتماد الإعلانات الموحدة، بمعنى الترويج لكل سلعة على حدة وليس فقط الاسم التجاري.

ورغم هذه الوضعية، تدل مؤشرات عديدة على أن النشاط الإعلاني في بلدان الخليج سيشهد تطوراً أكبر في السنوات المقبلة، بعد فتح الأسواق على العديد من القطاعات خاصة قطاعات الاتصالات والطيران والبنوك، نتيجة لتوجه المنطقة نحو سياسات السوق المفتوحة التي ستقود حتماً إلى زيادة المنافسة في هذه القطاعات الواعدة، إضافة إلى قطاع العقارات الذي يشهد هو الآخر نشاطاً إعلانياً كبيراً أسهم في



Flickr

إعلانات للسيارات وعليها

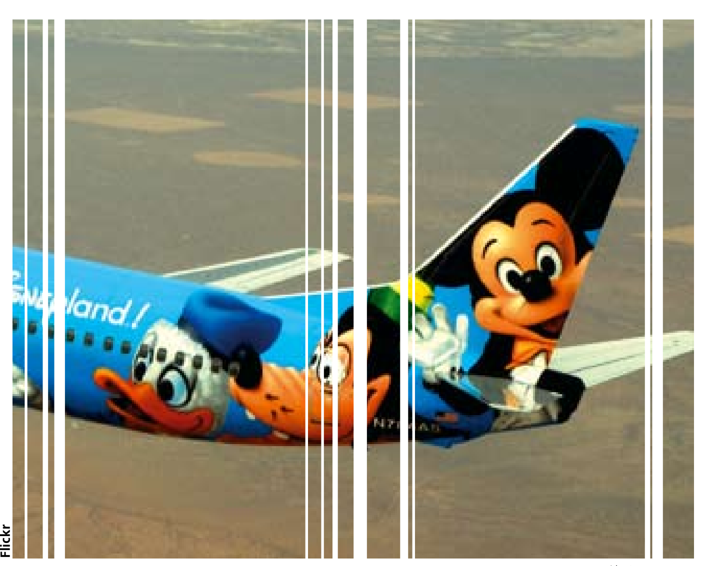
تخصـص بعض المحطات التلفزيونية في هذا المجال. وتضـاف إلى ذلك قطاعات التأمين والسياحة والفنادق وما تشـهده من تطور بدأت بوادره تظهر مع بروز العديد من وسائل الاتصال المطبوعة والقنـوات التلفزيونيـة المتخصصـة فـي بلدان مختلفة من المنطقة العربية خاصة منطقة الخليج. وسـتكون الاسـتفادة الأكبر مـن هـذا التطـور للصـحف والتلفزيـون باعتبارها الأكثر اسـتخداماً، إلا أن الزيادة سـتكون حتماً في اتجاه القنوات الفضـائية التي تحرك وتيرة نمو السوق الإعلاني خاصة في كل من المملكة العربية السعودية والإمارات العربية المتحدة.

موضوع الإبداع يشغل العاملين في صناعة الإعلان، ولا بد من تكييفه مع الضوابط

أما بالنسـبة للإعلان على الإنترنت فإن نسبة التفاعل مـع هـذه الوسـيلة لا تـزال خجولة جـداً. وهـذا ليس حكـراً على البلدان الخليجيـة باعتبار أن الإعلان على الإنترنت لا يمثل حالياً إلا نسبة 5% من حجم الإعلان عبـر العالـم ككل. كمـا أن موضـوع الإنترنـت لا يزال يخيـف الكثيرين ولا يزال مرتبطاً تقنيـاً بالتكنولوجيا الترفيهية أو ما يسمى صـناعة التسلية، أكثر من كونه وسيلة لتسـهيل الحياة وتقريب المسافات وتغيير نمط العيش.

ويبقى موضـوع الإبداع هو الشـغل الشاغل للكثيرين من المهنيين العاملـين فـي صـناعة الإعلان فـي البلدان العربيـة عموماً. ففي حين يعتبر البعـض أن الإبداع في مجال الإعلان مقيد، يذهب البعض الآخر إلى أن عملية فرض الرقابة على المضـمون الإعلاني لابد أن تمر عبر تحديد جملة من الضوابط المهنية.

فالإبـداع -وهـو أحد المقومـات التي تفتقدها صـناعة الإعـلان العربيـة- لا يمكن أن ينطلق من دون ضـوابط ومـن دون التخلص من المضـامين الإعلانية التي تقوم على محـاكاة المصـلحة التجارية نحو نوع مـن التعبير الفنـي الـذي يجعل من الإعلان في العالـم الفن الثامن دون منازع. وهذا يتطلب منا قدرة فائقة على الاستجابة إلى معادلة صـعبة فيها انصـهار لثقافتنـا ومقدرة على التعبير تحكمها ضوابط ولا تؤثر فيها الرقابة.



Flickr

.. وعلى الطائرات

في خضم الغوص في متابعة تفاصيل الشؤون البيئية وفق مساراتها اليومية، تغيب عن الأذهان صورة المسار العام الذي سلكه الاهتمام العالمي بالبيئة خلال العقود الأخيرة وأبرز محطاته. هذه المحطات التي حوَّلت أسماء مدن مثل ريو وكيوتو وجوهانسبرغ إلى عناوين فصول محددة من هذا المسار.

رجب سعد السيد* يعيد رسم الصورة البانورامية لمجمل هذه المحطات الكبرى التي توالت تباعاً ونقلت الاهتمام بالشأن البيئي من مستوى الأفراد إلى مستوى القضايا التي تُجمع دول العالم قاطبة على وضعها في قائمة الاهتمامات الإنسانية الكبرى.

ستوكهولم، ريو، كيوتو، جوهانسبرغ...

منعطفات كبيرة في رحلة قصيرة



نسرين الدار

* المدير العام للمعهد القومي لعلوم البحار والمصائد في مصر


زكي غواص

التلوث.. قضية عابرة للحدود تحتاج إلى جهود دولية

يحلو لبعض نشطاء البيئة أن يؤرِّخوا لبداية الاهتمام الحقيقي بالشأن البيئي، بظهور كتاب «الربيع الصامت»، لراكيل كارصون، التي تقول إن هدفها الأساس من تأليفه كان التنبيه إلى تزايد خطورة المبيدات الحشرية، وبصفة خاصة، مبيد (د.د.ت.) الرهيب، الذي بدأ إنتاجه في عام 1939م.

وقد جاء في أحد فصول الكتاب: «... سيتوقف المؤرخون في المستقبل بانزعاج شديد، أمام اعوجاج وانحراف قدرتنا على تقدير الأمور، فكيف تعمل كائنات حية ذكية على مقاومة وجود أنواع أخرى من الكائنات الحية غير المرغوب فيها، باستخدام وسيلة من شأنها أن تفسد وتلوث البيئة بأسرها، وتجلب في طياتها خطر التعرض للأمراض، بل والموت، للنوع الذي تنتمي إليه تلك الكائنات الذكية؟!». وحين صدر «الربيع الصامت»، عام 1962م، قال عنه نفرٌ من رموز المجتمع الأمريكي، إن تأثيره على الناس والحياة يحاكي تأثير رواية «كوخ العم توم». إذ أضاء الكثير من الحقائق المخفية، وغيَّر بعض المفاهيم والأفكار السائدة، وامتد تأثيره إلى العالم كله، وكان شهادة صارخة، انتهت بإدانة المبيدات الحشرية، ووضع ضوابط صارمة على إنتاجها وتجارتها واستهلاكها.

وبدأ الناس، عقب ظهور كتاب «الربيع الصامت»، يتساءلون: ماذا ألمَّ بالكوكب الذي نعيش عليه؟. وكانت التكنولوجيا، بخطاها المتسارعة، قد ساعدت في خلق وعي عام بأن العالم بأسره قد صار «قرية كونية». ومن جهة أخرى، انطلق الناس يحتضنون الجمعيات غير الحكومية النشطة في مجالات معاداة الحروب، ومقاومة المجاعات، والداعية إلى وقف التدهور البيئي، والمناهضة لبرامج التنمية غير المستدامة، والمطالبة بعدالة توزيع الثروات في العالم، ومكافحة العنصرية والتجارة الجائرة والانتقاص من حقوق النساء، وغيرها من المسائل المهمة.

وعوَّل الكثيرون على منظمة الأمم المتحدة في التصدي لهذه المسائل، وفي معالجة الأزمة الناشئة في العلاقة بين الكوكب وناسه. إذ إن ميثاق الأمم المتحدة ينُصُّ على أن للمنظمة أربعة أغراض، هي: أن تكون مركزاً لتحقيق التوافق والانسجام بين الإجراءات الدولية، أن تصون السلام والأمن العالميين، أن تتعاون في حل المشكلات الدولية، أن تشجِّع على احترام حقوق الإنسان. وعلى مدى خمسين سنة تقريباً، اجتهدت المنظمة في التعامل مع كثير من القضايا الملحة التي واجهت المجتمع الدولي، وبلورتها في سلسلة من اللجان والمؤتمرات عالية المستوى، نعرض لأهمها فيما يلي بإيجاز:

1 - قمة ستوكهولم، 1972م

نجحت الأمم المتحدة في أن تجمع، لأول مرة، كلاً من حكومات دول العالم والمجتمع المدني في قمة البيئة التي انعقدت في ستوكهولم عام 1972م، حيث تم تدارس العلاقة المتدهورة بين الكوكب وسكانه. وفي هذا الحدث التاريخي، وُضِعت قائمةٌ بالمهام التي من شأنها توطيد الصلة بين قضايا حقوق الإنسان والآثار البيئية المتزايدة، الناجمة عن مجتمع بشري مستمر في التوسع الحضري والتصنيع. وقد شهد ذلك الحدث العالمي، لأول مرة، اشتراك حكومات كل من الدول الغنية والدول الفقيرة في بحث قضايا مهمة، مثل ضبط التلوث، واستعادة الغابات، والتنمية النظيفة، والتخطيط المتكامل للتنمية، وأوجه التعارض بين البيئة والتنمية، والنمو السكاني، بالإضافة إلى التعاون الدولي والتعليم البيئي.

وكان الحاصل الأهم من هذا المؤتمر هو إعلان ستوكهولم، الذي تضمَّن 25 فقرةً، نصَّ بعضُها على «...إن الموارد الطبيعية للأرض، بما فيها الهواء والماء والتربة والكائنات الحية النباتية والحيوانية ونماذج محددة من الأنظمة

البيئيـة الطبيعيـة، ينبغي أن تشـملها الرعايـة والحماية، وذلـك لمصـلحة كـل مـن الأجيـال الحاليـة والتاليـة، بإخضـاعها لعمليـة تخطيـط أو إدارة ذات كفـاءة عالية، حسـب مقتضـى الأمـر. كما أنـه ينبغي الاحتفـاظ بقدرة الأرض علـى إنتاج مـوارد حيوية متجددة، والعمـل علـى اسـترداد هـذه القـدرة، أو إصـلاحها، بكل الطرق الممكنة. وتقع على البشر مسؤولية خاصة تجاه حماية الموروث من الحياة البريـة وموائلها، وتوفير الإدارة الرشـيدة لهـا. إذ إن هذا الموروث عرضـة للتهلكـة في الوقـت الحالي، جرَّاء تضـافر عدد من العوامل المعاكسـة. لذلك، فـإن حماية الطبيعة، متضـمنة الحيـاة البرية، يجـب أن تحظى بأهمية خاصـة عنـد التخطيط للتنمية الاقتصـادية. كما يجب أن يُراعى، عند استغلال موارد الأرض غير المتجددة، توافر الحماية لها ضـد خطر اسـتغلالها في المستقبل، لضـمان أن تعمَّ منافعها كل البشر».

الازدهار الاقتصادي يظهر محدودية قدرات الطبيعة على تحمل كلفته

وأيَّاً كان الأمر، فإن هذا الإعلان لم يبين للناس الأسـلوب الذي يمكن به أن تتحقق هذه الأهداف النبيلة.

وظهـر عـام 1972م، أيضـاً، كتـاب «حـدود النمـوّ»، الذي أكَّـدَ على الشـكوك العميقة التي كانت تسـاور الناس حول مخاطـر جمـوح النمو الاقتصـادي. وقـد اشـتمل الكتاب على أول محاولة لرسـم خريطة للمسـتقبل، وتنبَّأ الكتاب، وهو يسـتقرئ التوجهات السـائدة، أن ثمة قصـوراً عالمياً متواصـلاً في الموارد، وأن العالم سوف يرزح مختنقاً فيما ينتجه من تلوث.

كذلـك، شـهدت سـبعينيات القرن الماضـي ظهـور كتاب إ. ف. شـوماخر، وعنوانه «صـغيرٌ وجميل»، وكان محاولة إضـافية، ذات دلالـة، لمعاودة التفكير فـي عالم غارق في الأوهام المتصلة بالانتعاش المؤقت للتوجهات المادية التي سـادت العالم في زمن ما بعد الحرب العظمى الثانية. وكان الهـدف من الكتـاب مراجعة بعض المفاهيم الاقتصـادية على أسـاس أن البشـر والطبيعة يأتيان في المقدمة، قبل أي شـيء آخر. ووفـر الكتاب لقارئـه أدوات عملية وذهنية لوضع تصور فكري لاقتصـاد مستدام جديد يجعل الناس في مركز اهتمامه.

وقـد عمل الازدهار الاقتصـادي، الـذي أطلقت لـه العنانَ عمليَّاتُ الخصخصة، منذ منتصف الثمانينيات، على إبراز الاهتمـام بمدى قدرة عالم الطبيعة علـى تحمُّل احتياجات البشـر منـه وتأثيراتهم فيـه. فكانت «معركة الاسـتدامة». وشـنَّت مجموعات نشـطة في مجـال البيئة، مثل «السـلام الأخضـر»، و«أصـدقاء الأرض»، حرباً تمخَّضت عن ظهور وعي عام متعاظم يدركُ أننا كنَّا ماضينَ في مسار متعارض مـع المجـال الحيـوي. وفي الوقـت نفسـه، بـدأت أحزاب الخضـر في أوروبا تنتشي بما تحققه من نجاحات، خاصة في الـدول التي تأخذ بنظام التمثيل النسـبي الذيٍ سـاعد تلك الأحـزاب على أن يدخل ممثلوهـا البرلمانات المحلية والقومية. وتشكَّلت، منذ عقد الثمانينيات، عدة لجان دولية،


عبدالعزيز عيَّاش

التصحر.. يهدد التوازنات البيئية والموارد الغذائية ومن خلفهما السلام


أحمد ماطر

«قمة المدن» تسعى إلى إنقاذ ما يمكن إنقاذه


عبدالعزيز عياش

اضطلعت بمهمة بحث حال العالم، والتباينات الواضحة بين الدول الغنية والفقيرة، مثل لجنة «بروندتلاند» التي أتت بفكرة «التنمية المستدامة»، التي تعرِّفُ بأنها: «التنمية التي تلبي حاجات الحاضر، دون أن يكون في ذلك مساسٌ بإمكانية أن تستوفيَ أجيال المستقبل احتياجاتها». واهتمت تلك اللجنة ببحث السبل التي تيسِّرُ تحسين ظروف معيشة البلايين من فقراء العالم، مع خفض الآثار البيئية المترتبة على النشاطات البشرية.

> «قمة الأرض» الثانية: التوسع العمراني في المدن بات يمثِّل تهديداً ضخماً للبشرية

2 – قمة ريو وميراثها

تلقَّفت «قمة الأرض»، التي انعقدت في ريو دي جانيرو عام 1992م، فكرة التنمية المستدامة وجعلتها الأساس لعدد من الإجراءات والاتفاقات في مجالات التنمية الاقتصادية والاجتماعية، وبخصوص تعرية الغابات، والتغيرات المناخية، والتنوع الأحيائي. وبدت قمة ريو «نقطة تحول في وضعياتنا وسلوكياتنا»، حسبما أوردته الأمم المتحدة. وكان أهم ما أسفرت عنه تلك القمة، ما عرف بـ «الأجندة 21»، التي تشتمل على نواحٍ عملية محددة ليعمل وفقها كلٌ من الحكومات وقطاعات الأعمال والهيئات المحلية والمواطنين، أملاً في تحقيق عالم قائم على الاستدامة.

وكالعادة، وكما هو متوقَّع، وجد عددٌ قليل من الدول «ذات النفوذ القوي» في الكوابح التي تفرضها التنمية المستدامة على قطاع الأعمال ما لا يتفق وهواها. فوجدنا الإدارة الأمريكية، في عهد الرئيس جورج بوش، تصدر تعليماتها إلى ممثلها في المباحثات الخاصة باتفاقية التغيرات المناخية بأن يعمل على إفساد مشروع الاتفاقية؛ كما قوَّضت الإدارة الأمريكية اتفاقية التنوُّع الأحيائي ورفضت المصادقة عليها.

3 – قمةُ الأمم المتحدة للمدن 1996م

طرأ على العالم في المائة سنة المنقضية تبدُّلٌ غير اعتيادي، إذ تسارع –على نحوٍ غير مسبوق– معدل إنشاء المدن، وأصبحت تلك المدن هي الموئل الأساس للناس. فقد كانت نسبة سكان المدن، في عام 1900م، أقل من 15 في المئة من مجموع تعداد سكان العالم البالغ بليوناً ونصف البليون من البشر، في ذلك الوقت. وفي عام 2000م، ارتفعت النسبة إلى 47 في المئة من مجمل تعداد البشر البالغ ستة بلايين نسمة. وفي عام 1900م، كان ثمة أربع مدن هي الأكبر بين مدن الأرض، ويقارب تعداد السكان في كل منها المليون نسمة، وهي بكين، وطوكيو، ودلهي، ولندن. وبحلول عام 2000م، أصبح عدد المدن ذات المليون نسمة 200 مدينة، وازداد عدد السكان في مائة مدينة أخرى إلى عشرة ملايين، للمدينة الواحدة، وتجاوز عشرة ملايين للمدينة في عشرين من المدن العملاقة. والمتوقَّعُ أن يصل عدد سكان المدن في العام 2030م إلى ما يقرب من خمسة بلايين إنسان، أي ما يوازي 60 في المئة من سكان العالم.

وكانت الأمم المتحدة قد دعت إلى قمة المدن الثانية، التي انعقدت في العام 1996م، تأكيداً منها على أن التوسع العمراني في المدن بات يمثل تهديداً ضخماً جديداً للبشرية؛ فهذه المدن تتمدد في كل الاتجاهات، فتضرب قواعدها في باطن الأرض، وتسمق بناياتها في الفضاء، وتفترش مساحات تزيد على عدة مئات الآلاف من الهكتارات، ويربط ما بينها، كما يصلها بمختلف مناطق العالم، مسارات ومحاور تجري عليها وسائل مواصلات تستمد طاقة تشغيلها من الوقود الأحفوري. ولكي تترسخ أنماط الحياة الحضرية، تمتص المدن الموارد من كل أنحاء العالم، وبالرغم من أن هذه المراكز الحضرية لا تحتل سوى 2 في المئة من مساحة اليابسة إلا أنها



Flickr

هل تحقق الأمم المتحدة وعودها لإفريقيا بحلول عام 2015؟

تستهلك 75 في المئة من موارد العالم. لقد ارتفع عدد الأفراد الذين يعتمدون في طعامهم على جهد إنتاج العامل الزراعي إلى أكثر من ستة أضعاف، إذ كان 15 فرداً يعتمدون على فرد واحد من عمال الزراعة في العام 1950م، أما في عام 1998م فأصبحوا 96. وفي عالم كهذا، يغلب عليه التوجه إلى الحياة الحضرية، فإن ما ينجم عن المدن من آثار بيئية مركَّبة يمتد ليشمل كثيراً من الأراضي المنتجة في هذا الكوكب. وفي أسطنبول، صادقت 180 دولة على «أجندة الموئل»، التي تنص على: «ضرورة أن تقوم المستوطنات البشرية على أساس من التخطيط، وأن تتم تنميتها وتطويرها على نحو تتحقق لها به أساسيات وكل مكونات التنمية المستدامة، حسبما ورد بالأجندة 21...». كما نُصَّ فيها على: «ضرورة احترام القدرة الاستيعابية للأنظمة البيئية، وإتاحة الفرص أمام الأجيال القادمة، كما يجب أن ترتَّب خطط الاستهلاك ونظم النقل بحيث تتوافر الحماية لمخزون الموارد الطبيعية ونحن نسحب منه، فلا نجور عليه».

> «الحلول معلومة، أما الإرادة السياسية فمفقودة، وقدرات الدول النامية على تحسين معيشتها تتقلص»

4 - بروتوكول كيوتو 1997م

بالإضافة إلى ما تقدم، عقدت منظمة الأمم المتحدة سلسلة من المؤتمرات العالمية حول نزع السلاح النووي، والنمو السكاني، وحقوق الإنسان، وحقوق المرأة، وحقوق الطفل، والعنصرية، والأيدز. وكانت التغيرات المناخية موضوع سلسلة من الملتقيات الدولية عالية المستوى، بدأت بمؤتمر «كيوتو» في العام 1997م، حيث تحقق اتفاقٌ مبدئي على تخفيض مستوى انبعاثات غازات الدفيئة، على المستوى العالمي، بنسبة 60 في المئة، بحلول العام 2050م. ولكن بروتوكول كيوتو لا يزال غير نافذ، إذ لم يصادق عليه، حتى عام 2004م، العدد المطلوب من الدول المسؤولة عن 55 في المئة من حجم الانبعاثات الكلية من غاز ثاني أكسيد الكربون في الجو.

5 - أهداف الأمم المتحدة للألفية الجديدة

في سبتمبر من العام 2000م، عقدت الأمم المتحدة جلسة خاصة لجمعيتها العامة، أعلنت فيها مجموعة من الأهداف للألفية الجديدة، ينتظر أن تتحقق بحلول العام 2015م، وتتضمن ما يلي:

- تخفيض معدَّلات وفيات المواليد، في أقاليم جنوب الصحراء بإفريقيا إلى النصف.
- تخفيض نسبة البشر الذين يعيشون بدخل يقلُّ عن دولار واحد في اليوم إلى النصف.
- تخفيض عدد البشر الذين لا يعرفون سبيلاً إلى ماء شرب نقي إلى النصف.
- وقف انتشار وباء الأيدز والبدء في مطاردته.
- وقف انتشار الملاريا، وغيرها من الأمراض واسعة الانتشار، والبدء في أعمال مقاومتها.
- تحقيق تحسن ملحوظ في أحوال معيشة مائة مليون، على الأقل، من سكان العشوائيات.
- مزيدٌ من التطوير لأسس التجارة الحرة والنظام المالي.
- إتاحة التعليم الأساس على مستوى العالم.
- دمج التنمية المستدامة في سياسات وبرامج الدول.
- استعادة الموارد البيئية.

غير أن هذه الأهداف، التي تركِّزُ على النواحي الاجتماعية، والتي تُغفِلُ، إلى حد كبير، الالتزام بتوافر كوكب ينعم بالصحة البيئية، يرى بعض المراقبين غير المتفائلين أنه ليس ثمة احتمالٌ لأن تتحقق عند حلول عام 2015م؛ فهي تجد معارضة صريحة من الدول الأغنى، بل إن مسؤولاً عالمياً، هو مارك ماللوش براون، المدير العام لبرنامج الأمم المتحدة التنموي، علَّق على هذه الحزمة من الأهداف، فور إعلانها، فقال: «إن الحلول معلومة، وإن ما نفتقده هو الإرادة السياسية لتنفيذها. إن الدول النامية تعمل على تحسين مستوى المعيشة فيها، ولكن مؤشرات تطور البشر في الدول الأشد فقراً تتقلص على نحو غير مسبوق، وإذا استمر التقدم بالسرعة الراهنة، فإن جنوبي الصحراء بإفريقيا لن تدركه أهداف الأمم المتحدة التنموية إلاَّ في عام 2147م».



أكثر من قمة عالمية للأرض..



الأنهار الجليدية تذوب، فهل ينجح كيوتو في إعادة تجميدها؟

6 - قمة الأرض في جوهانسبرغ

في اجتماعها بمفتتح الألفية الجديدة، قررت الجمعية العامة للأمم المتحدة الدعوة إلى ثالث مؤتمر قمة للأرض في عام 2002م؛ واختارت له أن يعقد في جوهانسبرغ، وأن يحمل عنوان «قمة العالم للتنمية المستدامة». وقد صرح كلاوس تويبفر، المدير العام السابق لبرنامج الأمم المتحدة للبيئة، قائلاً: «عندما قررت الجمعية العامة للأمم المتحدة عقد مؤتمر قمة عالمي للتنمية المستدامة، لم يكن خافياً على أحد أن ما أُحرِزَ من تقدم في تنفيذ التنمية المستدامة، منذ قمة الأرض 1992م، أصبح أمراً مخيباً للرجاء إلى حد كبير. فقد كان الفقر يضرب في الأعماق، والتدهور البيئي يستشري، وجاءت الجمعية العامة للأمم المتحدة لتقول: إن العالم لم يعد بحاجة إلى جدل فلسفي أو سياسي جديد، وإنما إلى قمة للأفعال والنتائج».

> سعت قمة جوهانسبرغ إلى تفعيل مقررات قمة ريو، ولكن دولاً عديدة رفضت المزيد من الترتيبات

لقد كانت الدعوة إلى قمة جوهانسبرغ 2002م لاستعراض مردودات قمة ريو السابقة عليها، والتعجيل بالنواحي العملية، إذا كانت ثمة فرصة لذلك. ولكن، وبعد أسبوعين من التفاوض والتباحث، ظهر للعيان أن كثيراً من حكومات دول العالم لم يكن لديها الاستعداد للاشتراك في ترتيبات جديدة ذات قيمة، ولا لتقديم المطلوب من الالتزامات المالية.

وكان إنجاز هذه القمة محدوداً، وتمثَّل في عملية تنقية إضافية لأهداف الأمم المتحدة للألفية الجديدة. وكان أهم مردود للمؤتمر هو «منهاج جوهانسبرغ التنفيذي»، الذي تضمن أهدافاً غير ملزمة، منها:

- خفض نسبة البشر الذين لا يجدون السبيل إلى المياه النقية والخدمات الصحية اللائقة، إلى النصف، بحلول عام 2015م.
- استرداد عافية المسامك المستنزفة، بحلول عام 2015م.
- التقليل من الخسارة في التنوع الأحيائي، بحلول عام 2010م.
- استخدام وإنتاج كيماويات بطرق لا تؤذي صحة البشر، ولا تضر البيئة، في العام 2020م.

وأثناء انعقاد المؤتمر، تردد في الأخبار أن أنهاراً وأفاريز جليدية في كوكبنا آخذة في الذوبان على نحو أسرع مما سبق، فماذا كان موقف الإدارة الأمريكية؟.. لقد أفسدت مشروعاً قدمته الدول الأوروبية، يتضمن أهدافاً تنظِّم إحلال الطاقة المتجددة في كل أنحاء العالم، على المدى الطويل. ونتيجة للموقف الذي اتخذته الولايات المتحدة الأمريكية، ومعها بعض الدول الأخرى، فقد فشل المؤتمر في اتخاذ أي قرار بشأن التغيرات المناخية، وغاية ما توصل إليه هو اتفاق على زيادة استخدامات الطاقة المتجددة «في حالات الضرورة»!.

7 - لجنة الأمم المتحدة للتنمية المستدامة

ترتب على المؤتمرات الكبيرة التي نظمتها الأمم المتحدة في السنوات الحالية أن نشأت لجان جديدة تابعة لهذه

المنظمـة، منهـا لجنة الانضـباطية الكونية، ولجنة صـون عموم العالـم، ولجنة التغيـرات المناخيـة، ولجنة تخفيف حـدة الفقر. أما لجنـة التنمية المسـتدامة، فتعـدُّ أكثرها أهميةً، ويشار إليها اختصاراً بالحروف (CSD)؛ قد عقدت اجتماعهـا الثالـث عشـر بمقر الأمـم المتحـدة بنيويورك فـي أبريل 2005م، وتتحصَّـل مـن برامج الأمم المتحدة ومؤسسـاتها ذات الصـلة على تقارير تتناول شـؤون البيئة والتنميـة والتقنية والماليات، وأول ما يهمها تحقيق التكامل بيـن أهـداف البيئـة والتنميـة من خـلال الأمـم المتحدة كنظام.

وتقـوم لجنة الأمـم المتحدة للتنمية المسـتدامة بوظائفها من خلال دورات تنفيذية، مدة كلٍّ منها سنتان، تختص كل دورة منها بحزمة من القضـايا. وفي السـنة الأولى من كل دورة، يتم التركيز على متابعة وتقدير ما تحقق من تقدم في تنفيذ ما اتفق على الالتزام به من برامج التنمية المستدامة في «الأجندة 21»، وفي «منهاج جوهانسبرغ التنفيذي»، وفي جلسـات اللجنة نفسـها وثيقة الصـلة بهذا الشـأن. وتولي اللجنة عناية خاصة بتحديد ملامح الصعوبات والمعوقات. وفي السنة الثانية من كل دورة تنفيذية، تصدر لجنة التنمية المستدامة قراراتها بالإجراءات التي تراها واجبة للتعجيل بالأعمـال التنفيذيـة. وعلـى سـبيل المثال، فقد اسـتهدف اجتمـاع اللجنة للعـام 2005م التعرض لعدد من القضـايا، مثـل:

- اجتثاث الفقر.
- أنظمة الإنتاج والاستهلاك غير المستدامة.
- حماية أسـاس التنمية الاقتصادية والاجتماعية المتمثل في الموارد الطبيعية.
- التنمية المستدامة في عصر العولمة.
- الصحة والتنمية المستدامة.
- تنمية مستدامة لقارة إفريقيا، ولغيرها من الأقاليم.
- الأُطر المؤسساتية للتنمية المستدامة.




خالد الحربي



8 - مرفق البيئة العالمي

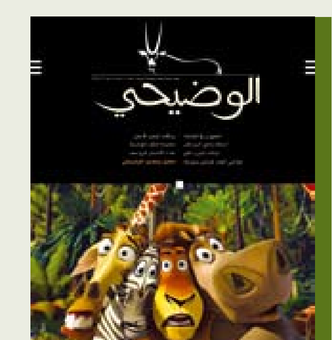
تأسـس مرفـق البيئة العالمي في العام 1991م، ويضـم في عضـويته 176 دولـةً، ويمـوِّل المشـروعات والبرامـج التي تختصُّ بحمايـة البيئـة؛ ويغطي نشـاطه العالـم النامي، وشـرق أوروبـا، وروسـيا الفيدرالية، أي مـا يزيد على 140 دولـةً. ويقدم المرفـق منحاً لدعـم المشـروعات التي تركِّز على قضـايا التنوع الأحيائي، والتغيـرات المناخية، والمياه الدوليـة، وتجريـف الأرض، وغلالـة الأوزون، والملوِّثـات العضـوية التـي يطول دوامهـا بالبيئـة؛ كما يولـي المرفق اهتماماً خاصـاً بدعم برامج الطاقة المتجددة؛ ويشـترك في تنفيـذ أعمالـه، وإدارة مشـروعاته على أرض الواقع، كـلٌّ من: برنامـج الأمم المتحدة الإنمائـي، وبرنامج الأمم المتحدة البيئي، والبنك الدولي.

ويحصل مرفق البيئة العالمي على أموال التمويل من الدول المانحة، وقد بلغ إجمالي الإمداد المالي للمرفق، منذ عام 1991م، أربعة بلايين ونصـف البليـون دولار أمريكي، كما جمع 14.5 بليون دولار أمريكي كمشـاركة مالية من شـركاء آخريـن. وفي العام 2002م، وعدت 32 مـن الدول المانحة بتقديـم ثلاثة بلايين دولار لتمويل أعمال المرفق في المدة من 2002 إلى 2006م.

وتلـك مبـادرة لهـا قيمتهـا، وهـي جديـرة بالاحتـرام. وبالطبع، فإن ثمة مبادرات ومشـاركات أخرى، في جميع أنحـاء العالـم، تهتم بجعـل التنمية المسـتدامة حقيقة واقعة.

اقرأ للبيئة

«الوضيحي»



هي مجلة البيئة والحياة الفطرية العربية التي تصدر عن الهيئة الوطنية لحماية الحياة الفطرية بالمملكة العربية السعودية، ويرأس تحريرها الأستاذ الدكتور عبدالعزيز أبو زنادة. مجلة «الوضيحي» تصدر كل ثلاثة أشهر، وتتناول موضوعات متنوعة تختص بالبيئة العربية في جميع مجالاتها. كما أنها تهتم بالقضايا البيئية المتعلقة بالحياة الفطرية ومحاولة إيجاد حلول مناسبة لها عن طريق اللقاءات وعقد الندوات والمؤتمرات المحلية التي تقام في الدول العربية كافة. ومن أبواب المجلة: زائد ناقص، والعالم بيئة، والفرسان الخضر، وفي حب الطبيعة، وعن كتب.

وتتناول الوضيحي في عددها 36 شتاء 2006م عدداً من الموضوعات، بدءاً من قضية العدد «الحيوان في الشاشة..يسلي الكبار ويرعب الصغار». بالإضافة إلى مواضيع أخرى كبزقات البحر الأحمر، الأسد العربي، محمية إشكل التونسية، وأسماك البحر.

«مجلة البيئة والتنمية»



تصدر مجلة «البيئة والتنمية» الشهرية عن شركة المنشورات التقنية المحدودة التي يرأس تحريرها الأستاذ نجيب صعب، وهي أول مجلة باللغة العربية تختص بالقضايا والأخبار البيئية. هدفها تغيير نظرة المجتمعات للبيئة في الشرق الأوسط. وتنفرد بالمقابلات الحصرية مع الرؤساء والخبراء المعنيين بشؤون البيئة.

وفي عدد ديسمبر 2006م مقال عن المشكلات البيئية في مصر، في ضوء استطلاع للرأي أجرته المجلة وجريدة «الأهرام» المصرية. وفي مقابلة مع الأمير بندر ابن سعود، الأمين العام الجديد للهيئة الوطنية لحماية الحياة الفطرية وانمائها عرض لخطط الانتقال من مفهوم حماية الطبيعة إلى برامج عملية لإنمائها وتطويرها.

ومن العاصمة الكينية نيروبي واكبت راغدة حداد فعاليات مؤتمر الأمم المتحدة حول تغير المناخ الذي حضره مندوبو 189 بلداً. ويتضمن قسم «كتاب الطبيعة» تحقيقين مصورين، الأول عن بحيرة بايكال الروسية أقدم وأعمق بحيرات العالم التي يهددها مد خط لأنابيب النفط، والثاني عن البحر الأحمر حيث المنغروف والحشائش والشعاب المرجانية الزاخرة بمئات الأنواع من الأسماك والأحياء البحرية جعلته مقصداً أول لهواة الغوص في العالم.

ومن المواضيع الأخرى: في الخليج معضلة بيئية، طاقة الرياح في الصين تتحدى التلوث، شركات الخليوي تتحرك بيئياً، فضلاً عن الأبواب الثابتة: رسائل، البيئة في شهر، سوق البيئة، المكتبة الخضراء، المفكرة البيئية. ومع العدد ملحق «البيئيون الصغار» للطلاب والنشاطات المدرسية، وتقرير عن مشروعات ونشاطات برنامج الأمم المتحدة للبيئة في المنطقة العربية.

وكتب نجيب صعب افتتاحية بعنوان «ليس البشر أرقاماً وإحصاءات» حول استخدام ذخائر اليورانيوم المستنفد في العراق والبلقان وأفغانستان، وربما لبنان، محذراً من عواقب تجاهل استخدامها أو إنكار خطورتها.

زاد العلوم

1 النحل يفضل لوحة فان غوخ



Google

أجرى كل من عالم البيئة لارس شيتكا، من جامعة لندن، والفنان جوليان ووكر، اختباراً جعلا بموجبه النحلة الطنانة ترى عدة رسومات من بينها واحدة للرسام الهولندي فان غوخ وهي «دوار الشمس». وذلك لإثارة «التفكير» حول الاختلاف في «الإدراك النظري» بين النحل والإنسان، وأيضاً للإجابة عن السؤال: لماذا الإنسان يشترك مع النحل في الانجذاب إلى الزهور.

وقد وضع الباحثان عشاً من النحل في مختبر، بحيث إن النحلات لم ترَ إطلاقاً أية زهور، ثم وضعوا في المختبر أربعة رسومات مختلفة وسجلوا عدد المرات التي اقتربت منها. وقد تبين أن رسم فان غوخ كان الأكثر جاذبية للنحل. فمن أصل 47 اقتراباً، كان 17 منها صوب إمضاء فان غوخ باللون الأزرق. كما أن مجمل ما اقتربت النحل من رسم هذا الفنان كان أربع مرات أكثر من غيرها. وكان اللون الأزرق هو الأكثر جاذبية للنحل. وذلك لأن الأزهار الزرقاء تنتج نسبة عالية من الرحيق أو توحي بذلك.

ويقول الباحث في علم الرؤية أدريان دايز إن هذه النتيجة تتفق مع ما يُعرف الآن في علم فيزيولوجية النحل وتصرفاتها، «فالنحل له خاصية متأصلة لتفضيل اللون الأزرق وللأشكال الشبيهة بالزهور».

2 أصل زجاج الصحراء الليبية

اكتشف علماء كانوا يجرون مسحاً على الصحراء المصرية الجنوبية عام 1932م قطعاً شفافة زجاجية بألوان صفراء وخضراء باهتة. وتتفاوت أحجامها من القطع الصغيرة كقطع النقود إلى حجم كرة القدم، وتنتشر على مساحات واسعة جداً. ولم يتمكن أحد من معرفة ماهيتها خصوصاً إنها تحتوي على سيليكا صافية بينها بعض النظائر التي تدل على أنها قد تكون من مصادر خارج الكرة الأرضية. وقد عرفت منذ ذلك الوقت بـ «زجاج الصحراء الليبية» نظراً لوجودها قرب الحدود الليبية.

وبقي هذا السر مستعصياً على الفهم حتى تمكن العالم المصري المعروف فاروق الباز، بعد دراسة معمقة للخرائط من الأقمار الصناعية للصحراء الكبرى من اكتشاف فجوة ضخمة جداً يصل قطرها إلى 30 كلم ناتجة عن اصطدام نيزكي كبير. واستنتج أن الزجاج هو نتيجة هذا الاصطدام الكبير.

يُضيف الباز: إن هذه الحفرة الكبيرة لم تُكتشف من قبل لكبرها، ولأن بعض حافتها قد تآكل بسبب وجود أنظمة نهرية قديمة هناك. وقد أعطى الباز هذه الفجوة اسم «الكبيرة».

Flickr

3 العصافير والحمية



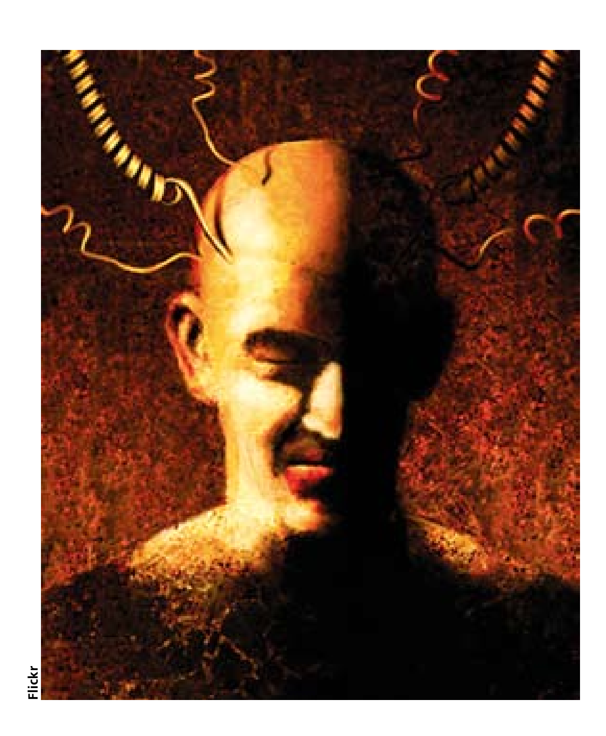
Flickr

ليس الناس وحدهم من يتبعون نظاماً غذائياً معيناً لتجنُّب السمنة. بل العصافير كذلك.

فقد أجرى جوناثان رايت، وهو عالم بيولوجيا في جامعة النرويج للعلوم والتكنولوجيا مع فريق مساعد له، اختباراً على عصفور الشمامة، وهو نوع من السنونو، وهو لا يزال في العش قبيل الطيران. فتبين له أن فراخ الشمامة تقوم بفحص نفسها قبيل الإقلاع لترى ما إذا كانت سمينة أم لا. فإذا كانت السمنة زائدة فهي لا تستطيع الإقلاع وإذا كانت ضعيفة لا تقوى على ذلك. فالفراخ اللحيمة في تلك اللحظة تحدُّ من تناول الطعام وتقوم ببعض التمارين بتصفيق جناحها وبمحاولة دفع نفسها إلى الأعلى حتى تصبح نسبة الوزن إلى باع الجناحات (أي المسافة بين الجناحين عند الطيران) متوازية.

ولاختبار نظريته وضع رايت وفريقه وزناً صغيراً على بعض الفراخ بمعدل 5% من وزنها. وألصق بعض ريش الجوانح الأخرى ببعضها الآخر حتى يقصر باع الجناحين بمعدل 5% أيضاً. وتبين أن هذه التعديلات دفعت الفراخ الغر إلى التقليل من كمية الطعام لمدة أسبوعين قبل الطيران ليتسنى لها تعديل النسب الجديدة لصالحها مرة أخرى. أما الفراخ الأخرى التي لم يجرِ عليها أي تعديل فقد انطلقت باكراً قبل أسبوعين.

4 ابن صيداح والعلاج بالكهرباء



Flickr

يتوسع استعمال التيار الكهربائي في معالجة الكثير من الأمراض الدماغية. فإدخال تيار ضعيف إلى الدماغ له تأثيرات كبيرة جداً لم يتضح قبلاً أحدها. لكن تطور الكثير من تكنولوجيات التصوير والمراقبة أخذ يؤكد أكثر فأكثر أهمية العلاج بهذه الطريقة. فقد ظهر أن هذه الطريقة تحسِّن المهارات المختلفة عند الأفراد المرضى وكذلك عند الأصحاء. كما أن هناك مؤشرات جيدة حول معالجة أوجاع «الشقيقة» والتي ليس لها علاج شافٍ إلى يومنا. وكذلك تسرِّع الشفاء بعد الجلطات المختلفة. وتطبق أيضاً في علاج الكثير من الأمراض العقلية.

وأول من استخدم هذه الطريقة هو الطبيب العربي ابن صيداح في القرن الحادي عشر الميلادي عندما عالج بعض مرضى «الصرع» بواسطة وضع سمكة الصلور الكهربائية على رأس المريض. وقد قلَّد ابن صيداح بهذه الطريقة العالم الإيطالي جيوفاني الديني بعد سبعمائة سنة أي في 1804م على مرضى الكآبة. إذ قام بتمرير تيار كهربائي مباشرة إلى رؤوسهم. وفي سنة 1985م استحدث أنتوني باركر من جامعة شيفلد أجهزة ذات تأثير مغناطيسي على خلايا الدماغ لمعالجة الكثير من الأمراض الدماغية والعقلية.

قصة ابتكار

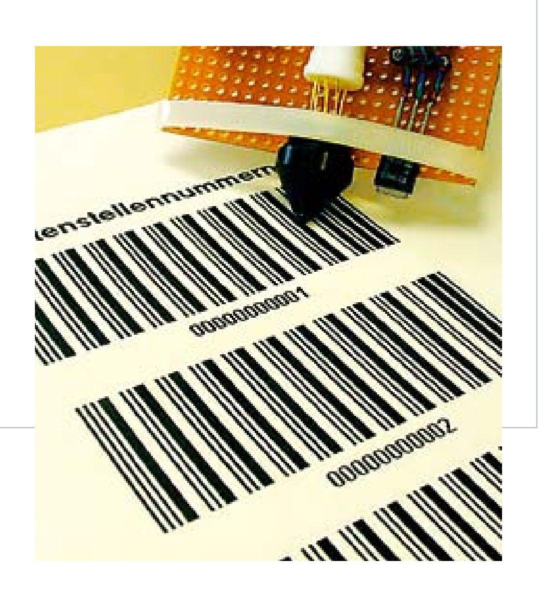
البار-كود
رمز المنتجات التعريفي



هـل تصـورت يوماً أن تلك الخطوط السوداء والأرقام التي تراها على كل منتج تشتريه أياً كان نوعه لها مدلولات ومعانٍ؟!

تعتبـر عمليـة تسجيـل المواصفـات لآلاف البضائع التـي يتم بيعها يوميـاً على مختلف أنواعها من العمليات التجارية التي تتطلب الكثير من الجهد والوقت. لذلك كان لا بد مـن وجـود طريقـة تسهِّل عملية الكشف الآلـي عن المنتج لمعرفة سعـره واسم الشركة الممولة وغيرها من المعلومات التي تعرِّف به.

وكان أول الابتـكارات فـي هـذا المجـال عـام 1932م، عندما اختـرع والاس فليـت نظاماً يعرف «بالكشـف الآلـي». ولكـن، لـم تكن تلـك العمليـة كافيـة لإعطـاء معلومات وافيـة عـن منتج ما، الأمر الذي دفع كلاً من المخترِعَين نورمان جوزيف وورلاند وبيرنارد سيلفر عام 1949م إلى وضـع طريقـة أوتوماتيكية لجمـع معلومات كافية أطلقوا عليهـا «البار-كود». وقد كان شكلها عبارة عن سلسلة من الدوائر المركزية ثم تطورت لتصبح مجموعة من الخطوط العمودية. حتـى أصبحت هـذه الطريقة وسيلة مهمة في تسريـع عملية الكشف على البضائـع فـي محـلات البيع فـي جميع أنحـاء العالم، ثم تطـورت في عام 1973م مـن قبـل جـورج لاوريـر. وكان متجـر «مارش» في شـروي أوهايو بأمريكا أول متجر يصدِّر منتجاً يحتوي على «البار-كود»، وكان عبارة عن علكة بنكهة العرقسوس، وكان ذلك عام 1974م، ولأهمية هذا الاختراع فإن هذه العلكة معروضة في متحف أمريكا التاريخي «سميثونيان».



يتكـون «البار-كود» مـن جزءين، كل جزء يحتوي على 6 أرقام مصنَّفة كالتالـي: في أغلب الأحيان يكـون الصفر في الجزء الأول بشكل دائم حيث يرمـز إلى المنتجـات ذات الأوزان المختلفـة كاللحوم مثلاً. أما الأرقام الخمسة التالية فترمز إلى المصنع المأخوذ منه. أما الخمسة أرقام الأخرى في الجزء الثاني فهي ترمز إلى المنتج والرقم السادس الأخير في هذا الجزء يفيد في التحقق من أن الأرقام السابقة قد تم نسخها بشكل صحيح. وبذلك أصبحت عملية تسجيل البضائع أسهل من أي وقت مضى.

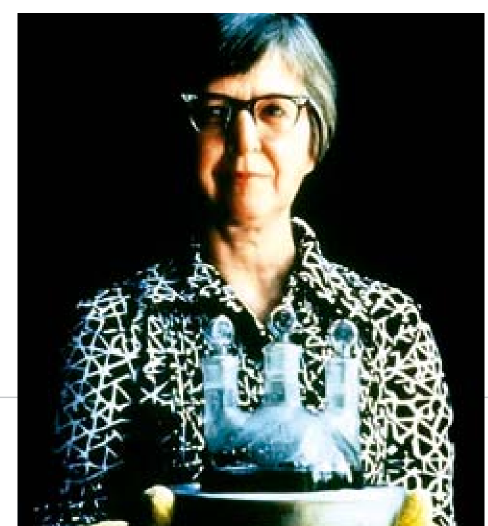
ولكـن كيف تتم عمليتا الكشف والتسجيل؟!.. عندما يتم الكشف على بضاعـة معيَّنة عن طريق قـارئ «البار-كود» فإن المعلومات المقروءة ترسل إلى الكمبيوتر الذي بدوره يقوم بالبحث في ملفاته عن الملف الخاص بهـذا النوع من البضائع، حيث يحتـوي هذا الملف على سعر المنتـج، واسـم الشركـة المصنعة، ونوعيـة المنتج ووصفـه، وكم بقي منه في المتجر أو المستودع... الخ.

وكمـا أن أنظمـة الكمبيوتر في تطور سريع فإن «البار-كود» أصبـح أمراً مهماً وضرورياً فـي مجـال التطور الصناعي والتجاري في عصرنا الحالي، حتـى إنه يستخدم أيضاً في الكثير من الوثائق العسكرية. ومع كثرة استخدام «البار-كود» يكثر تطور البرامج التي تخدم الكثير من الشركات ومتاجر التسوق في هذا المجال.

قصة مبتكر

ستيفاني كوالِك

مبتكرة الكفلار.. المادة العازلة للرصاص



ولدت ستيفاني كوالِك في العام 1923م في ولاية بنسلفانيا الأمريكية. وكان حلمها الكبير أن تصبح طبيبة، لكن التكاليف الباهظة لدراسة الطب، أجبرتها على تأجيل ذلك الحلم. فالتحقت بجامعة كارنيجي ميلون لتدرس الكيمياء، وحصلت على درجة البكالوريوس في العام 1946م. وراحت تخطط لأن تعمل لفترة مؤقتة تستطيع خلالها أن توفر نفقات دراسة الطب.

بدأت ستيفاني عملها ككيميائية في معامل أبحاث شركة «دوبون»، في ولاية نيويورك الأمريكية، في بداية العصر الذهبي لكيمياء البوليمرات.. بعد ثماني سنوات فقط على ظهور النايلون، أول مادة للألياف الصناعية تبصر النور، والتي عرف العالم معها ذلك النوع الجديد من المواد، والمجالات الهائلة والمتعددة التي يمكن استخدامها فيها بدءاً بصناعة الأقمشة والملابس وانتهاءً بسفن الفضاء.

كان عمل ستيفاني في «دوبون»، يتركز حول تصميم تفاعلات كيميائية لتوليد بوليمرات جديدة، بخواص معينة. وكانت إحدى أهم المهام التي أوكلت لها، هي مهمة ابتكار نوع جديد من البوليمرات تتميز أليافه بالصلابة والوزن الخفيف، ويمكن استخدامه في تصنيع إطارات للسيارات تستهلك كميات أقل من الوقود. جربت ستيفاني أنواعاً عديدة من الجزيئات، لكن أحداً منها لم يحقق النتائج المطلوبة. ولذلك قررت أن تدخل إلى تجاربها جزيئات جديدة، وظروفاً جديدة للتفاعلات، وكانت المادة التي حصلت عليها مختلفة في مظهرها عن النواتج الأخرى المعروفة، فأرسلت عينات منها للمختبر المتخصص في «دوبون»، لفحصها بدقة. وجاءت النتائج لتؤكد حدسها، وتثير دهشة زملائها، فالمادة الجديدة كانت أكثر صلابة بتسع مرات من أقوى مادة تم اختبارها من قبل.

بعد مرور سنوات قضتها ستيفاني كوالِك وفريق عملها في تطوير تلك المادة وتحسين خواصها، أعلنت معامل شركة «دوبون» عن توصلها إلى صناعة مادة بوليمرية جديدة تصلح للأغراض الصناعية، أطلقوا عليها اسم «كفلار Kevlar». وسريعاً ما وجدت هذه المادة، طريقها إلى عالم الصناعة، فبدأ استخدامها في صناعة أجزاء الطائرات، ومركبات الفضاء، والجسور، وفي صناعة خوذات الأمان، وملابس رجال الإطفاء. لكن القدر الأكبر من الشهرة التي اكتسبها الكفلار، ترجع إلى استخدامه في صناعة السترات الواقية من الرصاص. إذ إن خواص تلك المادة جعلتها الخامة المثالية لتلك الصناعة.

أمضت ستيفاني كوالِك حياتها المهنية في معمل أبحاث البوليمرات في «دوبون»، حتى تقاعدها في العام 1986م، بعد أن تولت منصب رئاسته. ولم يدع لها شغفها بعملها وتفوقها فيه، فرصة لتحقيق حلمها القديم بدراسة الطب. وعن شعورها بأنها أسهمت بعلمها في إنقاذ حياة كثيرين تقول ستيفاني: «أشعر بأنني محظوظة.. فكثير من الناس يعملون طوال حياتهم، لكن لا تتاح لهم الفرصة لكي يكتشفوا شيئاً ينقذ حياة غيرهم من البشر».

اطلب العلم

جديد على القائمة..
التلوث النانوي

ليس هناك خطأ في العنوان، فالتلوث الجديد هو غير التلوث الإشعاعي الناجم عن التكنولوجيا النووية.

إذ قبل أن تمر سنة واحدة أو سنتان على سماعنا بما هية التكنولوجيا الجديدة المسماة «تكنولوجيا النانو» القائمة على أدوات، أو تدخل في تركيباتها جزيئات، لا تزيد مقاساتها على 100 نانومتر (1/250,000 إنش مربع)، حتى اعتبر التحذير من مضار هذه التكنولوجيا ومخاطرها على البيئة والإنسان، واحداً من أبرز التحديات العلمية التي وجد العالم نفسه في مواجهتها بدءاً من العام المنصرم 2006م.

فخلال السنوات القليلة الماضية دخلت تكنولوجيا النانو في تصنيع نحو 200 منتج استهلاكي مختلف، بدءاً بمستحضرات إزالة البقع وانتهاءً بكرات الغولف. ومن المتوقع أن يرتفع عدد هذه المنتجات إلى ضعفي ما هو عليه حالياً خلال العام الجاري 2007م فقط.

جرس الإنذار بدأ خافتاً جداً عندما حذَّر بعض العلماء من أن اعتماد مواد النانو يتم من دون احتساب مخاطرها المحتملة بشكل مناسب. غير أن الصوت علا خلال العام الفائت عندما اضطرت إحدى الشركات الألمانية إلى سحب إحدى مواد التنظيف «النانوية» بعدما تسببت باضطراب في التنفس لنحو 100 مستهلك.

وفي تفسير وجود المخاطر، يقول دايفيد ريجسكي، مدير مشروع «نمو تكنولوجيات النانو» إن الجزيئات الصغيرة هي ذات تأثيرات تختلف جداً في محيط مختلف (بعد التصنيع) عن محيطها الأصلي والطبيعي».

ويبدو أن العالم لن يتحرك لمواجهة الاحتمالات السلبية لهذه التكنولوجيا الجديدة، إلا كما كان الحال دائماً، بعد وقوع سلسلة طويلة من المصائب والخسائر. بدليل أن الإدارة الأمريكية طلبت لموازنة العام 2007م نحو 1.2 مليار دولار لتطوير تكنولوجيا النانو بسبب وعودها الاقتصادية، أما المخصصات للأبحاث على سميَّة هذه التقنية ومخاطرها فلم تتجاوز 44 مليون دولار.

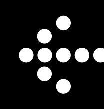
تلوث الهواء باحتراق الوقود الأحفوري، تلوث التربة والمياه الجوفية بالمخصبات والمبيدات، التلوث الصوتي، التلوث الضوئي، التلوث الكيميائي، التلوث الإشعاعي، التلوث البكتيري.. اللائحة تطول ويبدو أنها منفتحة جداً على المزيد من الملوثات المصاحبة لمسيرة تطور العلوم وحياة الإنسان، حتى الوصول إلى تهديد الحياة نفسها.

أما آن الأوان لأن يراجع الإنسان العالم مفهومه التقليدي للتطور وما هية الأفضل ويقدِّم له تحديداً جديداً؟

القضية ليست قضية علوم وتطورها، ولا هي قضية استهلاك مفرط يؤدي إلى اختلال موازين الطبيعة. القضية هي في الدرجة الأولى فلسفية، وتتعلق بنظرة الإنسان إلى نفسه، وإلى دوره في هذا العالم.

عبود عطية

هيفاء المطوع



اليد فتيــة
والعين شقية
تسترق النظر!
زهرة نضرة
تظلل إبهامين.
وشعر أشعث يشع
مؤكداً ما تقوله
العينان..





المصورة هيفاء المطوع

- مصورة سعودية نشأت في مدينة جدة
- حصلت على شهادة البكالوريوس في مجال العمارة البيئية
- حصلت على دبلوم التصوير، التِجاري والمعماري والفني من سويسرا
- تعمل حالياً كمعماري بيئي
- درَّبت في عدد من دورات التصوير الفوتوغرافي للمبتدئين والمحترفين





المصورة هيفاء المطوع



فسحة من الملل!!

علمنا العصر الحديث أن نستفيد من كل أوقات يومنا لغرض ما كالعمل، والطعام، والاستحمام، والقيلولة، والواجبات الاجتماعية، والشؤون الصحية الأخرى إلخ... وفي منطق هذا العصر أن هذا كله لا يأتي عرضاً، بل عن تخطيط. وتسبغ الصفة الإرادية على أمور تصل إلى حد القراءة ومشاهدة التلفزيون وسماع الأخبار وممارسة هواية من الهوايات، أو حتى المشي لمدة محددة لأهداف صحية معروفة. كلها تحدث بقرار واعٍ وبشكل يجعل يوم المرء مليئاً بالمهام من اللحظة التي يفتح فيها عينيه صباحاً وحتى استسلامه للنوم مساءً. ذلك أن الانتاجية هي من أساسيات شخصية العصر الحديث الفلسفية.

وأصبح كل ما يقوم به الفرد يهدف ليس إلى ما هو بذاته، بل إلى زيادة إنتاجيته وجعله أفضل أداءً في العمل. فقد وضع عصرنا الحديث العمل المنتج في أعلى درجات الوجود الإنساني، وهذا طبعاً من ميزات العصر بلا نقاش، وإليه يعود فضل كل ما تحقَّق وتقدَّم وتطَّور في حياتنا اليوم.. إلا أن ذلك يكاد لا يسمح للإنسان بفسحة غير هادفة.

إن هذه التهيئة المباشرة أو غير المباشرة "للفرد المنتج" جعلت كل ما يقوم به مسخَّراً لهذا الهدف السامي. وبالتالي، أصبحت فعل إرادة لا قيمة لها عند ممارسها إلا في خدمة عملية "تهيئة الذات". وبهذا فقد كثير من الأمور التي يقوم بها هذا الفرد التوأم مع هذا المفهوم العصري، قيمته الخاصة بالنسبة إليه كإنسان. وحتى إذا قرأ كتاباً، ولو كان هذا الكتاب هو روايةً أو شعراً، إنما يفعل ذلك لا لمتعة ذاتية أو ثقافية خاصة، بل لأنها تندرج في برنامج "تهيئة الذات" وتطويرها بإستمرار من دون كلل أو تخاذل. وهذا ينطبع على كل شيء آخر مثل مشاهدة فيلم سينمائي أو النزهة أو حتى السياحة. حتى سماع النكت أصبح بغرض الضحك، فالضحك كما يؤكد الأطباء والعارفون مفيد للصحة النفسية، وشيء منه مطلوب لكي يكون أداء الإنسان أفضل. وكل إنسان انخرط في هذا النوع من التوجه، وهذا النمط العصري من التعاطي مع الحياة، يدرب نفسه على أن يكون لكل وقت من الأوقات شيء "مفيد" يقوم به ضمن ذلك البرنامج من النشاطات المقصودة ذات الفوائد الأكيدة في عملية تهيئة الذات لإنتاجية أفضل. ونراه يسجل لنفسه نقاطاً من سلوك كلما قام بمثل هذه النشاطات إلى جانب عمله الفعلي، ويكون بهذا على حق من دون ريب، إلا أنه وبدرجات متفاوتة يحولها إلى أدوات مسخرة لأدائه الإنتاجي فيفقد الاستمتاع بها لذاتها، وينتزع من نفسه حق أن يكون له فترات في يومه ليست مسخَّرة لهدف محدد. ويفقد أيضاً فرصة تركها تكّون مادة لإنسانيته الخاصة. مادة تزوِّده بالإجابات عن تساؤلاته الذاتية، ومادة تهدئ من قلقه في الوجود، بل ومادة تسلية ولهو واستمتاع غير هادف.

وبهذا.. تتوالى ساعات يوم الإنسان، وتتوالى أيام سنواته بلا فسحة. تلك الفسحة غير المرهونة لأي نشاط "مفيد"، الفسحة الصافية التي قد تصادف الإنسان أحياناً وليس في ذهنه أي شيء يفعله! فيجلس مستسلماً لفترة ملل فرضت عليه. إلا أن هذا الجلوس قد يتحول ومن دون إنذار أيضاً إلى فترة تأمل والتفات إلى الدنيا التي لم يكن يلتفت لها، واسترخاء يفتح نوافذ الأفكار والأحلام والآمال، وجلسة حميمة مع الذات غير المحكومة بالأهداف المعيشية، وربما لا شيء غير الفراغ الهادئ الذي يمد النفس بتوازن مطلوب وبراحة تشتاق إليها.

للنفس حق بفسحة من الملل.

كميل حوا 

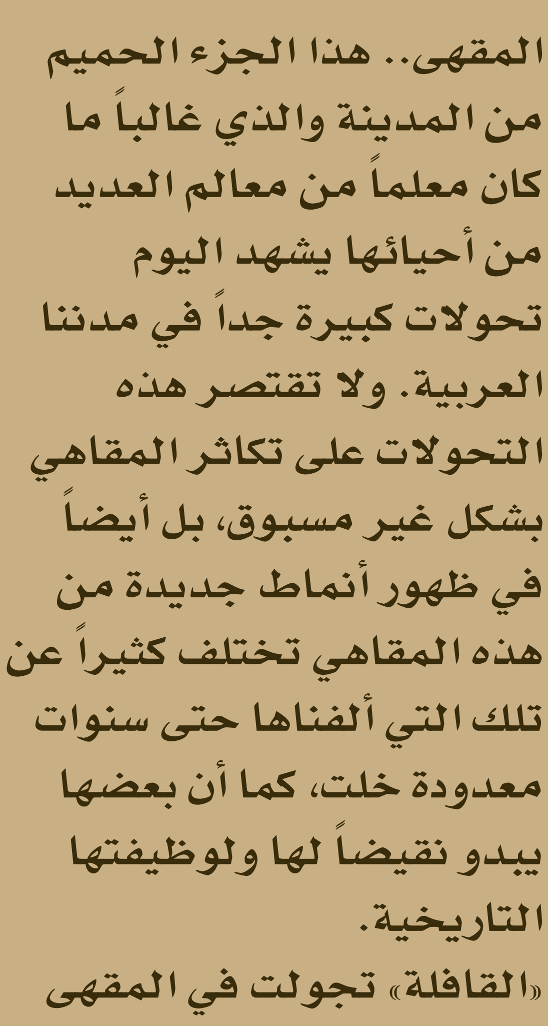


المقهى المعاصر في المدينة العربية

الزبائن، المقاعد، الأحاديث.. حتى القهوة تغيرت

المقهى.. هذا الجزء الحميم من المدينة والذي غالباً ما كان معلماً من معالم العديد من أحيائها يشهد اليوم تحولات كبيرة جداً في مدننا العربية. ولا تقتصر هذه التحولات على تكاثر المقاهي بشكل غير مسبوق، بل أيضاً في ظهور أنماط جديدة من هذه المقاهي تختلف كثيراً عن تلك التي ألفناها حتى سنوات معدودة خلت، كما أن بعضها يبدو نقيضاً لها ولوظيفتها التاريخية.

«القافلة» تجولت في المقهى العربي «المعاصر» الذي يزداد حضوره زخماً في المملكة، كما هو الحال في القاهرة وبيروت والمغرب، كاشفاً عن جملة تحولات طرأت بإيجابياتها وسلبياتها على الحياة الاجتماعية في المدينة العربية المعاصرة.



المحترف السعودي - ع.ف

1 المقهى في المملكة

يكبر شيئاً فشيئاً، وفيه شبه غريب بالمدن

ياسر اليحيى

المقاهي في المملكة «ليست مقطوعة من شجرة» إن صح التعبير. إذ يتصل نسبها بأنماط وأشكال كان أكثرها حداثة وتطوراً «المقهى العصري» الذي نشاهده اليوم. فالحجاز حيث المنطقة الأكثر تفاعلاً مع غير السعوديين هو المكان الأعرق لجهة المقاهي أو «المركاز»، الشكل الأولي لمقهى اليوم حيث كان يجتمع أصحاب الاهتمامات المشتركة، أدب، طرب، ثقافة، ترويح، لعب ورق، كيرم، يجلسون على كراس خشبية طويلة متقابلة، كل كرسي منها يسع أكثر من ثلاثة أشخاص، وتُدار القهوة بينهم والشيشة والشاي الأحمر وشاي النعناع اعتماداً على مزاج الجلسة، ونمط الحديث المتداول فيها. أما في نجد فقد كان الوضع مختلفاً، حيث لم تكن المقاهي بطابعها الاجتماعي مكاناً مشهوراً، وربما لهذا السبب كان لمجالس الأعيان وشيوخ القبائل ووجهاء المنطقة دور المقهى في الحجاز. كانت قهوة الشيخ فلان، تعني تجمع الأعيان عنده في وقت معين حيث تُدار القهوة العربية التي يتم إعدادها أمام نظر الضيوف الذين يجلسون على الأرض ويستندون إلى أرائك ووسائد مصنوعة من شعر الماعز ووبر الجمال، حيث كانت الأحاديث تتمحور حول الطقس والمطر و(الحيا) الكلمة التي تعني الحياة ويراد بها الزرع الذي ينبت إثر سقوط الأمطار، كما كان للتجار قهوتهم التي يجتمعون حولها في مجلس أكثرهم ثراءً.

المقاهي في الأحساء وأبها وعرعر وبقية مناطق المملكة تكاد لا تخرج عن نمطي الحجاز ونجد، ولكن بتفاوت يعكس المسافات الفاصلة جغرافياً واجتماعياً، ستجد في الأحساء مقاهي مشهورة لملاَّك مزارع النخيل، وستجد في أبها والطائف «مراكيز» معروفة وربما ما زالت إلى الآن تعمل، فالمقهى يبقى، بصرف النظر عن هيئته وأثاثه، مكاناً يجسِّد معالم القرية والمدينة.

عالم جديد يحل محل القديم

الكراسي الخشبية العارية من أية وسائد إسفنجية حلت محلها مقاعد جلدية داكنة اللون محشوة بالإسفنج الناعم وأرائك مخملية وثيرة ذات ألوان زاهية. النادل بلباسه المرقع وطاقيته المزركشة ويده الخفيفة القادرة على حمل عدة أكواب دفعة واحدة، وصوته المردد لطلبات الزبائن خشية نسيانها، حل محله نادل من نوع آخر، ممشوق القامة، يرتدي زياً موحداً طبع عليه شعار المقهى الذي يعمل فيه، وسيم، يتقن العربية والإنجليزية، يتأبط ألبومات المقهى، ويلقي عليك تحيةً عند دخولك أو خروجك، لا يعلق على ما يراه مهما كانت المواقف محرضة على ذلك، ولا يشارك الزبائن نقاشاتهم. الأكواب الزجاجية التقليدية التي نحتتها



Corbis

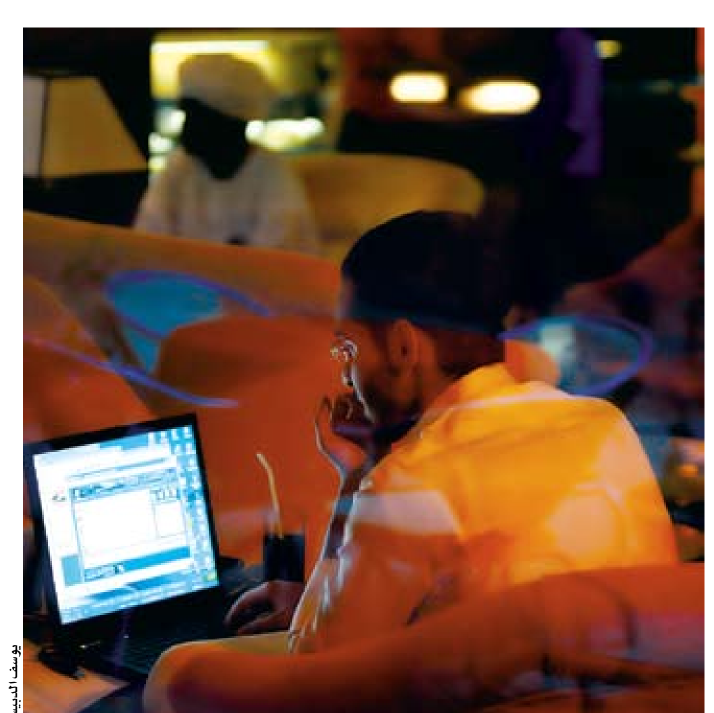
من مقهى سعودي معاصر

أصابع الزبائن الخشنة غدت أكواباً لامعة بيضاء، صفراء، زرقاء، ومصنوعة من فولاذ أحياناً، مقابضها كبيرة تسمح لليد بأن تحتضنها بشكل كامل. حتى القهوة أصبحت «موكا» و «لاتيه» و «اسبريسو». أم كلثوم كوكب الشرق، هي الأخرى استبعدتها الحداثة من أثاث مقاهيها. يكاد المقهى الجديد يفقد الصلة التي كان يتمتع بها المقهى القديم مع المجتمع العربي، فالمقاهي كما يقول أحدهم مدن صغيرة تشبه إلى حد بعيد المدن التي تحتضنها، فهل مقاهينا هي مدننا الصغيرة؟

الروّاد الجدد..

روّاد المقاهي الجدد هم في معظمهم شبان تتراوح أعمارهم بين 15 و 35 سنة. يلبس بعضهم الجينز وقبعات البيسبول الأمريكية، ويلبس آخرون الشمغ المنشاة والثياب الغالية، وآخرون تعكس ملابسهم نمط حياتهم المتوسط، الجميع يمتلك هاتفاً نقّالاً، البعض يعلّق جهازه بشريط زاهي اللون على رقبته، والبعض الآخر يخبئه في محفظة جلدية فاخرة، والبعض يضعه عارياً على الطاولة.

يتحدثون بالعربية فيما بينهم وعندما تعييهم البلاغة، يستعينون بمفردات إنجليزية. وقد لا يعودون إلى العربية حتى ينتهي سرد الحكاية. تدور أحاديثهم حول السيارات الفارهة أو ذات الدفع الرباعي، والشأن الثقافي أحياناً، ينتقلون إلى الحديث عن ألبومات الفيديو كليب للمغني الشاب وألبوم تلك المغنية الفاتنة. يتخلل أحاديثهم تبادل مقاطع بلوتوثية طريفة. ويضحي من الضروري أن يتمتع الواحد من هؤلاء الرواد بالقدرة على الحديث في كل هذا وأكثر، ومشاركة الآخرين في اتخاذ القرار الصعب بين «الهيزل نَت لاتيه» و «كراميل كريتو»، وبين معسل العنب أو التفاح.. ذلك أن هذه القدرة هي المفتاح الذي يفتح لك باب هذا المجتمع المغلق، ليقبلك عضواً فيه.


ومن مقهى إنترنت

ويحكي أحد هؤلاء الشباب عن امتناعه عن تذوق المعسل إلى أن أدرك أن العلاقات بين زملاء القهوة تتوثق وقد تتحول إلى مصلحة وعمل، عندما يجتمعون على المعسل. وعندما يصبح الموسم كروياً تنقلب المقاهي إلى صالات سينمائية مهيأة جداً لمتابعة المباريات الرياضية، قهوة، موكا، لاتيه، اسبريسو، وكل ما يجعل الفم مراً لدرجة اللذة!

وتكاثرت هذه المقاهي أينما كان في الرياض كما في جدة والخبر والأحساء. تراها في المراكز التجارية وفي الأسواق الجديدة، وفي الدور الأرضي من معظم مباني المكاتب الكبيرة أو بجوارها.

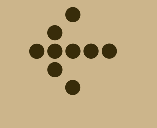
سموم بدل الهموم

ستجد وأنت في طريقك إلى خارج المدن محال كبيرة مضاءة بأضواء كثيفة، هي الأخرى مقاهٍ ولكنها تختلف قليلاً. في هذا النوع من المقاهي تُدار الشيشة والمعسل بشكل أكثر من عادي، إنها أماكن يفترض فيها أن تكون مناطق منزوعة الهموم «استراحات» وفي سبيل هذا، توفر هذه المحال كل ما يمكن أن ينتزع منك همك أو بالأحرى تفكيرك بهمك، قنوات فضائية بعيارات ثقيلة أحياناً ولكن لزبائن مخصوصين، يسمحون لك بتدخين الشيشة حتى الثمالة، وقد تجد من يتحدث معك في المواضيع العامة، ولكن لا تأخذ الموضوع بشكل جدي، إنه حديث عابر لتمضية الوقت لا أكثر.

المكان الثالث يتمدد ويتنوع

ربما تكون المقاهي قد نجحت اليوم إلى حد ما في تكريس مفهوم المقهى كمكان ثالث، بعد المنزل، والعمل أو الجامعة. فلم يعد الشباب يعتبرون المقهى مكاناً غريباً يروّحون عن أنفسهم فيه، بل هو وجهة منطقية للالتقاء بالأصحاب، كما يكون المنزل وجهة طبيعية للالتقاء بأفراد العائلة. ولذلك نجد أن كثيراً من الشباب، فتيات كن أو فتيان، يداومون عادةً على الذهاب إلى مقهى واحدٍ تصاحبهم فيه الألفة.

إذن فالمقهى لم يعد مكاناً للقهوة فحسب وإن كانت تُدار فيه بأسمائها المختلفة. إنه مكان يكبر شيئاً فشيئاً، به شبه غريب بالمدن من جهة التمدد وجهة التنوع، إنه مدينة صغيرة ، وهي -أي المدن- مقهىً كبير.



2 مقاهي القاهرة.. تودِّع الرومانسية

محمد خير

ربما لا تتلازم كلمتان بقدر كلمتي «المقهى» و «القاهرة»، فإن اندمجتا في عبارة، فلا بد أن تحيلا المستمع إلى عالمين لا ثالث لهما، العالم المحفوظي الذي أجادت السينما نقله، حيث الكراسي المتلاصقة في أزقة الحسين أو الغورية، والطاولات تشتعل بمنافسات ألعاب الطاولة والدومينو، يجول بينها «الصبي» ملبياً هذا ومداعباً ذاك، بينما «المعلم» متربع في صدارة المقهى، يرصد الزبائن بنصف عين، وبالعين الأخرى يراقب الإيراد النقدي.

أما العالم الآخر، فهو ذلك الذي تحفل به كتب النقد وحكايات السياسة، حيث المقهى هو الموطن الحقيقي لصعاليك الأدب، ومسكن الندوات والمناظرات التي ضاقت بها الأماكن الأخرى.

حسناً، ماذا بقي من هذا وذاك؟ وهل تتسع قاهرة ما بعد الألفية الثانية لكل هذه الرومانسية؟

مقاه لكرة القدم والإنترنت

مما لاشك فيه أن المقهى «كمشروع تجاري»، لا يزال مشروعاً مفضلاً لكثير من المصريين. إنه المشروع المضمون الذي لا يخسر أبداً، حتى بعد أن وصلت تكلفة شراء مكان للمقهى إلى ما يساوي نصف مليون دولار في الأحياء الراقية كالمهندسين والزمالك، بينما لا تزيد في المناطق الشعبية على بضعة عشرات من الآلاف، ففي بلد شديد الحرارة، تتسم منازله بضيق المساحة، بلد يعج بالعاطلين من العمل، وأرباب المعاشات العجائز وأصحاب «المعاش المبكر» إثر تصفية القطاع العام، بلد كهذا لايمكن أن يخسر فيه مشروع المقهى، حتى لو تغيَّر هذا المقهى نفسه من حيث طبيعة المكان المختار، أو نوعية المشروبات والخدمات التي تقدم للزبائن.



google

تعج القاهرة بأكثر من 12 ألف مقهىً، خلاف الزوايا الصغيرة «الغُرْزَة» ومنصات الشاي المتحركة التي تخدم عمال التراحيل والبناء، فهذه يصعب حصرها، وتحاول الدولة منذ سنوات أن تحد من ازدياد المقاهي، فتارة تمتنع عن إصدار التصاريح اللازمة، وتارة تزيد من إجراءات استصدار مثل تلك التصاريح، ولكن عبثاً. فقد ازدادت الظاهرة وتزداد كل يوم. وأضيف إلى أسباب استشرائها عاملين أساسين، أولهما، هو حصول إحدى محطات التلفزة على الحق الحصري لنقل أهم بطولات كرة القدم العالمية والعربية، ومع عشق المصريين المعروف لكرة القدم، اشترك العديد من المقاهي في خدمة بث تلك المحطة العربية، بل افتتحت مقاهٍ خصيصاً لبث تلك المباريات.

أما العامل الثاني، فهو الإنترنت، ذلك العالم الذي دخله المصريون على استحياء في نهاية القرن المنصرم، ثم انفتحوا عليه فجأة بعد أن تعرفوا إلى إمكاناته المدهشة. وعلى الرغم من أن وزارة الاتصالات المصرية قد أنشأت المئات من نوادي المعلوماتية في مختلف أرجاء البلاد، إلا أن هذا لم يحد من ازدياد مقاهي الإنترنت حتى أصبحت في كل مكان، وقد حاولت السلطات في البداية أن تمارس بعض الرقابة على تلك المقاهي، إلا أن عددها في ازدياد



Flickr

مقاهي القاهرة التقليدية لأهل البلد والسياح

حتى يكون من المستحيل على أي كان أن يراقبها، وقد أضيفت إليها مزية مهمة، هي إمكانية ارتياد الفتيات لها من دون مشكلات، ونظرات مستريبة، كالتي توجه إلى الفتيات اللاتي يرتدن المقاهي العادية.

غير أن المقاهي الواقعة في الأحياء المترفة، احتوت ظاهرة الإنترنت، بأن أدخلت خدمات الإنترنت اللاسلكي (wireless)، مما يتيح لمن يمتلك جهاز كمبيوتر محمولاً (laptop) أن يستخدمه وهو جالس على مائدته المفضلة، وبسرعات عالية. تنافست تلك المقاهي بضراوة في تقديم تلك الخدمة، حتى أن بعض الشوارع في منطقة المعادي والمهندسين، لا تحتاج فيها إلى دخول المقهى، إذ يكفي أن تجلس في سيارتك وتفتح جهاز الكمبيوتر الخاص بك، حتى تتلقى خدمات الإنترنت المحلقة في الأثير.

المرتادون الجدد: شبَّان وسياح

هذه الخدمات الجديدة في مقاهي القاهرة أحدثت انقلاباً في نوعية مرتاديها، من حيث العمر والمستوى العلمي والثقافي، فلم يعد القطاع الأكبر من مرتاديها يتشكل من أرباب المعاشات والعمال البسطاء، فتدريجياً أصبح المقهى مركزاً لجذب شباب متعلم من الجنسين، ينتمون إلى الطبقة الوسطى فأعلى، ويختفي تدريجياً المقهى التقليدي، تختفي معه المقاعد الخشبية لصالح تلك البلاستيكية، وتختفي مشروبات «السحلب» و «التمر هندي» و «العنَّاب» لصالح المياه الغازية والبيرة الخالية من الكحول، وتتقلص ألعاب الدومينو والطاولة لصالح الألعاب الإلكترونية، ويختفي الحواة والمغنون الشعبيون لصالح شاشات التلفزيون الضخمة، وتندر الجلابيب والعمائم لصالح الجينز والمعاطف الجلدية.

غير أن تلك التغيرات على أهميتها الظاهرية، تخفي تغيرات أعمق وأخطر في دلالاتها، فالمقهى تاريخياً لم يكن مجرد مكانٍ للترويح عن النفس، بل كان أيضاً محلاً للقاء، للحوار والجدال وفض المنازعات والتواصل الاجتماعي. وليست مصادفة أن احتل المقهى مكانة مهمة في الأدب المحفوظي. أما اليوم، فيبدو مرتادو المقاهي كل في عالمه الخاص، ومن المدهش أن الإنترنت وهو وسيلة تواصل بين الفرد والعالم، قد جعل الفرد منفصلاً عن الجالس بجواره على بعد سنتيمترات، كل يخاطب العالم الافتراضي بطريقته.

هل ينقرض إذاً المقهى التقليدي؟ يبدو هذا توقعاً مبالغاً في التشاؤم، وإن تجدر الملاحظة أن آلاف المقاهي المنتشرة في القاهرة تبدو كمقاهٍ ولكنها لا تحمل من المقهى سوى المقاعد والمشروبات، هي أقرب للأحياء العشوائية منها للأحياء الشعبية، غزيرة وفقيرة ومزدحمة ولكن لا روح لها، أما المقاهي التاريخية مثل «الفيشاوي» و «ريش» فقد طالتها «العولمة» منذ زمن، تبحث بين أرجائها فلا تجد سوى الشعر الأشقر والعيون الزرقاء.



corbis

قراءة الصحيفة.. أبرز «الأنشطة» في المقهى



3 بيروت.. تنوع وازدهار يستثنيان المقهى الشعبي

شوقي الدويهي

عرفت مدينة بيروت تاريخياً نوعين من المقاهي: المقاهي الشعبية التي كانت حكراً على الرجال ممن يلعبون بالورق إما للتسلية وإما للمقامرة فضلاً عن تدخين النرجيلة (الشيشة)، والمقاهي المعاصرة والمختلطة للطبقة الوسطى وما فوق تقدم إضافة إلى القهوة بعض المأكولات الخفيفة. غير أنه منذ أواسط التسعينيات تطور المقهى المعاصر حتى اختلف كثيراً عمَّا كان عليه قبل عقد أو عقدين من الزمن. وأصبح نمطاً مستقلاً بحد ذاته. كما ظهر نمط ثانٍ لا يمت بصلة إلى غيره.

مقاهٍ وسط بيروت مثالاً

يحضر النمط الأول أكثر ما يحضر في وسط المدينة الذي أعادت إعماره وترميمه شركة «سوليدير». ويكاد قطاع المقاهي يطغى ظاهرياً على كل ما عداه من نشاطات اقتصادية في هذه المنطقة. وفي معظم هذه المقاهي يقع المرء على أناس يأكلون ويشربون وسط رائحة الدخان المنبعث من النراجيل. واللافت على هذا الصعيد أن مدخني النارجيلة هم في غالبيتهم من الشباب ذكوراً وإناثاً. وإن كان مشهد هؤلاء قد أثار الاستغراب والاستهجان في بداياته -خاصة مشهد الفتيات المدخنات- إلا أنه أضحى بسبب انتشاره الواسع لاحقاً ظاهرة مجتمعية بكل معنى الكلمة، وإن كان كثيرون لا يزالون يرفضونه.

فقد انتقلت النرجيلة بكامل عدتها من مقاهي الذكور الشعبية إلى هذه المقاهي الحديثة والمختلطة، من دون أن يقرب ذلك هذه المقاهي من المقهى الشعبي التقليدي في شيء. ناهيك عن أن الأسعار في هذه المقاهي تتجاوز إلى حد بعيد القدرات الشرائية للطبقة الشعبية.

الزبائن يتبدلون والاهتمامات أيضاً

فخلافاً للمقاهي الشعبية التي يتردد عليها روادها بصورة شبه يومية ولأغراض محددة، فإن زبائن مقاهي وسط المدينة يتبدلون إلى حد كبير كل يوم، الأمر الذي لا يجعلها مطبوعة بفئة بعينها على غرار المقاهي الشعبية.

وفي هذا الإطار، تختلف المقاهي المعاصرة في بيروت اليوم عن تلك التي كانت موجودة فيها قبل عقدين من الزمن. إذ تميز بعض تلك المقاهي آنذاك بطغيان نوعية معينة من الرواد من ذوي الاهتمامات المشتركة على غيرهم. ولعل المثال الأشهر في ذلك كان مقهى «الهورس شو» في شارع الحمراء، الذي كان يعد معقلاً للمثقفين العرب وليس اللبنانيين فقط، وقد نجح مقهى «الاكسبرس» في الشارع ذاته في خلافته على ذلك خلال سنوات الحرب.. الأمر الذي يعتبر اليوم شبه مفقود بالكامل.

تضم مقاهي اليوم خليطاً من الناس، سواء على صعيد الجنس، أو على صعيد الفئات العمرية، فهي أمكنة تتجاور داخلها أمزجة وأهواء مختلفة تعبِّر عن نفسها بأشكال متنوعة تتجلى في سلوكات متنافرة إذا ما قورنت بما نعرفه عن المقاهي الأخرى. وبما أنها تقدم جملة من الخدمات مأكلاً ومشرباً فمن غير الممكن معرفة السبب الذي يقف



المحترف السعودي

وراء ارتياد هذا الزبون أو ذاك لها، وذلك خلافاً للسبب المعروف سلفاً لمن يرتاد المقهى الشعبي.

إلى ذلك فإن زبائن هذه المقاهي هم زبائن لا تربطهم بعضهم ببعض أية علاقة أو معرفة. وبهذا المعنى هي أمكنة تتجاور فيها هويات مجهولة الأمر الذي يحقِّق، إن شئنا، مفهوم المدينة كمكان يتخفف فيه الفرد من انتماءاته الأولية. وتتنوع هوية من يرتاد هذه المقاهي بتغير ساعات



المحترف السعودي

غرباء عن بعضهم.. وربما عن المقهى أيضاً

النهار. فزبائن ساعات الصباح غير زبائن بعض الظهر، وكذلك زبائن المساء. كما يتلوَّن المقهى بألوان مختلفة تبعاً لساعات النهار، الأمر الذي يستتبع تبدلاً في أجواء المقهى بحيث تطغى عليه خلال ساعات الصباح أجواء هادئة لا يعكِّرها سوى صوت الموسيقى، فيما تطغى على فترتي بعد الظهر والمساء أجواء أكثر صخباً.

مقاهي الإنترنت.. تنوُّع في تقديم الخدمة الواحدة

هناك نمط آخر من المقاهي شهد انتشاراً واسعاً منذ ما يقارب العقد من السنين، ألا وهو مقاهي الإنترنت.

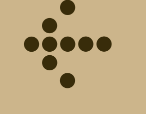
خلافاً لجميع أنواع المقاهي الأخرى، يتميز مقهى الإنترنت في كونه يقدِّم خدمة واحدة لا غير. وفي حال توافر خدمات أخرى كتقديم السندويشات أو بعض المشروبات الباردة أو الساخنة، فالخدمات هذه لا تشكل سبباً لارتيادها.

وخلافاً كذلك لأنماط المقاهي الأخرى، أكانت شعبية أم حديثة حيث هناك فئات من جميع الأعمار، فروَّاد مقاهي الإنترنت هم من فئة الشباب الذين تتراوح أعمارهم بين 15 و 25 سنة وهم من الجنسين مع غلبة للذكور (في تقدير أولي يشكل الذكور حوالي 70% فيما الإناث 30%).

ويخطئ من يظن أن مقاهي الإنترنت تشكِّل نموذجاً واحداً. فهناك فروقات كبيرة بين مقهى وآخر سببها الموقع الذي يحتضن هذا المقهى أو ذاك. ثم هناك فروقات تطال هذه المقاهي قوامها نوع الخدمة التي يقدمها كل منها، كالأسعار أو سرعة وبطء التواصل. وعلى العموم هناك نوعان من مقاهي الإنترنت. النوع الأول هو الذي يقع في الشوارع الرئيسة التي تقدِّم فقط خدمة الاشتراك بالإنترنت وما يرافقها من نشاطات أخرى قوامها الاستئثار بألعاب Net Work. وهذا النوع من المقاهي يوفر لرواده جانباً كبيراً من «الخصوصية» التي تسمح لهم بتصفح شبكة الإنترنت من دون قيد أو شرط. ويقول أصحاب هذه المقاهي أو من يديرونها إنه ليس من مهامهم «تربية العالم»، ولا من مهامهم لعب دور «الشرطة المُحافِظَة على الأخلاق».

هناك نوع آخر من المقاهي التي تقع في الشوارع الرئيسة لكنها لا تؤمِّن «الخصوصية». وعدم تأمينها هذه الأخيرة مرده المكان الذي يوضع فيه الكمبيوتر بحيث تكون الشاشات مكشوفة أمام الجميع. هذا النوع من المراقبة غير المباشرة، إن جاز القول، لا يمنع صاحب المقهى من التدخل أحياناً في حال حصول تجاوزات طالباً من الزبون ترك الموقع. فالجدير ذكره على هذا الصعيد أن الإنترنت في لبنان لا يخضع لأية رقابة كما هو الحال في العديد من الدول التي تقوم بفلترة هذه المواقع.

في النهاية وعلى ضوء ما تقدم، وبمعزل عن مدى استمرار هذه النماذج من المقاهي الجديدة أم لا، يمكننا القول إن المقهى بصيغته التقليدية قد أصبح إلى حد بعيد من الرواسب التي تعيش أيامها الأخيرة. ولا أدري ما إذا كان علينا التفتيش عن اسم جديد نطلقه عليها غير اسم المقاهي.



4 المقهى في المغرب عربي وغربي

رؤى عبدالباري

يستيقظ في الثامنة صباحاً، يتناول فطوره في منزله أحياناً، وأحياناً يغادره دونه، ليتجه إلى «القهوة». متنفسه الوحيد حيث يهرب إليه من متاعب الحياة وأعبائها. يشرب قهوته هناك، ويدخِّن، وقد يجد من أصحابه من هو مثله، فيتبادلون الحديث، أو يجلس وحيداً غارقاً في همومه، أو سارحاً في أحلامه التي يصعب تحقيقها. يقرأ الجريدة ويتابع آخر الأخبار المحلية، فإن أنهى فنجان القهوة، أتاه الشاي والحلوى المغربية، حتى تدق الساعة الثانية عشرة معلنةً وقت الرحيل والبدء بالقيام ببعض واجبات الحياة.. وربما البحث عن عمل. فيودِّع مقهاه، إلى أن يراه في اليوم التالي.

للطلبة والعاطلين من العمل

في المغرب، المقهى هو «قهوة»، سواءً أكان هذا المقهى مقهىً مغربياً شعبياً، أم مقهىً فرنسياً كمقهى «لا جون بلو» أو «بريوش دوري». وفي الفترة الصباحية من دوام عمل عادي قد لا ترى سوى الشبان والكبار من العاطلين من العمل والمتقاعدين، أما في بقية اليوم، فقد تجد صغاراً وكباراً يرتادون المقهى، من سن الثامنة عشرة وحتى الستين.

ومن المقاهي ما يرتاده الشبان فقط، كمقاهي الإنترنت، أو كما يسميها المغربيون «السايبر»، أما المقاهي الأخرى فهي تستقبل جميع الفئات العمرية والاجتماعية، فتجد العاطلين والمتقاعدين من العمل، والطلبة والطالبات الجامعيات.

ولم يعد المقهى كما كان سابقاً، مكاناً يلتقي فيه أبناء الذوات ليرفِّهوا عن أنفسهم. فكثرة المقاهي وتنوع مستوياتها جعلتها مقصداً للجميع. ففي المدينة الواحدة، كمدينة القنيطرة مثلاً، تجد أكثر من خمسمائة مقهى، في الأحياء الراقية والشعبية وما



Flickr

من مقاهي الرصيف في المغرب



Flickr

الكمبيوتر والجريدة في المقهى الجديد

بينهما، والكثير من المقاهي على شاطئ البحر. ويكثر روَّاد المقاهي في مواسم معينة، لعل أهمها المواسم التي تحددها كرة القدم. فالمغربي نادراً ما يتابع مباريات كرة القدم في منزله. ويفضِّل في ذلك المقهى. كما يزداد عدد مرتادي المقاهي من الشباب في يومي السبت والأحد، وهما يوما العطلة، إذ يروِّح العاملون والطلبة عن أنفسهم بعد عناء أسبوع طويل.

التأثير الفرنسي لا يترك مجالاً للأمريكي

وتتميز المقاهي المغربية بإرضائها لجميع الأذواق، شبابية كانت أم غير ذلك، فهي مؤلفة من جزءين، الجزء الداخلي، وهو الجزء الذي تقدم فيه المأكولات الدسمة، وفيه مكان للإنترنت وشاشة تلفزيون، وآخر خارج المحل حيث تنتصب الطاولات والكراسي في الهواء الطلق لتشاهد المارة ويشاهدونها. وكثيراً ما تستطيع سماع الراديو الذي يعمر به داخل المحل خارجاً لينتقل خليط من الأنغام المغربية الأندلسية والشبابية والشعبية، بالإضافة إلى الفرنسية والإسبانية والإنجليزية بين الرواد الجلوس خارج المقهى، وحيث تسمع المصطلحات المغربية الفرنسية، وحيث قوائم الطعام عادةً ما تكون بالفرنسية وقليلاً ما تكون مترجمة إلى العربية. أما التأثير الأمريكي فلا يكاد يذكر، ذلك أن النكهة الفرنسية والمغربية تغلبه، ولا تدع له كبير مساحة ليظهر فيها.

ولأن البطالة لم تترك مجالاً للاختيار بين الأعمال، فقد تجد من نادلي المقاهي المغربية شباناً يحملون شهادات عليا، ومنهم من يحمل شهادات في مجال خدمة المطاعم، والبعض الآخر منهم يعمل في المقاهي كي يزيد دخله بالإضافة إلى عمله الأصلي. وسريعاً ما ينشأ ود متبادل بين مرتادي المقهى من الشباب، وبين النادل، ويصبحون أصدقاءً ربما يجمعهم مقهىً آخر في يوم آخر.

صورة شخصية

وسط الشعور بالحزن والألم، وعندما تتحوَّل المعاناة الشخصية إلى رسالة سامية تتلخص في تقديم خدمات رائدة للحفاظ على أهم القدرات التي أنعم الله بها على البشر وهي النطق والسمع ومهارات التخاطب.. تتشكَّل لدينا صورة عن سيرة السيدة سلطانة علي رضا، مديرة مركز جدة للنطق والسمع «جش»، كما تحدثنا عنها ابتسام رياض*.

المحترف السعودي - ع.ف

السيدة سلطانة علي رضا

ولدت سلطانة في جدة عام 1955م في بيت كبير يعج بالأطفال، هو عبارة عن مجمع تسكن فيه عائلة علي رضا التي تتكون من الجد والجدة، وأولادهما وأحفادهما، وكأن المنزل قرية قائمة بحد ذاتها.

عندما كانت سلطانة في التاسعة من العمر ولد لأخيها طفل خديج. وعندما أصبح هذا الطفل في الثالثة من العمر اكتشف والداه أنه يعاني ضعفاً شديداً في السمع، فما كان منهما إلا أن ذهبا إلى بريطانيا ثم أمريكا لعلاجه. وهناك تدربت والدته على التعامل معه وكيفية تعليمه نطق الكلمات. وعادت الأسرة إلى المملكة وأول أطفالها يرتدي سماعة كبيرة بأسلاك متدلية مربوطة إلى صدره.

توضيح الأمور لجميع أفراد الأسرة كان أول ما فعلته والدة الطفل. أما سلطانة فقد تعلمت منها كيف تنطق الأصوات، وراحت تتبع زوجة أخيها في كل ما تفعله خطوة بخطوة، مع أنها لم تتجاوز آنذاك الحادية عشرة من العمر. تقول سلطانة: «كأن الله سبحانه وتعالى قد هيأني منذ الصغر لتقبل فكرة ضعف السمع والتعامل معها كأمر واقع، والتعلم من ابنة عمي كيف تتعامل مع ابنها والاستفادة من خبرتها لاحقاً».

ومضت السنون..

بعد حصولها على شهادة الثانوية من فرنسا، وذلك بحكم عمل والدها في وزارة الخارجية عادت إلى المملكة وتزوجت الأستاذ وليد زاهد وهي في التاسعة عشرة من العمر، أنجبت طفلها الأول ثم الثاني ولكنه توفي بسبب ولادته مبكراً، ثم أنجبت طفلها الثالث الذي اكتشفت لاحقاً أنه مصاب بضعف شديد في السمع.

في البداية، لم تلاحظ شيئاً بل كانت متأكدة من سلامة سمعه، ولكنها لاحظت عندما بلغ الثانية من العمر أنه لم يكن ينطق بشكل صحيح، ولكنها لم تكن تدرك وقتها ما المشكلة بالضبط لأنها كانت تظن أن السمع إما أن يكون قوياً وإما معدوماً ولم تعلم بوجود درجات للسمع.

في الإجازة الصيفية سافرت الأسرة إلى بريطانيا ووضعت هناك طفلاً آخر وعلمت لاحقاً أن مستوى السمع لدى طفلها الأكبر كان ضعيفاً جداً مع احتمال أن سمعه كان عادياً عند ولادته ثم بدأ يخفت تدريجياً. وبدأت رحلة العلاج من تركيب السماعات، إلى جلسات التخاطب والنطق، ومهارات السمع.

قيل لها إنه من الممكن أن يدخل المدرسة مثله مثل أي طفل عادي إذا كانت هناك

* كاتبة سعودية

متابعة واهتمام من المعلمين، مع تطبيق استراتيجيات معينة حتى يستطيع الطفل المشاركة والتواصل كزملائه. وعادت الأسرة إلى المملكة عام 1983م ولم يكن يوجد فيها أخصائيي تخاطب في ذلك الوقت. تقول «لم أفكر وقتها بأخذ الأولاد للعيش خارج المملكة، فافتراق العائلة قد يكون له أثر سلبي أكبر على الأطفال، لذا سنجرب هنا أولاً».

قصة كفاح.. ونجاح

قبلت المدرسة الطفل بصعوبة، بعد الاتفاق مع والدته سلطانة على أن مرحلة الحضانة ستكون تجربة. وبدأت والدته التركيز عليه في المنزل، وعلمته القراءة البسيطة وفك الحرف، إضافةً إلى تطبيق ما تعلمته في أمريكا لتنشيط مهارات السمع لديه. فأتم مرحلة التمهيدي بنجاح والانتقال للصف الأول ثم الثاني إلى أن تخرج من الصف السادس بامتياز. ثم اكتشفت والدته أن أخاه وأخته من بعده يعانون هم أيضاً إعاقة سمعية.

عند كل إجازة صيف كانت العائلة تسافر إلى أمريكا لحضور جلسات التخاطب التي تتم باللغة الإنجليزية طبعاً. فالمهم هو فتح الطرق في المخ للتخاطب خاصة إنهم أطفال عاديون ولا يعانون أية إعاقة ذهنية».. وكانت متفائلة بوصولهم إلى الجامعات والحصول على شهادات عليا من خارج المملكة.. لأنه وإلى اليوم لا توجد برامج في المملكة لمن يعانون إعاقات سمعية.. لذا تم إرسالهم إلى مدارس داخلية ببريطانيا، وبعد إتمام الثانوية التحقوا بالجامعة بأمريكا، وهم الآن يحملون شهادات البكالوريوس من هناك.

فكرة وهدف: مركز «جش»

في غمرة الشعور بالألم والقهر واليأس فكرت سلطانة في أن كل هذه المعاناة ما هي إلا امتحان، وربما اقتضت إرادة الله ذلك لتومض فكرة تأسيس مركز على غرار المركز الذي قدَّم لهم العلاج والجلسات في أمريكا.

تأسس مركز «جش» بعد التعاقد مع الدكتورة فريدا ويلسون وزوجها الدكتور جوني ويلسون وهما أخصائيا تخاطب كانا يعملان بجامعة الملك سعود في الرياض. كانت د. فريدا هي المديرة الفعلية للمركز ولمدة ست سنوات تعلمت منها السيدة سلطانة أساليب الإدارة وكل ما يتعلق بالمركز، الذي أدرج فيه صندوق لإعانة المرضى غير القادرين على دفع رسوم العلاج، وبعد بحث حالة المريض الاقتصادية يعفى من دفع نسبة من الرسوم ويتكفل هو بما تسمح به حالته المادية. وبالإضافة إلى حالات ضعف السمع يعالج المركز حالات أخرى كانخفاض نسبة التركيز وفرط الحركة وضعف اللغة والقراءة عند الأطفال، وعدد آخر من الاضطرابات المشابهة. وتفخر السيدة سلطانة بحصولها على شهادة الجمعية الأمريكية للنطق والسمع «ASHA» لجهودها المتميزة في هذا المجال إضافة إلى شهادات أخرى على المستوى المحلي.

ألا ليت الشباب..

عندما بلغت السيدة سلطانة الـ 41 ذهبت لحضور اجتماع للأهالي بالجامعة التي سيلتحق ابنها بها، وتمنت في ذلك الوقت أن يعود الزمن إلى الوراء لتكمل هي دراستها الجامعية.. وعند حضور الاجتماع علم مدير الجامعة بظروف عملها ومسؤولياتها وأنها لم تحصل على الشهادة الجامعية، فعرض عليها الالتحاق بالجامعة بنظام الانتساب. وفعلاً التحقت بالجامعة وحصلت على البكالوريوس في علوم السلوكيات وكان موضوع البحث عن الإعاقة السمعية بالمملكة العربية السعودية عند الأطفال واحتياجاتهم من الرضع وحتى سن 12 سنة، وتم اجراء البحث بمدارس الأمل.

لا ماشي.. ولا عادي!

السيدة حميدة علي رضا ابنة عم السيدة سلطانة وأرملة أخيها كانت من أكثر الأشخاص الذين أثروا في حياتها.. فقد توفي زوجها وهي ما زالت في الرابعة والعشرين من العمر تاركاً لها ثلاثة أطفال أكبرهم لم يتجاوز السادسة من العمر وأحدهم معاق سمعياً.. وكانت هي المسؤولة عن كل ما يخصهم، لذا كانت أمنية سلطانة أن تصبح ربة منزل، لا مديرة مركز ولا أي شيء من هذا القبيل، ويكون لديها ثمانية أطفال مسؤولة عنهم وتعتني بهم. أما بعد افتتاح المركز فقد تأثرت بطريقة زوجها في العمل، كما تعلمت منه هو والدكتورة ويلسون وضع مستوى أداء عالٍ جداً وعدم القبول بأقل منه. (أما كلمة «ماشي» و «عادي» فهي غير مقبولة أبداً ويجب أن تمسح من القاموس العربي فبها لن يصبح الأداء «لا ماشي ولا عادي» وإنما أسوأ ما يمكن) مثلما تقول.. وهي تعتبر نفسها إنسانة كانت بلا طموح ولم تكن متفوقة في المدرسة بسبب الكسل وعدم بذل الجهد، أما الآن فقد تغيرت حياتها كثيراً بعد اتباعها هذا الأسلوب، فإن لم تكن متأكدة من أنها ستؤدي العمل كاملاً فتفضل ألا تقوم به مطلقاً.

بدون اعتراض..

الشيء الوحيد الذي تتمناه السيدة سلطانة هو فتح برامج بكالوريوس وماجستير ودكتوراة في مختلف مناطق المملكة. فمستوى الإعاقة هنا يماثل مستوى الإعاقات في الخارج، ومن دون هذه البرامج لا يمكن عمل الأبحاث اللازمة للوقاية ولتفادي هذه المشكلات بالإضافة إلى احتياج المجتمع لوسائل علاجية وتشخيصية باللغة العربية.. ومن ناحية أخرى تتمنى فتح المجال لعمل المرأة المهيأة أصلاً للعمل في هذا المجال الذي يتطلب العطف والحنان والإحساس بالأمومة ويتلاءم مع ديننا وطبيعة مجتمعنا من دون اعتراض من أحد.

وقد بدأت السيدة سلطانة محادثاتها مع الجامعات وهي تعرض عليها المساهمة في إنشاء هذه البرامج والتعاون مع الجمعيات المتخصصة في كندا وأمريكا للاستفادة من خبرتها لتستكمل بذلك المشوار الذي خدمت به شريحة كبيرة من المجتمع والذي بدأته في لحظة تفكُر.



هم ورثة فخر قريش وسنام شرفها بين القبائل العربية، وسدنة الحجاج والمعتمرين في مناسك بيت الله العتيق والمشاعر المقدسة. وإذا كان الحج مفتاح مكة، فالمطوفون هم مفاتيح شعائر الحج، وترجمان كل غريب لبَّى نداء خليل الله إبراهيم. لا يكاد يخلو بيت من سكان أقدس بقاع الأرض إلا وفيه قلوب تشتاق إلى طلائع الحجاج، والتشرف بخدمتهم منذ ابتسامة الوصول وحتى دمعة الوداع. عمر المضواحي* يروي لنا هذه الحكاية المكية الخالصة، وإليه تضيف القافلة بعض الإسهامات التي تتناول جوانب أخرى من مهنة الطوافة وعالمها الخاص.

الطوافة

* صحافي سعودي



المطوفون حكايات مكّية، تفاصيلها منسوجة في ذاكرة كل من قصد الكعبة المشرَّفة حاجاً كان أو معتمراً. حكايات روحانية بيضاء كملابس الإحرام، نقية كنقاء ماء زمزم، عطرة كأستار البيت العتيق. والطوافة أعرق المهن وأقدمها، قديمة قدم شعيرة الحج منذ أن وجه الله سبحانه الخليل (عليه السلام) بأن يؤذن للناس في الحج. يقول المطوف عبدالواحد برهان سيف الدين: «هذا الأذان تردد عبر التاريخ، وكان له صدى استجابة بعد أن عمرت مكة، وبدأت رحلة الحج على مذهب الخليل، وبدأ الناس يحجون إلى بيت الله وبالمناسك التي أقرت آنذاك قبل الإسلام. وتفاعل المجتمع المكي مع الحج، فكان يقدم يد المعونة للحجاج، حتى أصبح الأمر مفخرة للمكيين على سائر سكان المعمورة».

ويضيف سيف الدين، وهو رئيس مجلس إدارة مؤسسة مطوفي حجاج الدول الإفريقية غير العربية: «لكن بداية تبلور مهنة الطوافة بشكلها المعروف حالياً جاءت عندما ازدادت أعداد الحجاج غير الناطقين باللغة العربية، من الذين يغلب عليهم عدم معرفة أداء مناسك الحج».

بداياتها وتاريخها القديم

وحقيقة الأمر أن المؤرخين اختلفوا في تعيين البداية الحقيقية لمهنة الطوافة، فمنهم من قال إن الطوافة بدأت في زمن الإسلام بمعناها المطلق للدلالة والإرشاد الديني أثناء الحج، عندما نصَّب الرسول (صلى الله عليه وسلم) أبا بكر الصديق (رضي الله عنه) أميراً على الحج. ومع انتشار الإسلام واتساع بقعة العالم الإسلامي جغرافياً وازدياد أعداد الحجاج وتعدد لغاتهم وحاجاتهم، بدأ كل بلد إسلامي في تعيين أمير على حجه، يأتي بالحجيج إلى مكة في كل موسم. وفي عصر المماليك، عيَّن أمير مكة لكل من هذه البعثات مرافقاً محلياً من الشخصيات المرموقة في مكة لكي يرشدهم خلال الموسم، وكانت هذه هي المرة الأولى التي ظهرت فيها المعالم المهنية للطوافة وأخذت بعداً وظيفياً محدداً».

الطوافة الحالية: عثمانية البدايات؟

لكن المؤرخ المكي الشيخ عاتق البلادي يرى أنها «لم تكن معروفة في العهود الإسلامية السابقة. لا في صدر الإسلام ولا في الدولة الأموية أو العباسية، ولا في العهد المملوكي». مشيراً إلى أن «ظهورها على أيدي الأتراك إبان حكم الدولة العثمانية عندما كانوا يأتون إلى مكة، يستعينون ببعض العلماء للقيام بمهمة طوافة كبارهم. فأخذها عنهم أهل مكة، وشرعوا بعدها بتطويف أصدقائهم ومعارفهم القادمين للحج أو العمرة، إلى أن تحولت في النهاية إلى مهنة تعدُّ من أهم المهن حالياً في مكة المكرمة».

وخلص المؤرخ البلادي إلى اعتقاده بأنها بدأت في القرن العاشر الهجري بعد أن احتل الأتراك البلاد العربية ومن ضمنها منطقة الحجاز، مستدلاً على قوله بأن «هناك كماً هائلاً من القصص التي وردت في أدب رحلات الحج يصف فيها الرحالة دور المطوفين في رحلاتهم إلى مكة والمدينة، وهي مدونة كشذرات في كثير من الكتب والتصنيفات». لكن الدكتور حسن بن علي مختار عضو مجلس الشورى السعودي يرى من جانبه أن مهنة الطوافة لم تكن طارئة على أهل مكة المكرمة «بل إنها امتداد تاريخي منذ أن استُوطِنت هذه الأرض المقدسة والمعروفة في التاريخ الإسلامي برحلة إبراهيم عليه السلام مع ابنه إسماعيل وزوجه هاجر، الذي استجاب لأوامر الله له ببناء الكعبة وجعل البلد الحرام مقصد الحج، وتوارث سكان مكة آنذاك من قريش القيام بهذه الخدمات، ووزعت بينهم المسؤوليات فمنهم من كُلِّف السقاية والرفادة، ومنهم من قام بالحجابة والإيواء، ومنهم من كان مسؤولاً عن حماية وأمن الحجيج».

وبالعودة إلى المطوف سيف الدين، فهو يؤكد أن «الوثائق العثمانية تشير إلى أن حاكم مصر في العهد العثماني عندما قدم إلى مكة قابله قاضيها آنذاك، وعلمه الطواف ومناسك الحج والعمرة. وعندها بدأت الدولة العثمانية بتنظيم هذا الموضوع. وبدأت تخصص العلماء في تولي خدمة فئات معينة من الحجاج، وبعدها أصدرت أوامرها (فرمانات) بعضها من الباب العالي، والبعض الآخر من أمير مكة، ليتم بموجبها تخصيص شخص معين لكل بلد معين، ووضعت تنظيمات لمعرفة هذا الشخص وكيفية التعامل معه منذ وصول حجاج تلك البلاد وحتى مغادرتهم».

التعامل يرتقي إلى الود وحتى المصاهرة

وزاد سيف الدين: «هذا التنظيم ظهر جلياً في المدن التركية حتى أنه لم تعد توجد قرية أو مدينة تركية إلا وهي موزعة على مطوف أو أسرة معينة في مكة تتوارث خدمة حجاجها. وأنشأت هذه التعاملات علاقة ودية بين المطوف وبين حجاجه قد تصل إلى المصاهرة والرحم. وفي المقابل، كان بعض المطوفين يزورون الحجاج في بلادهم، وكانوا يعتبرون زيارة المطوف لبلادهم شيئاً عظيماً يفخرون به، كونهم قدموا من مكة المكرمة، وتحملوا

مشـاق السفر وتعبه للوصـول إليهم». مبيناً أن التنظيمات تتابعت حتى «وضـعوا لها مشـيخة ويتولى شيخ المطوفين عملية إبلاغهم بالمعلومات والتعليمات، وحل مشـكلاتهم مـع الحجـاج. وكان يُعيَّن مـن قبل أمير مكة، ويرد اسـمه وأسماء المطوفين في «السرنامة» التي تصدرها الحكومة التركية والتي ترصد فيها أسماء كل موظفي الدولة في كل ولاية من ولاياتها».

صورة الشخصية المكية

والمتابع لتاريخ مهنة الطوافة، كونها أهم المهن التي يفضلها المكيون، وظلت لسـنوات مصـدر الدخل الوحيد لهم، يجد دوراً واضحاً وتأثيراً حاضراً لهذه المهنة وبشكل مباشر في ثقافة المجتمع المكي. وسـيقف المتابع على شـواهد وافرة في أن المطوفين كانوا رافداً مهماً في التعريف بالشخصية المكيـة قديمـاً، وبعاداتهـا وتقاليدها وبالخصـائص التي تتميز بها من خلق وقيم وآداب وفضـائل تحكم سلوكها، إلى جانب الحرص على التعريف بآثار مكة ومعالمها المقدسة، وتراثها التاريخي والأدبي والاجتماعي، لكل من قصـد مكة حاجاً كان أو معتمراً.

ويقول الدكتـور بكر أحمد باقادر، أسـتاذ علـم الاجتماع في جامعـة الملك عبدالعزيز في جدة: «تتميز شخصـية المكييـن فـي قبـول الآخـر والانفتـاح عليـه، والدعـوة إلـى حـواره، بدرجـة رفيعـة مـن التسـامح والتعددية». ورصـد المستشـرق الهولندي الدكتور كريسـتيان سنوك هورخرونيـه الذي أقام في مكة وجدة عاماً كاملاً (1884 – 1885 ميلادية) أن عرب مكة «أذكياء، لطيفو المعاشرة والتخاطـب، مجاملـون، متأدبون، مع احتفاظهم بشـعور العزة والكرامة، يستضيفون ويضـيِّفون» وأنهم «يكرِّسون جهودهم لحياتهـم الاجتماعية، وأن الذي يراقب حياتهم عن كثب يجد، بجانب الخشـونة والفظاظة عند بعضهم، أناساً نبلاء المعشـر، كريمي الصـفات، أتقياء ذوي ورع وصلاح».

ويقـول الكاتب عبدالله محمد أبكـر: إن العلاقة بين الحاج ومطوفـه لـم تكن علاقـة عابرة تقـوم على خدمـة بمقابل وينتهـي كل شـيء. بـل كانت علاقـة روحية يستشـعر فيها الحاج أن مطوفه هو من بقية السـلف الصالح». وفي حديثه لـ «القافلة» ذكر أنه استعان برجالات مكة ومنهم المطوفون للنقـل عنهم وإلقاء الضـوء علـى الصـور الاجتماعية التي تبرز حضـارة مكة وثقافتها العالمية الموغلة في القدم عند تأليفه كتابه القيم «صـور من تراث مكة المكرمة في القرن الرابـع عشـر الهجـري» لينقل عنهـم تاريخ مكـة المكرمة بصـورها الحية، وذكرياتها الدينيـة والعلمية والاجتماعية والاقتصادية الزاخرة بأخبار السنين الخوالي.

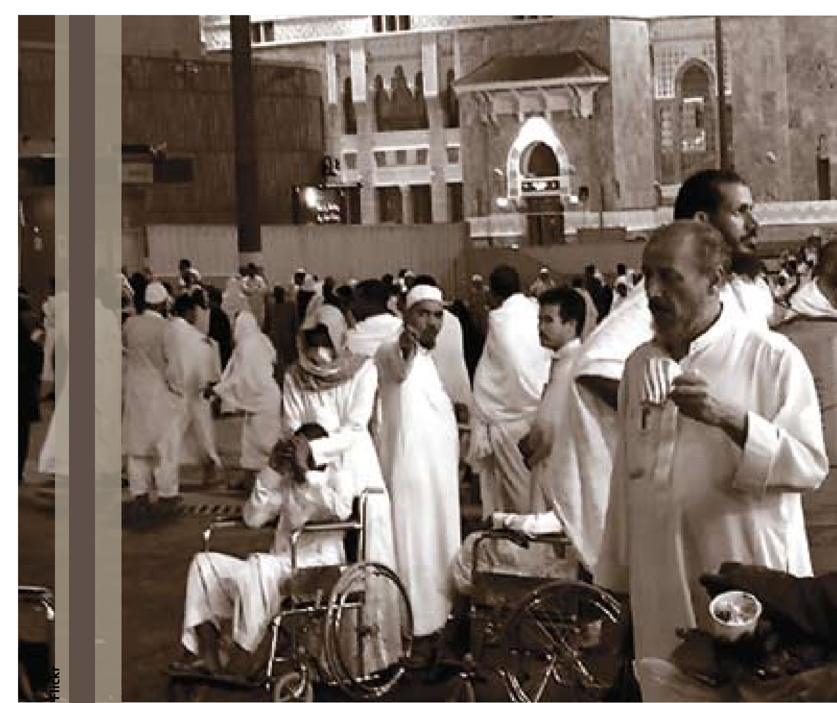
ولعب المطوفون دوراً مهمـاً في إثراء الحياة الثقافية في مكة المكرمة، ومن الشـواهد على ذلك ما رصده فضيلة الأسـتاذ الدكتـور عبدالوهاب بـن إبراهيم أبو سـليمان عضـو هيئة كبار العلماء السعودية، عندما عدَّ المطوفين كأحد روافد توافر الكتب في مكة في القرن الرابع عشـر الهجـري. وذكـر أنه نظراً لكـون «بعضـ المطوفين على

المطوف والطوافة

اشتق اسم المطوف -ومؤنثه مطوفة- من أصل الفعل طاف/يطوف. والطائف هو من طاف حول الكعبة المشرفة سبعة أشواط. والطائفة هي الجماعة من الناس، ومنها جماعة المطوفين. والملاحظ بحسب كلام الدكتورة فاتن حسين أن كلمة (طوافة) على وزن فعالة والتي تطابق في الوزن كلمات مثل (رفادة، وفادة، سدانة، سقاية) وهي مهن وجدت في قريش قبل الإسلام، كما أنها على وزن تجارة وصناعة وزراعة، وهي مهن متنوعة. ويمكن تعريفها بأنها المهنة التي يقوم بها الشخص الذي يستقبل الحجاج الوافدين إلى مكة ويقوم على خدمتهم. حيث يستضيفهم ويرشدهم في طوافهم وسعيهم ويعينهم على أمور دينهم وأداء مناسكهم. ويؤمِّن لهم الراحة والطمأنينة منذ ساعة قدومهم إلى حين مغادرتهم البلاد المقدسة.

ويساعد المطوفون وكلاء لهم في جدة، لأنها تمثل البوابة الرئيسة التي يلج فيها الحجاج إلى أراضي المملكة ويقدم هؤلاء الوكلاء خدمات الاستقبال وتحصيل أجور نقل الحجاج إلى مكة المكرمة أو المدينة المنورة، وتقديم كافة التسهيلات المطلوبة. كما يعاون المطوف الزمازمة الذين يقدمون ماء زمزم يومياً إلى الحجاج في مقر إقامتهم وفي المسجد الحرام منذ قدومهم وحتى مغادرتهم.

أما الإدلاء جمع (دليل) فيقدمون خدمات متكاملة في المدينة المنورة للحجاج من إسكان وإعاشة وترحيل وزيارة المسجد النبوي وغير ذلك من الخدمات التي تعتبر مساندة لما يقوم به هؤلاء تجاه الحجاج، وهنا تجدر الإشارة إلى أن المطوِّف هو الذي يختار من يكون له وكيلاً في جدة أو دليلاً لحجاجه في المدينة المنورة أو الزمزمي الذي يقدِّم ماء زمزم إلى حجاجه القادمين باسمه.



حجاج من كل فج عميق



ومطوفان لحجاج ملاوي

علاقة قربى، وصلة رحم ببعض أصحاب المكتبات (في العالم الإسلامي) فهم يوصونهم بإحضار بعض طلباتهم من الكتب، وغالباً ما تكون من الكتب النادرة». واستدل بدور أحد المطوفين في هذا المجال في قوله «من مطوفي المغاربة المشهورين فضيلة الشيخ إسماعيل جمال حريري -رحمه الله تعالى- كانت تربطه علاقة قوية مع العلماء، وطلاب العلم، وأصحاب المكتبات، فكلما عزم على السفر إلى المغرب عرض خدماته على أولئك، وكثيراً ما كان يوفق في إحضار ما يريدون من الكتب المهمة».

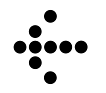
صورة من استقبال المطوفين للحج والحجيج

يقول المطوف عبدالواحد برهان سيف الدين، رئيس مجلس إدارة مؤسسة مطوفي حجاج الدول الإفريقية غير العربية: إن الطوافة وخدمة الحجاج من أوائل القطاعات التي استفادت من خدمة (البرقيات) عندما بدأ استخدامها في المملكة. فبمجرد وصول الباخرة إلى ميناء جدة يبرق الوكلاء للمطوفين في مكة عن وصول الحجاج من أية جهة قدموا وعددهم. وإذا وصل الحجاج عن طريق البر سواء ضمن القوافل أو راجلين على الأقدام، فإنه يوضح ذلك في برقيته ويصف طريقة وصول الحجاج. ثم يضع في البرقية بعض التفاصيل يوضح فيها للمطوف بعض المعلومات التي يحتاجها ليتم الاستعداد لاستقبال الحجاج القادمين بحسب احتياجهم وطلباتهم المتعارف عليها عاماً بعد عام.

ويذكر سيف الدين أن المطوفين كانوا يجتمعون في بداية الموسم في حي البيبان (غرب مكة على الطريق المؤدي إلى جدة)، ويرسلون مندوبين عنهم لاستقبال الحجاج عند دخولهم حدود مكة. ويضيف: إن خدمة البرقيات كان لها أثر كبير جداً. لأن دخول الحج ليس سهلاً، حيث يصل الحجاج بعد رحلة شاقة ومتعبة، ووصولهم يغير الحياة كلها في مكة، ويتفاعل كل أهل مكة معهم.

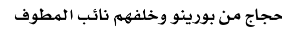
ويصف سيف الدين صورة يفتقدها الآن حول كيفية استقبال المطوف الحجاج بقوله: «كان لكل مطوف مجلس خاص خارج بيته (مركاز) أو في أول مدخل الحارة، حيث يجلس مع أصدقائه لتمضية الوقت. وعندما يتأخر وصول الحجاج في أول الموسم يحتار المطوف ويظل شارد الذهن، ويفكر في إن كان سيأتي أحد من الحجاج إليه أم لا في هذا الموسم، إذ كانت وسائل الاتصال محدودة.

وفي المقابل عندما تصل برقية إلى أحد المطوفين، يحملها مراقب البرقيات ويأتي بها مسرعاً. وعندما يصبح على مقربة من مركاز المطوف يرفع صوته قائلاً: «البشارة ياالشيخ.. البشارة ياالشيخ.. جايبلك برقية من وكيلك في جدة». وعندما يسمع المطوف اسمه ينشرح صدره من البشارة. فيبدأ الناس في الحارة يباركون له ويرددون «قدوم خير ياالشيخ قدوم خير إن شاء الله»، وتصدح زغاريد النساء من خلف الرواشين فرحاً بقدوم الحجاج. ومن دون أي تردد، يخرج المطوف لا شعورياً كل ما في جيبه ويعطي صاحب البشارة بشارته ويزيد في إكرامه.



حجاج في بيت مطوف





حجاج من بورينو وخلفهم نائب المطوف

وحجاج آسيويون

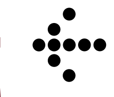
from book: Makkah a Hundred Years Ago

يقول المطوف عبدالواحد سيف الدين: إنه عندما يصل الحجاج إلى مكة المكرمة، يبدأ المطوف بأخذهم للدعاء وهم مستقبلو القبلة، ويرفع الجميع أيديهم في خشوع مرددين خلفه «اللهم اجعل لي بها قراراً وارزقني منها حلالاً، اللهم إن الحرم حرمك والبلد بلدك والأمن أمنك والعبد عبدك، جئتك بذنوب كثيرة وأعمال سيئة، أسألك مسألة المضطرين إليك المشفقين من عذابك أن تستقبلني بمحض عفوك وأن تدخلني فسيح جنتك جنة النعيم، اللهم إن هذا الحرم حرمك وحرم رسولك فحرِّم لحمي ودمي وعظمي على النار». وبعد أن يكمل دعاءه يصلي الجميع على النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) وهم يمسحون على وجوههم. ثم يأخذ المطوف الحجاج إلى داره ليقدِّم لهم واجب الضيافة. وبعدها يطلب من ضيوفه تجديد وضوئهم في البيت أو يقوم بأخذهم إلى بئر طوى في حي جرول الذي اغتسل فيه النبي محمد (صلى الله عليه وسلم). ثم يأخذ المطوفون حجاجهم من بيوتهم في مختلف الأحياء، ويمشون كمجموعات يرافقهم أبناء وبنات المطوف اللائي كن يسرن في المؤخرة مع النساء. ويحمي هذا الموكب صبيان المطوف الذين يخرجون معه خوفاً من أن يتوه حاج أو تتخلف امرأة عجوز عن الركب وغير ذلك. وطوال المسيرة إلى المسجد الحرام، يردِّد الجميع الدعاء والتلبية بصوت جهوري يتردد صداه في جنبات الأحياء. ومع خروج أفواج الحجاج خلف مطوفهم يبادر الأهالي في الأسواق والمنازل والطرقات بتهنئة المطوف ببدء الموسم بصوت مسموع (قدوم خير يا شيخ فلان) حتى وصولهم إلى أبواب المسجد الحرام.

عند مشاهدة الحجاج البيت العتيق تفيض أعينهم بالدموع، وتنتابهم رعشة خشوع فيرفع المطوف صوته داعياً بدعاء رؤية المسجد الحرام «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، أعوذ برب البيت من الفقر ومن عذاب القبر وضيق الصدر، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، اللهم زد بيتك هذا تشريفاً وتكريماً وتعظيماً ومهابة ورفعة وبراً وزد يارب من كرَّمه وشرفه وعظمه تشريفاً وتعظيماً ومهابة ورفعة وبراً».

وعادة ما يدخل الحجاج من باب السلام عند قدومهم لأداء طواف القدوم. وبعد أداء الطواف والصلاة يعود المطوف بالحجاج إلى بيته إذا كان عددهم بسيطاً. حيث يقيمون معه في داره ومع أهل بيته، ويتصرفون وكأنهم من أهل البيت، حيث يشترك الجميع في تناول وجبات الطعام معاً.

ويذكر المطوف سيف الدين أن والده -رحمه الله- كان يستضيف الحجاج القادمين مبكراً عن موسم الحج في بيته، «حيث يحضرون معنا كل مناسبات الأفراح والأتراح، بل إنهم كانوا يعتبرون أنفسهم أفراداً في أسرة المطوف، ولا يترددون في شراء مقاضٍ للبيت أو حطب للمطبخ، أو حتى علف للأغنام التي كانت تُربى في أحواش صغيرة ملحقة بالبيوت». كما أن الحجاج عادة ما يجلبون معهم أمانات، أو مبالغ مالية من حجاج اقترضوها من المطوف في الموسم السابق عندما نقصت عليهم النفقة، أو هدايا يرسلها بعض حجاج أو حاجات الموسم السابق للمطوف وأسرته. فهذه الهدية له من فلان، وتلك لابنه فلان، وأخرى لابنته فلانة، وأيضاً لزوجته، وهكذا. وهي هدايا رمزية عادة ما تكون من منتجات بلادهم كقطع الأقمشة أو حلويات أو غيرها، وبرغم رمزيتها إلا أنها ذات معنى كبير تؤكد مدى العلاقة بين المطوف والحجاج في الزمن السابق.



شقائق المطوفين.. المرأة المكية في خدمة ضيوف الرحمن

مهنة الطوافة من المهن التي تعتبر مشاركة المرأة فيها أمراً ملحاً نظراً لأن أعداد النساء الحاجات قد يصل إلى مستوى أعداد الرجال. وهؤلاء بحاجة إلى من يرشدهن ويوجههن لأداء المناسك وإلى من يسهر على راحتهن ويوفر لهن احتياجاتهن الخاصة وفي حالة مرضهن إلى من يطببهن.

وتؤكد الدكتورة فاتن، وهي ابنة مطوف ومؤلفة كتاب أعلام الطوافة «المطوفات.. دراسة استقصائية» أن المرأة عملت في مهنة الطوافة في المراحل التي سبقت «مرحلة المؤسسات» وكان يحق لها توريث المهنة لأبنائها. ورصدت في كتابها أسماء عدد من النساء المكيات اللاتي حصلن على صكوك (فرمانات) يحق لهن بموجبها ممارسة مهنة الطوافة لبعض البلدان، مثل السيدة جميلة حمامي، ورقية سالم باشا، وبنات الحناوي، وابنة عبدالقادر نصير، وجميعهن كن مطوفات لبلدات في آسيا الصغرى.

مَهَمَّاتُهن

وقالت في حديث لها مع «القافلة»: إن زوجات وبنات المطوفين كن يتولين القيام بمهام كانت توكل إليهن من خلال آبائهن أو من يقوم مقامهم من المطوفين في ذلك الوقت. ومن أبرزها استقبال الحجيج وتقديم واجب الضيافة وتحضير الأطعمة وإعداد الأصناف التي كانوا يأكلونها في بلادهم زيادة في إكرامهم، وتوفير ماء زمزم البارد، وتأمين السكن وتهيئته إلى جانب الذهاب مع النساء إلى الحرم للتعريف بأماكن معينة داخله، والسعي لخلق تواصل بين الحاجات وإشعارهن بأنهن يعشن في وطنهن وبين أسرهن. مشيرة إلى أن أميرة بهوبال في حجها إلى مكة في نهاية القرن التاسع عشر ذكرت كيف أنها وجدت صحبة نساء المطوف في غاية المتعة والأهمية لأنها تقوم على حسن المعاملة والرفقة الطيبة. كما أن المطوفات يقمن أيضاً بتأمين حاجيات الحجيج ومرافقتهم في التسوق إلى جانب الدور التوعوي الذي تقوم به المطوفة من خلال الندوات والمحاضرات الدينية. وأكدت أنه كلما كانت معاملة المطوف وأهله للحجاج معاملة إنسانية كريمة ذاع صيته بين الحجاج وكثر حجاجه. لأن ذلك يمثل أكبر دعاية له بينهم فيتضاعف الإقبال عليه في المواسم اللاحقة.

العربية حج اللغات!

تماماً، كما تجمع عرفة الحجيج بكل أعراقهم وألوانهم ولغاتهم على صعيدها الطاهر، تجمع اللغة العربية بينهم في موسم الحج. ويحرص معظم الحجاج على تعلم نطق الكلمات العربية البسيطة التي تسيِّر حياتهم اليومية في رحلة الحج لتكون اللغة المتفق على اعتمادها في التخاطب بينهم نظراً لتعدد لغاتهم، معتمدين على معرفتهم بقراءة القرآن الكريم في صلاتهم.

وفي المقابل، تعلم أهالي مكة خصوصاً المتعاملين مع الحجاج لغاتهم. فتجد كثيراً من الباعة في الأسواق يعرفون العد والحساب والمحادثة بأكثر من لغة ليسهل لهم كسب ثقة الحجاج الناطقين بها وإقناعهم بالشراء منهم. كما أن النسيج الاجتماعي في مكة يشتمل على عائلات أكرمها الله بالجوار والإقامة في مكة منذ زمن طويل، فتجد منها عائلات تعود أصولها إلى الهند أو إفريقيا أو الصين وغيرها. وعادة ما يكون أبناؤها يتقنون أكثر من لغة بفضل مخالطتهم بعضهم بعضاً في مكة، وكان المطوفون ولا يزالون يستعينون بهم كمترجمين لهم في بعض الأحيان أو كمندوبين في التواصل مع الحجاج أو في أداء الأمانات أو إرسال رسائل معينة إلى الحجاج في بلادهم.



Flickr



في مكة المكرمة للحج إلى بيت الله الحرام



من حكايات الطوافة

كانت الطوافة في عهد المماليك مقتصرة على القضاة في مكة. ثم انتقلت في العهد العثماني إلى أعيان البلد المتفقهين في الدين. ومنهم إلى طلبة العلم الذين كانوا يأتون إلى مكة، فيستضيفهم وجهاؤها ويعينوهم على التفقه في الدين. كان هؤلاء المقيمون من جنسيات كثيرة، بعضها عربي، وبعضها الآخر من بقية الدول الإسلامية. ولذلك، كانت الطوافة في بداياتها تعتبر من مهن الصف الأول، ويمارسها المنتمون إلى طبقة الأشراف والحكام والأمراء وعلية القوم. ثم تحولت تدريجياً لتصبح في متناول كل طبقات المجتمع.

وكانت تقاليد المهنة تقتضي بدايةً ألا يمارسها إلا أبناء الطوافة، وتورث بالتالي من السلف إلى الخلف. ومن ذلك ما ذكره السيد عبدالرزاق حمزة، مستشار وزير الحج والأوقاف السابق، في حديثه إلى «القافلة» عن مطوفي بلاد الجاوة والهند وغيرها من البلدان الإسلامية. فقد كان المطوف منهم يحرص على تعليم أبنائه لغة الحجاج الذين التزم بتطويفهم، إعداداً لهم ليكملوا المسيرة من بعده. وكان المطوفون يشذون عن هذه القاعدة في حال خدم عندهم أحد الصبيان مدة 15 سنة متواصلة، وأراد بعدها أن يكون مطوفاً مستقلاً برضا وطيب نفس معلمه. وقتها، تجتمع جماعة من المطوفين ليشهدوا له بأنه قد خدم عند مطوفه كصبي طواف مدة خمس عشرة سنة متواصلة، ثم تتجه هذه المجموعة إلى رئيس المطوفين وبحضور هيئة أمناء المطوفين ليدلوا بشهادتهم ويزكوه. فإن حاز رضاهم، خرج من عندهم مطوِّفاً مستقلاً.

ومن تقاليد مهنة الطوافة، يقول السيد عبدالرزاق حمزة: إن المطوف يرتدي عِمّة لتميزه عن بقية الحجاج. وإذا كان الحاج عظيم المنزلة، قام المطوِّف نفسه بتطويفه، فإن كان أقل من ذلك قدراً، طوفه ابن المطوف. أما إن كان الحاج من عامة الناس، فإن أحد صبيان الطوافة هو من يقوم بتطويفه. ويذكر السيد عبدالرزاق أن معظم المطوفين كانوا يعتمدون اعتماداً كاملاً في رزقهم على ما تأتي به طوافتهم للحجاج. ذلك أن الحجاج كانوا يأتون قبل شهر الحج بمدة طويلة. فالباخرة الهندية مثلاً كانت تأتي بحجاجها في شهر رجب، وتعود لأخذهم بعد ثلاثة أشهر من انتهاء موسم الحج. وفي نصف السنة الآخر، وهي الفترة التي تسمى بفترة «البصارة»، حيث لا يشغل الحجاج أرض مكة، كان المطوفون يشتغلون بإصلاح البيوت التي تستقبل الحجاج وغيرها من الأمور استعداداً لفترة الحج. وكانت عادة المطوفين منذ أن بدأت مهنة الطوافة الالتزام بإكرام الحاج وتولي تيسير إقامته من دون تحديد لرسم معين يدفعه الحاج، بل كان الحجاج في نهاية زيارتهم يجتمعون ليفرش أحدهم «وعادةً ما يكون حاجاً سبق له الحج ويسمون بالمعاودين» منديلاً أو قطعة قماش بيضاء، ويدعو زملاءه لإكرامية المطوف، كلٌ بما تجود به نفسه، ابتداءً من جنيه واثنين وحتى الخمسة والعشرة جنيهات. ومن الحجاج من لم يكن يستطيع دفع شيء، فيغطي على عوزه كرم زملائه. واستمرت هذه العادة تقليداً متبعاً حتى صدر القانون بتعرفة الحجاج في عام 1326هـ، وجاء فيها أن الحاج الجاوي يدفع جنيهاً عثمانياً أجرة مسكن بمكة، وعشرة



جنيهات هندية يدفعها الحاج من الهند لمطوفه، وخمسة ريالات مجيدية لأهل الصعيد وغزة والعراق وما إلى ذلك.

ويذكر السيد عبدالرزاق وقتاً كان نصف الحجاج يأتون بالسيارات ونصفهم الآخر على الجمال، فتمتلئ مكة بالجمال، ويصل رغاؤها إلى بيوت مكة. ويُروى عن أحد الحجاج المغاربة، أن الحجاج كانوا يخافون المبيت في مزدلفة خشية أن تدهسهم حوافر الجمال، بينما هم نيام، من كثرتها.

ومن ذكريات السيد عبدالرزاق، ما رواه في معرض حديثه عن دعاية المطوفين لأنفسهم، حيث كان كل مطوف يرسل خطابات تهنئة بشهر رمضان المبارك وعيد الفطر إلى كبار الحجاج من البلد الذي التزم بتطويف حجاجه. وكان البعض منهم يزورون البلد للدعاية لخدماتهم وحث الناس على الحج، وكانوا يجدون إكراماً وفرحة بهم، كممثلي البلد الكريم، مكة المكرمة. وكان بعض المطوفين يقبل باستضافة عشرة من الحجاج والتكفل بنفقاتهم، في حالة أن أتى من البلد خمسمائة أو سبعمائة حاج، مثلاً.

وأحياناً، يستعد المطوف لاستقبال عدد معين من الحجاج، فيعد لهم ما يكفيهم من مسكن وتحضيرات، ويفاجأ وقت الحج بحضور ضعف هذا العدد. وفي ذلك ما يُروى عن أن مجموعة من الحجاج الباكستانيين أرسلت إلى خادم الحرمين الشريفين، الملك فهد بن عبدالعزيز -يرحمه الله- وكان وقتها ولي العهد، برقية تقول: «نحن في كربٍ عظيم»، فأثارت البرقية ضجة، وظُن أن حريقاً قد وقع أو كارثة من هذا القبيل، فلما استدعى وزير الحج والأوقاف، عبدالوهاب عبدالواسع -رحمه الله- مطوف هؤلاء الحجاج، اتضح له أن المطوف كان قد اتفق مع هذه المجموعة على عدد معين من الحجاج، فأتاه ثلاثة أضعافهم، ولم يكن الوقت يسمح بتوافر مسكن أو إمدادات تتناسب مع عددهم الكبير. ووُجِه المطوف إلى القيام بما يلزم لتوافر الراحة لهؤلاء الذين يشكون «الكرب العظيم»!

أول بريطاني يزور مكة يصف لحظات وصول الحجاج إلى الديار المقدسة

جوزيف بيتس هو أول بريطاني يزور مكة المكرمة في التاريخ الحديث (1091 هجرية - 1680 ميلادية)، رصد مشاهد حول قوافل الحج وشعائره وصوراً عن مكة المكرمة والمدينة المنورة خلال زيارته لها متخفياً تحت اسم (الحاج يوسف) ليكتب عنها لأبناء جلدته الأوروبيين الذين كانوا يجهلون كل شيء عن المدينتين المقدستين عند المسلمين.

وفي كلمات بارعة وصف في مذكراته لحظة وصول قوافل الحجاج إلى مكة: بمجرد وصولنا إلى مكة، سار بنا الدليل في شارع واسع يتوسط البلدة ويؤدي إلى الحرم، وبعد أن أنخنا الجمال، وجهنا الدليل (المطوف) إلى حوض الماء للوضوء، ومن ثم ذهب بنا إلى الحرم فدخلناه من باب السلام (وقد تركنا أحذيتنا عند شخص موكل بها قبل الدخول)، وبعد اجتيازنا مدخلاً استغرق اجتيازه خطوات قليلة وقف الدليل (المطوف) ورفع يديه صوب بيت الله الواقع وسط المسجد الحرام، وحذا الحجاج حذوهورددوا وراءه الكلمات التي يقولها.

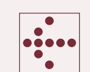
وعندما وقع نظر الحجاج للمرة الأولى على الكعبة فاضت عيونهم بالدموع ثم طفنا بالكعبة سبعة أشواط، ثم صلينا ركعتين، ثم قادنا الدليل إلى الطريق مرة أخرى، ورحنا نهرول وراءه تارة، ونمشي تارة أخرى من أحد طرفي الطريق إلى طرفه الآخر (يقصد السعي بين الصفا والمروة). ولا أملك إلا أن أعجب من هؤلاء الحجاج الذين يبدو عليهم التأثر الشديد والعاطفة الجياشة، وهم يؤدون هذه المناسك.. ولم أستطع إلا بالكاد أن أكبح دموعي من الانهمار عند رؤية حماسهم!..».

وفي المقابل وصف جوزيف بيتس لحظة مغادرة الحجاج مكة المكرمة في مذكراته بقوله «وفي المساء السابق لمغادرة مكة المكرمة، لا بد من طواف الوداع، فيدخل المرء من باب السلام، فيطوف قدر ما يستطيع وبعض الناس يظلون يطوفون حتى يعتريهم التعب (طواف الوداع، كطواف القدوم، كطواف دخول المسجد: سبعة أشواط) وتفيض عيونهم بالدمع لأنهم يودعون بيت الله، ويبدون حقيقة غير راغبين في مفارقته، ويشربون من ماء زمزم حتى الامتلاء، ويتراجعون إلى باب الوداع ووجوههم صوب بيت الله، وباب الوداع هذا مواجه لباب السلام.

وعند خروجهم من باب الوداع، يعقدون أيديهم تجاه بيت الله، فمن غير اللائق أن يولوا ظهورهم للبيت عند الوداع، ويظلون في حال بكاء وهم يدعون ويتوسلون إلى الله حتى يصلوا إلى بيوتهم».

الهجاء.. عرفناه موجهاً من شاعر إلى آخر، أو إلى حاكم على خلاف مع شاعر، أو حتى إلى قبيلة أو طائفة من الناس لسبب أو لآخر. ولكن، من الشعراء من صبَّ هجاءه على كل الناس وعلى مجتمعه بشكل عام من دون أن يستثني أحداً. هنا يجمع لنا عماد بو خمسين* عينات من أبيات لم ترحم أحداً في مجتمعات شعرائها. ورغم التنوع في الدوافع إلى نظمها، فإنها تبقى صورة عن الغربة التي لا بد للمثقف أن يشعر بها في وقت ما من أوقات عطائه.

هجاءُ الناس



عالمٌ خاصٌ يعيش فيه هؤلاء الشعراء، وغربةٌ عجيبة مع أنهم مقيمون بين أهليهم... ترى هل كانوا يظنون أنفسهم خيراً من بقية الناس لمجرد الغرور؟ أم أنهم قد أدركوا أنهم امتلكوا شيئاً نادراً جعلهم مختلفين ومتميّزين بين أقرانهم؟! إن المبدع إذا عاش بين قوم لا يعرفون قيمته ولا يقدِّرون فنَّه، ينتهي به المطاف غاضباً على مجتمعه محتقراً له. وإذا أضفنا لذلك حالة الغربة الذاتية التي يعيشها بعض الشعراء، فتَجِدُ أنهم قد وَجَّهُوا هجاءَهم للناس عامةً، ولم يَخُصُّوهُ بأشخاصٍ محدَّدين، كقول دعبل الخزاعي:

مَا أكْثَـرَ النَّـاسِ! لا بَـلْ مـا أقَلَّهُمُ
اللهُ يَعْلَـمُ أنّـي لَـمْ أقُـلْ فَنَدا[1]
إنّـي لأفْـتَـحُ عَيْنِـي حِيـنَ أفتَحُـهَا
علـى كثيـرٍ، ولَكـنْ لا أرَى أحَـدا

وكذلك أبو بكر الخالدي، الذي لم يكن يرى الناس كما نراهم نحن، بل بلغ احتقاره لهم أنه يراهم في صورة عجيبة، كأنهم نسخة مشوهة من البقر:

لا شيءَ أعْجَبُ عندي في تبايُنِه،
إذا تَـأمَّـلْـتُـهُ، مِـنْ هـذه الصُّـوَرِ
أرَى ثـيـابـاً، وفـي أثْـنـائِـهَـا بَـقَـرٌ
بـلا قُـرونٍ، وذا عَـيْـبٌ على البَـقَـرِ

وكذلك يفعل ابن المقرّب العُيوني، ويتأسَّى على حاله معهم:

يا ضَيْعَةَ العُـمْرِ في قَـوم تَخَالُهُمُ
نـاسَـاً، وَلا غَـيْـرَ أثْـوابٍ عَـلى صُـوَرِ
لو أنَّ ذا الحِلْمِ قَيْسَاً[2] حَلَّ بَينَهُمُ
لَـوَدَّ مِنهُمْ ذهَـابَ السَمعِ وَالبَصَرِ
ولَـوْ يُـعَـمِّـرُ نُـوحٌ فِـيهِـمُ سَـنَـةً
لَـقَـالَ يـا رَبِّ هَـذا غَـايَـةُ الـعُـمُـرِ

وأما المتنبي، الغارق في غربته الذاتية، فيشكو من سوء منظر الناس، وقبح أصواتهم:

كَـلامُ أكـثـرِ مَـنْ تَـلْـقـى ومَـنْـظَـرِه
مِمَّا يَشُقُّ على الآذانِ والحَدَقِ[3]

ويُظهر المتنبي سبب احتقاره للناس، فقد استشرى بينهم الفساد والأنانية، وانعدمت فيهم صفات الخير والمروءة:

أذمُّ إلـى هَـذا الـزَّمـانِ أهَـيْـلَـهُ
فأعْلَمُهُـمْ فَدْمٌ[4] وأحْـزَمُـهـمْ وَغْـدُ
وأكـرَمُـهُـمْ كَـلْـبٌ وأبـصَـرُهُـمْ عَـمٍ
وأسْهَـدُهُـمْ فَهْدٌ[5] وأشْجَعُهُمْ قِـرْدُ
ومِنْ نَكَدِ الدنيا على الحُرِّ أنْ يَرَى
عَـدُوّاً لَـهُ مـا مِـنْ صَـداقَـتِـهِ بُـدُّ

ترى هل يستحق العامة من الناس هذا الهجاء المقذع، أم أنه دليل على حالة القلق وعدم الانسجام مع الواقع التي يعيشها هذا الشاعر أو ذاك؟!!

ويَنصَحُ عُمَرُ الخيام بالابتعاد عن الناس، فمعرفتهم لن تجرَّ عليك سوى الذمِّ والويلات في كل الحالات. وسواءٌ كنتَ مُشتَهِرَاً بينهم أو هادئاً منطوياً على نفسك، أو كنت

* كاتب سعودي



طيباً فيهم أو شريراً، فلن تسلم من ألسنتهم:

إنِ اشْتُهِرْتَ، فَشَرُّ النَّاسِ أنتَ،
وإنْ انْزَوَيْتَ فقدْ عَانَيْتَ وَسْوَاسَا
لوْ كُنتَ خِضْراً وإلياسَاً، سُعِدْتَ بأنْ
لا تُعْرَفَنَّ وَأنْ لا تَعْرِفِ النَّاسَا

و هذا ما جعل الأُحَيْمِرَ السَّعدي، ينفر من الناس ومن ضجيجهم الفارغ، ولا يرى فيهم سوى الأذى والازدراء:

عَوَى الذئبُ فاسْتَأْنَسْتُ للذئبِ إذْ عَوَى
وصَوَّتَ إنْسَانٌ فَكِدْتُ أطِيرُ
يَرَى اللهُ إنّي لِلأنيسِ لَكَارِهٌ
وَ تُبْغِضُهُم لِي مُقلَةٌ وضَمِيرُ

ولعلنا لا نعدو الصواب حين نقول: إن في هذه الصورة التي رسمها لنا الشاعر لِعُواء الذئب وصُراخ الإنسان، إشارة إلى أن الإنسان قد أصبح عنصراً شاذاً على الطبيعة، غير منسجم معها، بل هو كائن ضارٌ ومدمِّر لها بعد أن كان مستخلفاً فيها.

وقد لجأ البعض للبحث عن بدائل لمجتمعاتهم، فيعلن انتماءه لهم، كما فعل الشنفرى الأزدي، إذ تصعلك واتخذ لنفسه أهلاً غير أهله، ثم خاطبَ قومه مُحذراً:

أقِيمُوا بَني أمّي صُدُورَ مَطِيِّكُمْ[6]
فإنّي إلى قَومٍ سِواكُم لأمْيَلُ
ولي دُونَكُمْ أهْلُونَ، سِيْدٌ عَمَلَّسٌ
وأرقَطُ زُهْلُولٌ وعَرفَاءُ جَيْألُ[7]
هُمُ الأهْلُ، لا مُسْتَوْدَعُ السِّرِّ ذائعٌ
لدَيْهِمْ، ولا الجَاني بما جَرَّ يُخْذَلُ

وكذلك المتنبي يفتخر بأصدقائه من أهل الصحراء:

صَحِبْتُ في الفلواتِ الوحشَ مُنفَرِداً
حتى تَعجَّبَ مِنّي القُورُ والأكَمُ[8]

أما القاضي الجرجاني، فقد وجد صحباً خيراً من السباع والصحراء ليلتجئ إليهم، ويجعلهم مؤنسيه في وحدته.. وهو هنا يأتي بسبب وجيه ليبرِّر انعزاله عن الناس ووحدته:

ما تَطَعَّمْتُ لَذةَ العَيشِ حتى
صِرْتُ في وحْدتي لِكُتْبي جَليسا
ليسَ شيءٌ أجَلُّ عنديَ مِنْ نَفْسي
فَلِمْ أبْتَغي سِوَاهَا أنِيسا
إنّمَا الذلُّ في مُواصَلَةِ النَّاسِ
فَدَعْهَا وعِشْ كَرِيْماً رئيسا

والكثيرون سوى الجرجاني قد فُتنوا كذلك بخير جليسٍ في الزمان، فجعلوه صاحباً وصديقاً، كما فعل أحمد شوقي:

أنا مَنْ بَدّلَ بالكُتْبِ الصِّحَابَا
لمْ أجِدْ ليْ وَافِياً إلا الكِتَابا
صَاحِبٌ، إنْ عِبْتَه أو لمْ تَعِبْ
ليسَ بالوَاجِدِ في الصَّاحِبِ عَابَا

وقد يكون لحالة التوحّد هذه ومقاطعة الناس ما يبرِّرهما، فرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «الوحدة خيرٌ من جليس السوء». ولكن هل أكثر الناس هم جلساء سوءٍ فعلاً، وينبغي الابتعاد عنهم؟ أم أنها مبالغاتُ الشعراء وخيالاتهم هي التي تصور ذلك؟ ومما يجدر ذكره في هذا السياق، قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «الجليسُ الصالحُ خيرٌ من الوحدة».!

---

(1) فَنَداً: كذباً.
(2) قيس بن الأحنف: يُضربُ به المثل في الحلم.
(3) يشقَّ: يصعب. الحَدق: العيون.
(4) فدم: غبي.
(5) أسهدهم فهد: يُضربُ المثل بالفهد في كثرة النوم.
(6) مطيّكم: ركائبكم. والمعنى: استعدوا وخذوا حذركم.
(7) سيد عملّس: الذئب السريع. أرقط زهلول: الأفعى. عرفاء جيأل: الضبع.
(8) القور: جمع قارة، وهي الجبل الصغير.
الأكم: جمع أكمة، وهي الغابة الصغيرة من الشجر.



لا أحلام يا جدي ولا وقت..

شعر/ محمود سليمان - مصر

قال الصغير لجده

يا جدُ...

بيروتُ تبكي

والقناديل المضاءةُ

فوق تل الكرم

والأشياءُ يا جدي

ونافذتي

فقال الجد يا ولدي:

إذا غامــرت في شــرفٍ مروم

فلا تقنع بمــا دون النجوم

فطعم الموت في أمرٍ حقيرٍ

كطعم المــوت في أمرٍ عظيم[1]

تُرى طعمٌ لتل الكرم

للأشياء يا جدي

لنافذتي ومكتبتي



تُرى تمضى بنا الأيام

من حربٍ إلى حربِ

ومن وطنٍ إلى لا شيء

***

هنا سينام بعض الوقت

أصحابي

ولا أحلام يا جدي

ولا وقت

هنا يبقى (الغَوَرْدَلُ) [2]

هامساً بالليل

منكسراً كمحمومٍ

يباغت ضوء مصباحٍ

وفي كلتا اليدين الحربْ

***

خذ التاريخ يا جدي

فقد يطأ الكروم

الجند

قد ينتابني فزعٌ

ويرسمني الطريق

كوردةٍ محمومةٍ

وكخيمةِ البدوي

لا الأوطانَ يملكها

ولا الأرض

كل ما حولي نُثَار:

الأرضُ...

والبنتُ الجميلةُ

والطريقُ السهلْ

كلما أوغلت نحو البابِ

أو أمسكت ذاكرتي

يطل الوعل

أو تبكي القناديلُ المضاءةُ

فوق تل الكرم

***

بيروت يا بلدي البعيدةَ

يا عناويني الصغيرة...

في كتاب الدرس

ما زلت أتبع كل قافلةٍ

أُشكِّل ملح ذاكرتي

لأترك خلف هذي الحرب

عنواني

---

(1) البيتان من شعر المتنبي

(2) الغَوَرْدَل: التسمية المحلية لشجر الغار في لبنان



«كائنات محتملة» القرية المغربية المهجورة.. بطلة

«كائنات محتملة» هو عنوان الرواية الجديدة للأديب المغربي المعروف محمد عز الدين التازي. الدكتورة عفاف عبدالمعطي*، تكشف هنا عن السمة المشتركة بين هذه الرواية من جهة والمسار العام للرواية المغربية حيث يكون المكان صورة للوطن، يرتقي في دلالاته أحياناً ليصبح هو نفسه بطل الرواية. ولذا اختارت الناقدة أن تلحق مقالتها بفصل من الرواية يتحدث عن المكان فيها، ألا وهو مدينة زرقانة الصغيرة والمهجورة.

* أستاذة الأدب المقارن في الجامعة الأمريكية في القاهرة





بدأ صدور الرواية المغربية في أربعينيات القرن الماضي، وهذا هو ما ثبت بالفعل في الببليوجرافيا التي حصرت تاريخ الرواية المغربية منذ عام 1942م.

ولكن هناك رأياً آخر يقول إن الرواية المغربية قبل الاستقلال لم تكن معروفة، ولم يكن الكُتَّاب يقبلون عليها وإن كنا نفاجأ بين حين وآخر بمن يقسِّمون تاريخ القصة والرواية المغربية إلى مراحل، إذ يعودون بها إلى عام 1905م ويذكرون أسماء كثيرة وأعمالاً أكثر، لكنهم يخلطون بين المقامات وبين الروايات المترجمة والأعمال المقتبسة وبين القصص القصيرة والشعر القصصي والمقالات الإصلاحية التي صيغت في أسلوب أقرب إلى أسلوب الحكي والقص، وأبعد ما يكون عن الأسلوب الفني، أو الشكل الروائي بمعناه المتعارف عليه بين النقاد.

التاريخ في تعبيره عن الواقع

ولعل ما يهمنا في هذا السياق أن نقرر أن من يقرأ الرواية المغربية يشعر للوهلة الأولى بأنها رواية كُتبت لتكون دالة على الارتباط بالواقع المغربي، بمحدداته البشرية والجغرافية وبالالتحام مع الواقع التاريخي الذي كان، قبل الاستقلال أو بعده، معبِّراً عن العلامات الخاصة بهذا التاريخ من جهة الحدث الحاصل أو من جهة المظاهر الحضارية المصاحبة له. لذا، فالرواية تقدِّم لنا صورة للمجتمع المغربي كتاريخ وكواقع متغيرين. ومن أكثر الكتَّاب المغاربة تعبيراً عن الواقع الاجتماعي الكاتب محمد عز الدين التازي، الذي بدأ الكتابة الروائية في نهاية السبعينيات في القرن الماضي، حين صدرت روايته الأولى «أبراج المدينة» (1978م) في العراق عن دار الآفاق، ثم توالت رواياته ومجموعاته القصصية التي بلغت العشر، مارس خلالها جميع أنواع الكتابة السردية التي تتراوح بين القصة القصيرة جداً والقصيرة، والقصة الطويلة وذلك في مجموعات «النداء بالأسماء» 1981م، ثم الرواية القصيرة مثل «فوق القبور - تحت القمر» 1989م، بينما جاءت رواية «أيها الرائي» في منطقة وسطى بين الرواية القصيرة والطويلة.

يطالعنا الروائي الكبير محمد عز الدين التازي برواية جديدة هي «كائنات محتملة»، تقدم عالماً مكانياً يُغاير العوالم المكانية الأخرى التي اختطها في رواياته السالفة، حيث مدينة «زرقانة» الصغيرة التي تشبه دواخلها القرية والتي يصفها الراوي منذ مِهاد الرواية بأنها:

«كون صغير.. مدينة للظلام والظمأ والغلواء،
أناسها يحيون بين الأبهاء والخرائب والحدائق
والحرائق، عالم منسي متأخر في زمانه
راجع في أفول..» (الرواية ص 9)

حضور المكان حتى في السلوكيات

يحمل وصف الراوي في هذا الجزء من النص دلالة مكانية كبيرة دالة على النسق المجتمعي الذي سيبدأ في وصفه. وبطريقة السرد هذه، تصبح صورة المكان ودلالته مرتبطة بهذا المكان لعمق أثره في الحياة البشرية في المدينة الموصوفة زرقانة. إذ ما من حركة إلا وهي مقترنة به وما من فعل إلا وهو مستوحٍ لبعض دوافعه من هذا المكان، وهو أعمق وأكبر وأهم من أن ينحصر في ما يمثل من ظرف ووعاء، أو أن نقتصر فيه على البين الناتئ من مستوياته، لأن كل مناحي الحياة وقطاعاتها، بل وكل مناحي النَّفْس الموصوفة داخل النص تشهد على حضور المكان الكثيف وتعدد مظاهره. وكل وجوه حركاتها وسلوكها، ولعله ما من

قرين للتجربة البشرية الماثلة في النص، إلا وكان وصف المكان في مدينة زرقانة الصغيرة هو مغذيها ومنطلقها ومصبُّها وترجمة لتواجد الشخصيات أيضاً. وهو ما يقدمه الراوي دلالة على المدينة ومن داخلها أبناؤها، فيقول: «في زرقانة: لا أحد يعطي شيئاً لأحد... الزرقانيون يحبون كثرة الكلام يمارسونه كي يتفرجوا على أنفسهم، ويكونوا شهوداً عليها» (ص 11)

وإذا كان المكان (مدينة زرقانة) هو الدلالة الأولى في النص على واقع تلك المدينة، فإن الراوي قد استخدم مقتطعاً سردياً أول كدلالة أخرى على إجمال السرد قبل تفصيله؛ بمعنى أن الراوي قد قدَّم فقرة مجملة لما سيفصله من سرد نصي حيث يقول:

«.. وتلك يا صاح أحبولة وقعت فيها كما
يقع الضرغام في حبائل لا يدركها، وها هي
زرقانة تدريها ولا تدريك، تحويها ولا تحويك
تبوح لها وهي عن أسرارها تخفيك، تستوطنها
ولا تغريك، لكنها تصبح كأخواتها في المدن ذات
حكايات وعجائب وغرائب، وانهيارات وخرائب،
ولو كنت سهراناً تسبك الحرف مع الحرف من ماء
هو ماء العين أو من معدن هو نار ونور لما أصابك
هذا الفتور، وها هي زرقانة لا تفتح لك باباً ولا تعطيك
جواباً، وتصير على طرقاتها ومبانيها أرضاً يباباً،
فما تخطه على نقا الرمل تمحوه رياح لا كالرياح،
ولك أن تستأنس بهذا البوح».

يظهر الخطاب السردي هنا كنوع من تفصيل ذكر الأحداث قبل إجمالها عبر وصف مكان النص: «مدينة زرقانة». وهنا يبدو السرد كصيغة لعرض وقائع ومواقف متتابعة مكانياً وكذلك زمانياً. والراوي في النص هو راوٍ ذاتي، وعلى جانب كبير من المعرفة النصية. ولذلك، فهو على مسافة قريبة من المواقف والوقائع المسرودة وكذلك الشخصيات، لذا فتلك المسافة قد تكون زمنية (أي يسرد وقائع حدثت قبل ساعات أو قبل سنوات)، أو قولية (حيث يسرد بكلماته الخاصة ما قالته إحدى الشخصيات أو يستخدم كلماتها). وذلك عندما يكشف عن أن كل من في مدينة زرقانة قد تلاشى بفعل الزمن، أو بسبب مكابدة الهجرة التي يفرضها واقع المدينة الفقير إلا من:

« ثلاث أسر عريقة هي التي بقيت في المدينة محافظة
على رونق العيش في مساكنها وتجارتها الصغيرة
وعاداتها في الأعياد والمناسبات، والأسر الأخرى
هاجرت إلى أسبانيا ولم يبق في زرقانة سوى الأغراب
الذين جاءوا من القبائل المجاورة وبعضهم استولوا
على الأرض وزرعوها بالجزر والكرمب» (ص 13)

هكذا يزكي الراوي فكرة انقراض الحياة الحقيقية في زرقانة، وبالتالي وقع الحياة الهجين الذى سار فيها بعد انقراض أهلها الأصليين، ومن ثم جاء إلى الأرض من ليسوا أهلاً. ويلاحظ القارئ جماليات اللغة الواصفة للوافدين على الأرض إذ لم يكن أمامهم سوى استخدام أسلوب رُعاة البقر في الاستيلاء على الأرض مُبرراً للإقامة فيها.

البطولة جوهر ولغة

وإذا تحدثنا عن البطولة في النص حيث نعتبرها مفهوماً اجتماعياً جوهره في الأصل جوهر اجتماعي؛ فإن الراوي يقدم لنا في النص صورة لشخصية الفقيه الزرقاني، والتي اعتبرها من أهم الشخصيات الموصوفة على مدار السرد، والسرد عنه لا يحمل نوعاً من البطولة فحسب بل يتعداه إلى حضور لغوي طاغ لوصف ذلك الفقيه الناسك، يقول الراوي:

«يبغض الشيطان ويحب الرحمن، هكذا
يقول الناس في زرقانة، حانوته لا يبيع
شيئاً، فهو يتربع على لبدة خضراء من ملف
ويستقبل محبيه ومريديه أو بعض طالبي الفتوى
في أمور دينهم ودنياهم، ظل الفقيه يُبصِّر الناس
بأن الله هو الفاعل المختار وأن له في خلقه شؤوناً
وحكمته وحده من يدريها!». (ص 22)

ولأن البطولة ليست مجرد حضور في النص ولكنها حضور بالقياس إلى قبول المجتمع الذي يمنح وحده شرعية البطولة، مثل شخصية الفقيه المروي عنها في لغة قَدَرية غنية بالصور والمجازات دالة على هبة الله إلى مخلوق ولي يرشد العامة، تتأكد ضرورة وجود البطولة الاجتماعية لا للبطل فحسب، ولكن للمجتمع نفسه، فهو بحاجة إلى مُخلِّص أو نموذج يشبع رغباته المرتبطة بالحاجة إلى «التنسك» و«القوة» و«التفوق والتمرد» وإن كانت البطولة اجتماعية أي أن البطل في الرواية قد تحمل مسؤولية التعبير عن وضع المدينة الصغيرة المغلق انطلاقاً من المركز الذي أبرزه كشخصية وبطولة روائية من جهتين: جهة بطولة مع السرد المترامي للوقائع الاجتماعية الدائرة في زرقانة. وجهة بطولة متمردة على ذلك المجتمع الذي تحوي جنباته أعطابه الداخلية؛ أي أن البطل كان بطلاً رافضاً لتخلف المجتمع ويعمل من أجل التغيير، ولو تسبب في إحداث «قطيعة» نفسية وسلوكية مع هذا المجتمع وعناصره.

إن رواية «كائنات محتملة» نصُّ المكان هو بطله الأساسي حيث القرية المقفرة التي تضطر معظم أهلها إلى الهجرة بعيداً عنها، ولا يبقى فيها إلا من يتعاملون بمنطق القوة، لذلك فهي رواية عن الهجرة، هجرة الذات نحو المجهول بمغامرة مقصودة أو غير مقصودة، كي تخرج تجربة واقع الحياة من مكان وتدخل إلى مكان آخر.

عبدالعزيز عياش

مقتطفات

الدخول إلى زرقانة

ترتيب ما لا يرتب

كون صغير.
مدينة الظلام والظمأ والغلواء، أناسها يحيون بين الأبهاء والخرائب، والحدائق والحرائق.
عالم... متأخر في زمانه راجع في أفول، وأولئك الناس في زرقانة يحيون أحلام ذلك الماضي، أو بعضهم على الأقل. فبعضهم الآخر لا ماضي لهم ولا ذكرى، يعيشون على انتظار ما سوف يحدث في الغد من مفاجآت تأتي بحفن من المال أو تأخذ إلى السجن. وأما من يحيون في الماضي فهم يعيشون على الذكرى، يوم كانت زرقانة مستعمرة صغيرة تهب عليها رياح الغرب، يقيم فيها بعض الفنانين، ومتقاعدي الحرب من الإسبان وهم يختلطون بالناس ويتكلمون بعض الكلمات بالعربية. يقضون معظم أوقاتهم في المقاهي والمطاعم الخاصة بهم، والتي ما كان يرتادها معهم سوى زرقانيين قليلين من أبناء تلك الأسر الثلاث أو الأربع التي كانت تعد زرقانية بحق. وإذا ما استنفد أولئك الإسبان جلساتهم في المقهى أو المطعم فقد كانوا يتجولون على الشاطئ مرفوقين بنسائهم وبأطفالهم الذين ولدوا في زرقانة ربما. فكانت كلابهم الغريبة الأشكال والطباع تغري الأهالي بالتفرج عليها وهي تتسابق أو تمتثل لأوامر أصحابها أو تلاعب الصبيان.

الزرقانيون ما كانوا عمياناً، بل كان لهم نظرهم، كما كان لهم فضولهم الذي ظل يتتبع كل خطوات (الإصبنيول) أينما راحوا وارتحلوا، وما كان ذلك إلا بدافع إعجاب وطلب للتقرب بمحاولة إسداء خدمات إذا ما توجب الأمر ذلك، كتشذيب حديقة أو حراسة دار في أوقات سفر السنيور وإيناس السنيورة، حتى مع وجود الكلاب التي تقوم بالحراسة.

والحق أن الزرقانيين الذين بقي لهم وميض من ذاكرة من ذلك الماضي هم على وشك أن يكفوا تماماً عن رواية ما كان يحدث في زرقانة، وذلك بسبب الشيخوخة والهرم، واتجاه ما تبقى في الذاكرة نحو التاريخ الشخصي والطفولة التي لها جهاتها البعيدة عن زرقانة، وعلى أطرافها ومراميها. وقد صار هؤلاء الشيوخ، وحتى الكهول، ينشغلون عن زرقانة بآلام الظهر والمفاصل، فلا تتحرر الألسنة إلا إذا كانت هناك شائعات تغذيها أحاديث المقاهي وكتابات بعض الجرائد المحلية، وهي شائعات تثير شهوة الكلام وتحرك الأخيلة لبعض الوقت، فيعود الفتور والكسل والتناوم، ريثما تشاع شائعات أخرى عن واحد من الشبان الذين يبيتون ليلتهم على الطوى ثم يصبحون وهم يتمرغون في أوراق النقد بعد نجاح عملية تهريب، أو عن فضائح رئيس المجلس البلدي. وقد تمتد الشائعات إلى التعرف على واحدة من تلك الجثث التي طرحها البحر، بعد أن بث قنوات التلفزة الإسبانية صوراً لجثث منتفخة مشوهة الوجوه، فلا يدري أحد أين كانت تلك الكاميرات التي التقطت الصور، هل جاءت فيما بعد أم أنها قد اعتادت على أن تنتظر أن يطرح البحر تلك الجثث ليشهر بها.

كل هذا لم يجعل زرقانة تشتهر بين المدن بشيء يخصها. النهر الذي كان يمر عبر كثير من القرى ليشق طريقه نحو البحر، أغلق مكان مصبه في البحر بالنفايات والأتربة وبقايا البناء، فتحول إلى مستنقع آسن، بينما الأرشيفات القديمة لا تزال تزخر بصور لنشاط الملاحة في النهر، وعبور تلك المراكب المحملة بالقمح والذرة والدجاج والبط وفراخ الحمام والخس والبصل والطماطم، وهي آتية للرسو في ميناء زرقانة، أو وهي ذاهبة نحو محطات صغيرة على بعض القرى، محملة بالسكر والزيت والشموع ومواد البناء وما كان من منجزات التقدم في ذلك الوقت، كمواقد الطبخ الغازية وأجهزة الراديو وأغطية من صنع المعامل. وقد بقي لتلك الصور بهاء لا تحتاج عيون الزرقانيين لأن تراه، فما كانوا عمياناً، ولكن ذاكرة الشيوخ قد خرفت. وأما الشباب فما عادوا يذكرون غير الـ..... ومحلات البوكاديو والمراقص والمطاعم إذا ما كانوا قد قاموا بعملية تهريب وجنوا منها أموالاً كبيرة، وأما إذا كانوا يحيون على الفراغ والإملاق فلا أماكن يذكرونها. وحيث تصير زرقانة بغير ملامح لشارع أو زقاق فهم يسكنون في الظل وأعز ما يطلب هو قارورة ..... تهدئ الوجع في البداية ثم تجعل الوجع يتحول إلى تشنج أو صراخ أو رغبة في القتل.

في زرقانة لا أحد يعطي شيئاً لأحد إلا ما ندر. فالناس تعودوا على أن يأخذوا أي شيء ودون أن يبذلوا أي شيء. يأخذون الكرم مقابل الصمت، والابتسام مقابل العبوس، ويأخذون الكذب والشائعات والثرثرات مقابل توجس وأسئلة تحفز الآخر على الكلام ولا تبادله الكلام بالكلام. والناس مع كل هذا ليسوا كراماً ولا لئاماً ولكنهم يفضلون الأخذ على العطاء في كل شيء.

ما عشته في زرقانة جعلني أنظر إلى عبدالصادق والغرناطي كاستثناء يشذ عن هذه القاعدة. فكلاهما



مقتطفات

طوقني بفضائل كثيرة سوف تلمسونها من حكايتي مع زرقانة، أنا الغريب، والغرباء عادة، لا شأن لهم في زرقانة بل إنهم محفوفون بفضول ومتابعة دائمين، وبذم شديد حتى مع حسن معاشرتهم. ولنتصور أن واحداً من شخصيات هذه الرواية ولا حاجة لذكر اسمه حتى لا يغضب مني، كان قد تعرف في الدار البيضاء على البهجاوي فأخذه إلى بيته وأكرمه هو وزوجته وأولاده. والرجل كان يحكي عن نزوله ضيفاً في بيت البهجاوي بحبور وهو يصف أنواع الأطعمة وتفاني زوجة البهجاوي في إعداد الطعام للفطور والغداء والعشاء، وهي مآدب. ثم يغتم خاطره وهو يتحدث عن البهجاوي الذي جاء إلى زرقانة وفاجأه في عنوان بيته وكان البهجاوي هو الأكول مع أولاده الأكولين وزوجته التي تستحوذ على المائدة وهي توزع قطع اللحم وتضع صحوناً بعد أخرى. ويعترف الرجل بأنه قد ارتبك أمام هذه الزيارة المفاجئة، فأخرج من جيبه ورقة مائة درهم وأعطاها لولده طالباً منه أن يذهب عند الجزَّار لشراء اللحم، وقال أنا خرجت لمحادثة الولد ولكني لم أقل له عد لنا لتقول إن محل الجزارة مغلق، كما أنني لم أطلب من زوجتي أن تأتي لتخبرني بنفاد غاز القنينة، فأرسلته لإحضارها لكنه عاد وأخبرني بأن محل الجزارة مغلق، وأن قناني الغاز لا توجد في أي محل. وماذا سوف أفعل؟ يقولون عن الزرقانيين إنهم بخلاء، ولكن في الدارالبيضاء أو الرباط يوجد كل شيء وفي أي وقت، وهنا لا يوجد شيء في الوقت الذي تريده، فهل هذا بخل؟ ثم يبتهج ويقول إن زوجته هي التي فرجت كربته، فقد دعت عائلة البهجاوي للغداء في مطعم، وتزينت بزينتها هي وزوجة البهجاوي، استعداداً للخروج، لكني لم أطمئن إلى أكل المطاعم، فكيف تستضيف ضيفك في مطعم لا تضمن فيه أن قيمة ما ستتناوله فيه من طعام تساوي ما سوف تدفع، وكيف تضمن صحة الأطفال؟ هذه مشكلة، لكن زوجتي حلت كل المشكلات بذكائها وبمعرفتها بالأمور. فقد افتعلت معي نزاعاً حول مطعم هي اقترحته وأنا اقترحت مطعماً آخر، وفض البهجاوي النزاع بأن يرضي كل واحد منا أنا وزوجتي بتناول الغداء في المطعم الذي اقترحته هي، والعشاء في المطعم الذي اقترحته أنا، لنرى الفرق، وعلى حسابه. ولقد فرجت، لكننا أنا وزوجتي بقينا على خلاف لثلاثة أيام حول ما تناولناه في المطعمين معاً. والحقيقة أننا تناوبنا في الغداء والعشاء على المطعمين معاً، لثلاثة أيام، وكان البهجاوي هو الذي يدفع. حتى وأنا أحلف على الدفع. لكنه هو الذي خرج من البيت وعاد يحمل قنينة الغاز، وهو من كان يستيقظ باكراً فيأتي بالفطور، وحتى ما اشتراه من جبن وزبدة وأرز، فقد ترك نصفه لنا قبل أن يسافر، وما كنت أنا من طلب منه أن يفعل ذلك.

وأما عبدالصادق، فقد حكى حكاية غريبة عن زبون جاء إلى مطعم الزهراء ليحجز مائدة لغداء يوم الأحد، وهو يعرف أن المطعم لا يمتلئ عن آخره، لكنه في يوم الأحد جاء محملاً بطناجير وصحون بها سمك مقلي وطلب من عبدالصادق، وهو المسؤول عن المطعم أن يسخِّن الأطعمة ويقدمها في صحون جميلة وأن يضع الورد والشموع على المائدة، فستأتي صديقة أجنبية. قال لي عبدالصادق وماذا سوف نفعل نحن في المطعم بالأطعمة التي نعدها؟ قال طلب منه ذلك السيد السلاطة وزجاجتي كوكاكولا ليدفع ثمنهما، ولم يقل لي هل قبل عرض ذلك السيد أم أنه لم يقبله، ولكنه ظل يسخر من طعام البيت الذي يتناول في المطعم، لتغيير الأجواء.

الزرقانيون يحبون الفضائح، ليمارسوها أو ليتفرجوا عليها أو ليكونوا شهوداً عليها. فضائح من كل الأنواع. حتى إذا مرَّ وقت ولم تقع فيه فضائح، فهم يسعون لارتكابها. فأحدهم صعد بناية ذات طابقين، وأخذ يصرخ مهدداً بالانتحار، ويشهد أن لا إله إلا الله، الله أكبر، ويهم بالارتماء من سطح المنزل إلى الأرض ثم يطوف بالحيطان وينظر إلى تجمع الناس على ناصية الطريق، ويطلب حقه في الإرث الذي يجب أن يناله الآن قبل أن يلقي بنفسه إلى أسفل. ويتجمع أفراد عائلته، ويأتي البوليس، ويساوم على مقدار الإرث، وهم يحدثونه من تحت وهو يطلب مبلغاً محدداً من فوق، ثم لا ينتحر، ولا ينال درهماً واحداً من الإرث المزعوم، فقد كان محششاً، وهذا هو حاله يكرره مرات كلما تحشش. (....)



قد يكون موضوع هذه الرواية هو مكابدات الهجرة، ولكن موضوعها الأمثل هو زرقة عيون الزرقانيين، وليس هذا من قبيل العبث، بل لأن تسمية مدينة ليست بالأمر الهين.

والمعلّم نفسه كان يعتبر واحداً من الأشخاص النادرين في زرقانة، فهو لا يكف عن الضحك وهجاء الناس والتندر بأحوال الوقت والسخرية من أعضاء المجلس البلدي، الأميين في غالبيتهم، والذين يتزاحمون على الجرائد وأخبارها تتشابه كل يوم، ومع ذلك يشتري جريدته التي يطل على عناوينها ثم يتركها لعبدالصادق.

هو شارع واحد يتجول فيه كل الناس في الصباح والمساء، ومن حواليه يوجد البنك ومقر البلدية ومركز الشرطة وإدارة الجمارك، تصطف على جانبيه حوانيت لبيع الموارد الغذائية والأحذية المستعملة وملابس الخردة من منامات ومعاطف وقبعات وجوارب وحوانيت أخرى لبيع البوكاديو والهمبوركيسا وأنواع العصير. فشباب زرقانة يتناولون أول وجبة في يومهم في هذه المحلات بين الرابعة والسادسة مساء وبعد النهوض من نوم ثقيل، بينما يتعشون قبيل الفجر في محلات البوكاديو إذا لم تواتيهم المناسبة للعشاء مع أناس كبار في مطعم من المطاعم المنتشرة على الساحل.

الوقت منفلت في زرقانة،
ولكل زمنه الذي يحيا فيه، ولربما هي أزمنة يحياها الزرقانيون في وقت واحد. ولكل زمنه الذي لا يلتقي مع أزمنة الآخرين. وسيكون لذلك تأثير على زمن الرواية، أو أزمنتها التي هي أزمنة أناس عاشرتهم أو سمعت عنهم. وكأنه زمن لاعب سيرك، يلاعبه وهو بين حد السقوط وبين خط الوصول.

ثلاث أسر عريقة هي التي بقيت في المدينة محافظة على رونق العيش في مساكنها وتجارتها الصغيرة وعاداتها في الأعياد والمناسبات. فالأسر الأخرى هاجرت إلى إسبانيا ولم يبق في زرقانة سوى الأغراب الذين جاءوا من القبائل المجاورة، وبعضهم استولوا على الأراضي وزرعوها بالدوالي والجزر والكرمب والجلبان، كما هيأوا الحقول والجنان والغرسات المزروعة بأشجار اللوز والتفاح والإجاص والسفرجل، منافسين بعض المعمرين الألمان الذين كانت لهم حقول واسعة لزراعة البطاطا وتصديرها إلى ألمانيا. لكن تلك الحقول قد تحولت إلى تجزئات سكنية أو منشآت سياحية تحت مضاربات العقار وتبييض الأموال فمات الاخضرار وحل محله الأسمنت.

مدينة ظاهرها ليس كباطنها،
وهي تشبه مجرى من مجاري التيارات البحرية يبتلع من يأتي للسباحة وهو لا يدري بمكان التيار.

هذا ما حدث لي. فزرقانة ابتلعتني، وما بقي لي من حياتي السابقة قبل أن آتي إليها سوى الأخاييل والذكريات.
ستعرفون أنني دخلت زرقانة ولم أخرج منها، وأن ما أكتبه في هذه الرواية هو محاولة للخروج، أو للقبض على زمن من تلك الأزمنة الضائعة، ولكن مع ذلك فثمة أشياء شيقة، وحوادث تستحق أن تعاش. أنا لست مؤرخاً للمدينة لأنها تقع في حدود ما عشته بين الوهم والحلم، كما أن الهجرة التي هاجرها المرواني أو الغرناطي أو سعدالدين قد صادفتني في طريقي. وأنا أحيا في زرقانة بين الفراغ والموت، فلست أنا من أزم أوضاع البلد إلى حد أن صارت المحن تجارب شاقة في حياة الناس.

ولعلي أمام مدينة أسطورية،
ويكون الداخل إليها مفقوداً والخارج منها مفقوداً أيضاً،
فكأن هذا الفقدان جعلني أفقد البوصلة التي ترشدني إلى دروب السرد في هذ الرواية التي هي إنشاء وتدمير لزرقانة.
كما أنها ليست سيرة لي وإن تضمنت بعض النتف،
فأخي مولاي إبراهيم، وتجاربي مع نساء ورجال سوف تتعرفون عليهم، وقصتي مع ترميم البرج، كلها تفاصيل صغيرة تضاءلت معها حياتي الخاصة أمام أسرار زرقانة وتاريخها المزيف، ودموية أوقاتها الليلية والنهارية. فأنا أحيا في قلق يومي، يجد نفسه في قلق هذه الرواية.



Stock Xchange

قول آخر

وأضحت الساحة خالية

هدى عبدالجواد*

بهرني يومها، كنت أنتظر أن يصل إلى مدينتي، إذ إنه موجود ضمن قائمة «الألغاز» التي سبق نشرها، وكانت تلك الرقصة وأنا في الصف الثالث الابتدائي فعلاً غريباً في حارتنا «المحافظة»، لكنه طبيعي تماماً بالنسبة لطفلة تجاوز عالمها تلك الحارة الصغيرة بقوانينها الصارمة إلى عالم أرحب يحتفي بالطفولة، ويشجعها لتنتزع حقها في «الشقاوة» انتزاعاً ما دامت تلوِّن حياتها بالفرح دون أن تعكر حياة الآخرين.

لم تأخذ هذه المغامرات البوليسية حقها من الاحتفاء، بل ربما نالها الكثير من النقد إذ صنفت كنسخ مقلدة

«تختخ ونوسة ولوزة ومحب وعاطف» من سلسلة المغامرين الخمسة، التي أصدرتها دار المعارف قديماً. هي أسماء شكَّلت طفولتنا، وأحلامنا، وشقاوتنا، وكان الشغف بأصحابها وحكاياتهم يجعلنا ندخر من مصروفنا اليومي لنشتري آخر الأسبوع «ألغازاً» جديدة، تجعلنا نعيش عالماً من الخيال القريب إلى الواقع حتى الملامسة.

أحببنا «المعادي» ببيوتها المحاطة بالحدائق الصغيرة، وكنَّا نسأل على مر السنين كل من قدم من مصر كيف هي «المعادي» الآن؟

قصص رغم بساطتها شكَّلت في وجداننا ليس فقط حب العدالة، وفضيلة السعي إلى تحقيقها مهما كانت الصعوبات، في قيم متوازنة، تحفظ للوالدين حقهما، وللأخوَّة جمالها، لكنها أيضاً صاغت في ركن قصي من دواخلنا إيماناً بالعروبة وقومية لم تكن لتنتحي أبداً مهما طغت دعوات أخرى.

ولست أنسى يوم رقصت في الشارع فرحاً، وقد حصلت على «لغز» هو «لغز الألغاز» تحديداً، هذا الاسم الذي

من الأدب الغربي، لكن ماذا يعنينا هذا الكلام النقدي الجاف نحن الذين عايشنا القرب الحميم من تختخ ورفقائه الذين لم يكونوا غريبين عنا في أصول الثقافة التي تربينا عليها، فلا نفهم كيف يكون هؤلاء الأصدقاء الخمسة ليسوا حقيقيين أو غرباء عنا؟ أطفال الأمس، وجدوا في «المغامرين الخمسة» وغيرها من السلاسل التي تصدرها دار المعارف ملاذاً ومتنفساً لهم، وأشبعت حاجة في ساحة الكتاب العربي، وهي الحاجة إلى كتب طويلة نسبياً، تعبِّر عن محتوى كل فصل فيها برسمة، وإن كانت الوسيلة الأساسية للتعبير هي الكلمات، ويسميها الناشرون (Chapter Books) للأطفال من سن الثامنة وحتى الثانية عشرة. هذه الكتب، بصفحاتها التي قد تقل أو تتجاوز المئة صفحة بقليل، تجد شعبية كبيرة بين الأطفال الذين لا يهتمون بقراءة روايات الكبار، ويترفعون عن قراءة قصص الصغار!

لكن السؤال هو هل تشبع هذه «الألغاز» أطفال اليوم كما كانت تشبعنا بالأمس؟ جربت أن أعطي بعضاً منها لصغار من أقربائي، لكنها لم تثر اهتمامهم إلا بقدر بسيط، وفي المكتبة العربية اليوم، أبحث لأطفالنا المحبين للقراءة عن قصص متوسطة الحجم أو حتى طويلة، فلا أجد من استطاع أن يحل بالنسبة لهم مكان المغامرين الخمسة بالنسبة لنا. ورغم كل الاهتمام (النسبي) الذي تلقاه صناعة كتاب الطفل اليوم، لا تزال هذه الزاوية (أو هذه الساحة الاستثمارية إن نظرنا إليها من منطلق الربح والخسارة) بعيدة عن اهتمام الناشرين والكتَّاب. وكما لقي هاري بوتر رغم طول رواياته المفرط نجاحاً هائلاً بين الأطفال في الغرب وأعادهم إلى طريق القراءة، ربما نجد في إحدى هذه السلاسل، إن قوبلت بالاهتمام الكافي والاحترام، ما يعيد إلى أطفالنا ولعهم بالقراءة، وينسج في داخلهم نسيجاً محكماً من القيم المتجددة التي توائم طبيعة عصرهم واهتماماتهم وإيقاع حياتهم المتسارع ليعبر بهم إلى مراهقة متداخلة مع مرحلة الطفولة المتأخرة.

* كاتبة مصرية



الدمية لهو وأكثر

أينما وقعت العين على دمية، ارتسمت في الذهن صورة طفلة. فالعلاقة بين الاثنتين تمثل واحدة من أقوى صور الصداقة صدقاً واكتمالاً. ولكن تحت هذه الصورة البريئة والبسيطة هناك عالم تتقاطع فيه الثقافات باختلافاتها وتناقضاتها مع الفن والأدب وعلم النفس والتربية وصولاً إلى الصناعة والتجارة بكل مساعيهما إلى جني أقصى ما يمكن من عائدات هذه الصداقة ما بين الطفلة ودميتها. في هذا الملف، تأخذنا نادين صبري[1] إلى عالم الدمية الذي تترامى أطرافه بعيداً جداً عن غرف الأطفال من التاريخ إلى الثقافة، أما جعفر حمزة[2] فيتناول بشيء من التفصيل حرب الدمى التي أشعلتها التجارة وأججها التصادم الثقافي الحديث.

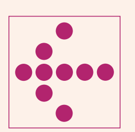
1 مدرسة رياض أطفال

2 كاتب بحريني مهتم بشؤون ثقافة الصورة

Getty Images



دمى من كل الألوان في لوحة زيتية للفنان شوقي الفزَن



الدمى.. بدايات لا تنتهي

لم تصل إلينا أية دمية من تلك الدمى التي رافقت الأطفال قبل سنة 3000 ق.م، ولكن كثيراً من علماء الآثار لا يرون هذا دليلاً على أن طفلة ذلك الزمن البعيد لم ترافق عروستها في السراء والضراء. بل فسَّروا عدم وصولها إلى أيدينا بأن تلك الدمى كانت مصنوعة من مواد رقيقة كالفراء والقماش ولم تستطع أن تقاوم الزمن فتحللت واختفت. أما أقدم الدمى بين أيدينا فيعود تاريخها إلى ما بين 3000 و 2000 سنة قبل الميلاد، وتم العثور عليها في قبور المصريين القدامى. نحتت هذه العرائس من ألواح خشبية مسطحة، وطليت بألوانٍ مختلفة، مع شعر طويل متطاير نظم من خرز خشبي أو حبال من الصلصال. وفي اليونان القديمة، كما في مصر الفرعونية وروما القديمة، كانت الدمى تدفن مع أصحابها الصغار في القبور.. وكانت هذه الدمى المغرقة في القدم، مصنوعة من القماش أو محشوة به، محاكة بألوان زاهية من الصوف، ويرتدي بعضها الفساتين الصوفية التي اختيرت ألوانها بعناية.

في عام 1413م، ظهر صنَّاع اللِّعب في مدينة نورمبرغ الألمانية، وهي المدينة التي سيطرت على صناعة العرائس لقرنين متتالين. وكانت مدينة باريس أيضاً مُصنِّعاً آخر للألعاب المنتَجة بأعداد كبيرة. دمىً أنيقة ومصنوعة بعناية لتناسب السيدات الصغيرات وتستجيب لشغفهن بالموضة والجمال. أما بيوت الدمى، فلم تنتشر في أوروبا سوى في القرن السادس عشر.

كانت رؤوس الدمى تصنع من الخشب والمرمر ثم صارت تصنع من الشمع، وهذه التقنية ظهرت في بريطانيا أولاً على يد أوجستا مونتاناري وابنها ريتشارد في النصف الأخير من القرن التاسع عشر. وعلى يد مونتاناري انتشرت صناعة الدمى التي تمثل أطفالاً رضّع.

وفي حوالي العام 1820م، ظهرت رؤوس الدمى المصنوعة من البورسلين والسيراميك. بينما قدمت عائلة Jumeau الفرنسية دميةً جديدة بعنق متحرك وجسد محشو بنشارة الخشب. هذه الطريقة استخدمت على نطاق واسع آنذاك حتى تراجعت لصالح الدمى المصنوعة من البلاستيك في القرن العشرين. وفي القرن التاسع عشر، ظهرت لأول مرة العرائس بأعين متحركة، ومفاصل مجوفة، بالإضافة إلى

قدرتها على إصدار الأصوات والمشي. وكانت الفترة بين 1860 وحتى 1890م العصر الذهبي للعرائس ذات الأناقة الباريسية بتفاصيلها «المهمة» الدقيقة.

أما أقدم العرائس الأمريكية، فقد وجدت في حفريات قبور حضارة الأنكا، قرب أهرامات تيوتيهيواكان، ولاحقاً كانت الدمى التي ظهرت أثناء استعمار بريطانيا لأمريكا، مجرد تقليد سطحي لتلك العرائس المنتشرة في أوروبا!

وفي اليابان، كانت الدمى ولا تزال رمزاً حضارياً للبلاد، أكثر مما هي لعبة للصغيرات. مهرجان الفتيات الذي يعقد في شهر مارس من كل سنة، هو نموذج حي على ذلك. في هذا المهرجان، تقدَّم الدمى التي تمثل إمبراطور وإمبراطورة اليابان، والحاشية الملكية، وتتبادل الفتيات من سن السابعة وحتى السابعة عشرة الزيارات لمشاهدة مجموعات الدمى المختلفة، وتُقدم المشروبات المنعشة أولاً إلى دمى العائلة المالكة، ثم إلى الضيوف، في طقس يعود تاريخه إلى أكثر من تسعمائة سنة. الغريب أن الفتية أيضاً في اليابان لهم مهرجان «الدمى» الخاص بهم، ويحضره الأطفال في شهر مايو من سنتهم الأولى وحتى سن الخامسة عشرة. دمى للمحاربين وأسلحتهم، بالإضافة إلى مجموعات من الشخصيات الأسطورية تشجع الصبية في هذا المهرجان على الفضيلة والشجاعة.

وفي الهند، تقدم الدمى المهندمة بعناية إلى العروس الصغيرة، وفي جنوب إفريقيا، تعطى الفتاة الراشدة دمية لتحفظها حتى ولادة مولودها الأول، لتهديها إليه، وتتكرر الهدية مع مولودها الثاني وهكذا.

وفي القرن العشرين، ظهرت مجموعة من الدمى التي حازت شعبية كبيرة وقت ظهور كل واحدة منها، وسحبت بعضها البساط من تحت قدمي ما قبلها، فظهر الدب «تيدي» في عام 1903م، ثم ظهرت الدمية «باي لو» التي كانت أول دمية تغمض عينيها أثناء نومها في عام 1922م. وفي عام 1959م ظهرت «باربي» لتسيطر على قلوب صغيرات أمريكا، ومن ثم بقية دول العالم حتى يومنا هذا، وإن حاولت دمى «مجموعة الفتيات الأمريكيات»، والتي ظهرت في أواخر الثمانينيات أن تكتسب بعضاً من شعبيتها.

دمى خشبية من روسيا

Flickr



google

رفيقة الطفولة منذ القدم للفنان السويسري فريتز بهلر

الدمية.. دائمة الحضور

الدمى في صناعة الألعاب رمز كلاسيكي. أساس، تنطلق منه الصناعة وتكبر، فإن لم تكن الدمى أهم رموز صناعة الألعاب، فماذا يتبقى؟

ما الذي يحمي الدمى في عالم من الألعاب الإلكترونية، حيث نسبة 70% من الألعاب تعيش على البطاريات والرقائق الإلكترونية بدلاً من أن تعيش على حب الطفل وعنايته؟ وكيف تحتفظ الدمية بمكانها في دنيا أفقدت علاقة الطفل بلعبته خصوصيتها، في ظل أمواج من الألعاب الجديدة المغرية كل يوم؟

الجواب هو أن الدمية عاشت مشواراً طويلاً لا يزال مستمراً وبعيداً عن الوصول إلى الكمال. إذ إنها في النهاية تقليد رديء، مهما كان متقناً، لعظمة خلق الإنسان، ولذلك يحاول صانعو الألعاب، بشتى الوسائل تكنولوجية كانت أم أيديولوجية، الوصول إلى كمال ناقص. دمية تتحدث. دمية تنام. دمية تتحرك. دمية لا تكف عن إبهارنا. وبهذا، يجدُّ جديد في صناعة الدمى كل يوم، ويكون هناك إغراء جديد للاستمرار في المحاولة، والاستمرار في الشراء، والاقتناء.

إن كل الإضافات التكنولوجية المبتكرة التي أضيفت أو قد تضاف إلى الدمى، هي إغراءات قد تثير رغبة الطفلة في شراء تلك الدمية أو اختيارها من على رفوف البيع، ولكنها لا تحدِّد أطر أو نوعية الصداقة والارتباط الذي قد يكون بينها وبين هذه الدمية الجديدة، فمنذ متى كان اختيارنا لأصدقائنا الحقيقيين قائماً على ما يملكونه من مهارات أو مواصفات جسمانية؟ ولذلك نجد أن من الطبيعي أن تنشغل طفلة ما بلعبتها الجديدة لأيام، ثم تعود إلى لعبتها القديمة، تلبسها ثيابها، وتمشط لها شعرها، ثم تصحبها معها إلى حفلة شاي.. ولا تخلد إلى النوم، إلا بعد أن تطمئن أن صديقتها الصغيرة نائمة بأمان في سريرها، أو بجانبها.

ارتباطها بالأنثى الصغيرة.. لا يُزاحم

جرت محاولات لجر الصبيان إلى الاهتمام بالدمى من الألعاب، وحققت هذه المحاولات نجاحاً إلى حدٍ ما عبر تقديم «رموز القوة». وهو الاسم الذي سميت به دمى الفتيان لنفي أية شبهة بعلاقة ما مع دمى الفتيات الناعمات الرقيقات قريبةً كانت هذه الشبهة أم بعيدة. وبالتالي، كانت الأسباب التي جذبت الصبيان إلى هذه الرموز مختلفة نوعياً عن تلك التي جذبت الفتيات إلى الدمى. وهي أسباب تتعلق بالقوة والسيطرة بدلاً من الاهتمام الأمومي والحنان. ولذلك نجد أن الطفل يقاتل بدميته، والطفلة تحب بها. وفي مطلع الثمانينيات، يذكر أصحاب المتاجر الأمريكية حدثاً طريفاً، لم يروه وقتها كذلك.. فشركة «ماتيل» المصنعة لباربي ورمز القوة للصبيان «جي آي جوي»، خلطت الرقائق الإلكترونية للاثنين، فحصل الصبيان على دمى جي آي جوي تقول: «لنذهب للتسوق»، بينما حصلت الفتيات على باربي تصرخ قائلة: «سأنتقم»!

وعلى الرغم من تنوع نماذج الدمى التي قدمت للصبيان، وتراوحت بين الجنود والحيوانات وأبطال رسوم الكرتون، فإن الدمية كانت ولا تزال مرتبطة في الوجدان بصورة الطفلة، هذه الأنثى الصغيرة التي ستصبح يوماً ما أماً، وترى في دميتها تمريناً على دورها المستقبلي، واستحضاراً له، في جملة الوظائف التي تؤديها هذه الدمية.

فهـذه الوظائـف التي نجمعها تحـت عنوان اللهـو، تختلف وتتنوع من حين إلى آخر حسـب احتياجات صاحبة الدمية. فهي تشمل ملء وقت الفراغ عندما لا يكون للطفلة ما تفعله فتنصـرف إلى الاعتناء بهندام دميتها مثلاً، و «الاسـتماع» إلى شـكوى صـاحبتها من «ظلم» تعرضـت له، ومؤانسـتها قبل النوم، وتبديد الشـعور بالوحدة.. والأهم من ذلك كله على الأرجح، هو السـماح للطفلـة التي تحلم بأن تكبر وبأن تصبح مثل أمها، بأن تتصرف وكأنها فعلاً كذلك.. وما من شيء في منزل أية طفلة يمكنه أن يؤدي مثل هذه الوظائف غير الدمية.. الدمية التي تعلقت بها القلوب الصـغيرة أبداً ودائماً.

ودمى للكبار أيضاً

إذا نجـت الدمية من عبث الأصـابع الصـغيرة وهي تكبر، فتتحول لاحقاً عند صـاحبتها إلى حافظ طفولتها وصـورة للأيـام السـعيدة. كمـا نجـد في منـازل البعض دمى لم تصـاحب أصـحابها في طفولتهم، بل اقتنوهـا وهم كبار. قد تكون هذه الدمى مشـتراة خلال الأسـفار والرحلات للاحتفـاظ بها كتـذكارات. وقد تكون مجرد صـورة عن ثقافة مختلفة تعرف إليها المرء لبعض الوقت، وأراد الإبقـاء علـى صـلة وصـل معها بعـد رحيله عنها.

وبسبب الإتقان الذي تُصَنَعُ به بعض الدمى المرتديـة للملابـس الوطنيـة (وغالباً مـا يكون الثـوب هو موضـع الإتقان) ظهرت عند سيدات عديدات هواية جمع الدمى من بلـدان مختلفة. ولا شـرط لضـم دميـة إلـى المجموعـة غيـر ارتدائها الثوب الوطني لهذا البلد أو ذاك.

وأيضـاً، وبسـبب الدور الـذي لعبته الدمى في الثقافات المختلفـة، وتنوع أنماط إنتاجها وسـهولة التعـرف على كل منهـا، ظهرت هواية جمـع الدمـى القديمـة التي شـغف بهـا جامعو التحـف والأثريات من الرجال والنسـاء علـى حـد سـواء. وصـار لهـذه الفئة مـن الدمى معارضـها الخاصـة ومزادات علنية موسـمية تنظِّمها أشهر دور المـزاد العلني في العالـم مثل كريسـتي وسوثبي.

الدمية ثقافياً..
إنسان مسلوب الإرادة

فـي عالـم الثقافـة، نادراً مـا نجـد الدمية تمثـل الحلاوة والبـراءة والعواطـف التـي تمثلها في عالـم الطفولة. ومن اللافـت أن أدبـاء وفنانين مـن أزمنة وحضـارات مختلفة اسـتعانوا بالدميـة في تشـبيه صـورة الإنسـان المسـلوب الإرادة، الذي لا يفكر، لا يشـعر، ولا يقرر أي شـيء، خاصة المرأة التي تجرد من كل قيمتها باسـتثناء جمالها. فعندما وصـف المتنبي الدمية (تناولت القافلة هذا الموضـوع في بـاب ديوان الأمس للعدد 4 المجلـد 52) ركَّز على جمالها، وعلى عزيمتها غير الموجودة فقال:

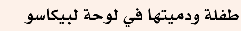
وذاتِ غـدائـرٍ لا عـيـبَ فيها
سـوى أن ليـس تَـصْـلُـحُ للعناقِ
إذا هـجـرت فـعَـنْ غيـر اختيار
وإن زارت فعـن غـيـرِ اشتياقِ



google

دمية جديدة من السيراميك في تقليد متقن للدمى القديمة





طفلة ودميتها في لوحة لبيكاسو

ومن أشهر قصائد نزار قباني المغناة قصيدة «أيظن» والتي غنتها المطربة نجاة، وتبدأ الأغنية بالسؤال: «أيظن أني لعبةٌ بيديه؟» في إشارة إلى أكثر المفاهيم التي توحي بها الدمية في الأدب، وهي الشخصية المسيَّرة التي لا تتحرك بناءً على إرادتها الخاصة. وفي هذا، تنضم «الدمية» إلى قائمة من الأشياء (المشبه بها)، والتي حرمت من غناها وتنوع المعاني والمفاهيم التي يمكن اقتباسها منها، نتيجةً لحصرها في تشبيه شاع استخدامه لدرجة أنه لم يعد يحمل أية مفاجأة يقصدها استخدامه في الدرجة الأولى. وعادةً ما تكون هذه الشخصية- الدمية، امرأة جميلة سطحية. وفي قصيدة أخرى لنزار قباني تحمل اسم «الدمية»، يقول:

«أخاطب عقلك من غير طائل..
أخاطب فكرك من غير طائل..
أخاطب فيك الثقافة..
من غير طائل».

وفي مسرحية «بيت الدمية» من تأليف الكاتب النرويجي المشهور هنريك إبسن، تكتشف نورا بطلة المسرحية أنها تعيش في بيت دمية، وأنها في الحقيقة، دمية لا يسمح لها زوجها المثقَّف بالتفكير، أو اتخاذ القرارات.. ورغم أن

فن عربي معاصر وضائع

بدأت نجلاء رأفت حياتها العملية وهي لا تزال طالبة في السنة الإعدادية لكلية الفنون الجميلة، حينما اختارها الفنان عبدالسلام الشريف للعمل في مجلة «بناء الوطن» التي ظهرت في بداية الستينيات، ثم انتقلت للعمل معه في مجلة الإذاعة والتلفزيون. وأثناء عملها في المجلة، تعرفت على الفنان محمد محمود شعبان «بابا شارو»، وبدأت العمل معه على رسم ما يحرره من صفحات للأطفال. ثم انتقلت بعد ذلك لتكون من أولى فنانات العرائس المصريات، والتقت رفيقة عمرها الفنانة بدر حمادة زوجة الفنان المصري بهجت عثمان. واتفقتا على الإبداع، وعلى انحياز كامل لرؤى تعكس هوية التراث العربي. وكانت عرائس نجلاء رأفت، كما يصفها الدكتور هشام السلاموني، بنات رقيقات القسمات، وصبياناً بوجوه مستديرة، وخدوداً ممتلئة مستعدة للقبل. أما عيون الجميع فكانت هي المشكلة الأحلى، فهي مستديرة -في الغالب- تمتلئ بحدقات سوداء كبيرة، فيها ضجيج الحياة والذكاء وخفة الدم. عيون لافتة متلفتة، مستطلعة، أكثر من كونها مطالعة. متجهة إلى الأعلى لتنادي كل ما هو رقيق وجميل وآمن. وللأسف، لم تستثمر موهبة نجلاء رأفت أو زميلتها بدر حمادة، ولم يتبق من فنهما، بعد وفاتهما -رحمهما الله- سوى ذكرى جميلة في قلوب من عرفوا فنهما ودمى غالية في مقتنياتهم، وفيلم تسجيلي قصير عن فن بدر حمادة بعنوان «عروستي» من تقديم المخرجة اللبنانية نبيهة لطفي.







الدمى القديمة لهواة جمع التحف

المسرحية تعتبر اليوم من كلاسيكيات المسرح العالمي، إلا أنها قوبلت وقتها بالاستنكار، باعتبارها عملاً يستهين بمكانة المرأة، ويهدد الاستقرار الأسري. أما الكاتب البولندي بوليسلاف بروس فقد كتب رواية في العام 1890م بعنوان «الدمية» أيضاً، في إشارة إلى حادثة جانبية من أحداث الرواية، تسرق فيها دمية. ولكن القارئ يستطيع أن يرى في حوادث الرواية إشارة إلى شخصية الجميلة إيزابيلا التي تعرضت أسرتها الأرستقراطية للإفلاس، ولم تستطع أن ترى في كولسكي (بطل الرواية) عدا كونه تاجراً اغتنى بعد فقر ولذا لا يستحق عاطفتها. ويعود إبراهيم الكوني، الكاتب الليبي، لاستخدام الدمية في عنوان رواية قصيرة له، تحكي عن البطل النبيل الذي يحمل أفكاراً مثالية ولكنها تتحطم على أرض الواقع، ومثاليته تسلبه قدرته على مجاراة الآخرين في اللعب على مسرح الحياة. أما في رواية جاكلين سوزان «وادي من الدمى» المنشورة في العام 1966م، والتي حولت لفيلم سينمائي في العام الذي يليه ،استخدمت كلمة «الدمى» كمفردة بديلة للمخدرات التي تستخدمها بطلات الرواية الثلاث للهروب من الواقع.

غير أن السينما، وبسبب قدرتها الفائقة على تلوين نفسها بألوان مختلفة. قدَّمت صوراً مختلفة للدمية، لعل أكثرها جنوحاً وتطرفاً في ابتعاده عن الصورة التقليدية والطفولية للدمية هو ما تمثله سلسلة أفلام الدمية القاتلة «تشاكي». وتشاكي هذا هو سفَّاح قُتل على أيدي رجال الشرطة فعاد كدمية لينتقم من الشرطي الذي قتله. وسلسلة الأفلام الخمسة هذه تحوي كماً هائلاً من الوحشية والدماء يختلف تأثيرها على نفس المشاهد عن بقية أفلام الرعب كونها آتية من لعبة، يفترض أن تكون رمزاً لطفولة بريئة وآمنة وربما حتى غافلة.

وهذه الرمزية المطعونة سينمائياً نجدها مبعثرة في عدد لا يحصى من الأفلام حيث نرى الدمية في وظائف استنبطها لها الكبار من غير الأبرياء على الإطلاق: تهريب المخدرات داخل الدمى، تخبئة المسروقات داخل الدمى، وصولاً إلى تفخيخ الدمى بالمتفجرات.

حرب الدمى.. تشعلها التجارة وتؤججها الثقافة

تعد تجارة الدمى أحد أنشط أنواع التجارة وأشهرها وأشدها خطورة في الوقت نفسه، لقدرتها على حمل قيم ثقافية وترسيخها عبر الممارسة والتفاعل مع الدمية في مجتمع معين. وكلما ازدادت نسبة التفاعل ازداد تعلق



براتز وباربي
وفلة.. في صراع
تجاري أم ثقافي

الأطفال بها، وبالتالي يزداد سعرها. وهذا ما يبرِّر المبالغ الطائلة التي تنفقها شركات تصنيع الدمى في العالم، من أجل ضمان وضع قدم ثابتة في سوق محمومة لا تستقر على حال. ولعل أفضل منطلق لاستكشاف هذا الجانب الجدي للغاية في عالم اللعبة، هو في استطلاع الدمية الأكثر رواجاً في التاريخ، صناعة وتسويقاً وأسئلة وتحديات لا تزال حية أمامنا اليوم.

باربي..
و47 عاماً من السيطرة

«تُباع منها 3 دمى كل ثانية على مستوى العالم، ودمية واحدة تُباع كل 6 ثوانٍ في فرنسا، كما أن معدل ما تملكه كل فتاة أمريكية هو حوالي 10 عرائس من هذا النوع». هذا ما تقوله الإحصاءات الصادرة عام 2000م، عندما وصلت تجارة باربي إلى ذروتها.

وتتضح من هذه الأرقام مدى ضخامة تجارة الدمى في العالم الذي أصبح «منكمشاً» زماناً ومكاناً، ليحوي الكثير من الرسائل الصورية التي تحملها «الدمى». وبطبيعة الحال، فإن الصراع من أجل الظهور وتثبيت الأقدام في السوق مرحلة ليست بأسهل من مواصلة ذلك «الظهور» لضمان «حب الأطفال» مما يدفعهم لشرائها، وتمثل باربي نمطاً معولماً، تقدمه دمية شقراء في كثير من الأحيان مع قوام ممشوق وملامح جميلة، بالإضافة إلى متعلقات لا تنتهي بالدمية، وذلك لضمان «التجدد» و «العلاقة» القائمة بين الطفل والدمية ضمن حركة تفاعلية تمتلك من أدوات التغيير ما يُبعد «الملل» عن تلك العلاقة.

عندما طرحت شركة «ماتيل» الدمية «باربي» في 9 مارس من عام 1959م في الأسواق الأمريكية، كانت الخطة التسويقية المتبعة آنذاك تقوم على العلاقة المتبادلة ذات التغذية الراجعة، والمتمثلة في التسويق التلفزيوني أولاً، وفي بيع المنتجات وربطها بذلك التسويق ثانياً. وبعبارة أخرى، فإن الخطة كانت تعني «الدمية تبيع متعلقاتها من ثياب وغيرها وتلك المتعلقات تبيع الدمية»، وبهذه العلاقة التي لا تنفك في ذهنية الطفل المستهلك وبالاعتماد على محترفين في عملية صنع التصاميم الخاصة بالدمية، وصلت باربي إلى نجاح باهر تخبرنا عنه أرقام المبيعات الهائلة التي حققتها.

وتمتد عملية «العلاقة الوثيقة» بين الدمية والمستهلك لتكوِّن «هَوَساً» ليس لدى صغار المستهلكين فحسب «الأطفال» بل بين الكبار أيضاً. فقد قدَّرت شركة ماتيل أن المهتمين بجمع هذه الدمى من الكبار يتجاوزون 100 ألف شخص،

و90% منهم من النساء بعمر متوسط يصل إلى 40 سنة، ويشترون ما يقارب 20 دمية في العام. و45% منهم ينفقون ما يزيد على 1000 دولار في السنة على هذه الهواية.

وتشكِّل مثل هذه الحالة الشرائية معادلة النجاح للشركة المنتجة، والتي مدت أذرعها إلى حقول مختلفة لتصبح الدمية «باربي» مثل مشروب «كوكاكولا» ووجبة «ماكدونالدز» انتشاراً وشهرة!

اهتمت الشركة بالتلفزيون كاهتمامها بملابس باربي التي عهدت بها إلى مصمِّمين بارعين. ولا نبالغ إن قلنا إن نجاح هذه الدمية المنقطع النظير يعود إلى نجاح خطة «التفاعل الثنائي» بين الدمية والتلفزيون، أو بين الصورة المنظورة: «التلفزيون» والصورة الملموسة: «الدمية»، حتى أصبحت هذه الخطة استراتيجية ثابتة من قبل شركات تصنيع الدمى في العالم.

وقد سلكت شركة ماتيل سبيلاً متدرجاً اعتمدت فيه على الصورة المنتشرة التي تصل إلى الطفل في المكتبة، المدرسة، المحل التجاري، السينما،...إلخ من قنوات الربط اليومية التي «تُشبعه» بطريقة تدفعه لطلب المزيد، وذلك عبر الرسائل المبرمجة والطرق المبتكرة المحببة للطفل في التفاعل معها.

ففي الستينيات ظهرت للمرة الأولى كتب عن باربي، وفي منتصف الثمانينيات ظهرت الروايات المصورة والمغامرات عن الدمية، وأما في نهاية الثمانينيات فقد أُنتج فيلما فيديو لمغامراتها، وفي أواخر التسعينيات تحركت الشركة تجاه ألعاب الفيديو ثلاثية الأبعاد في الحواسيب الشخصية. وفي السنوات الأخيرة انتقلت الشركة لتكوين «ثيمة» صورية خاصة بالدمية وذلك من خلال إنتاج أفلام الدمية باربي ثلاثية الأبعاد بالتعاون مع شركتي «بيكار» و «ديزني».

هذه المسيرة «الصورية» -إن صح التعبير- والتي اتخذتها الشركة المنتجة للدمية باربي تعكس عملية بناء المراحل بين المنتج «الدمية» والمستهلك «الطفل»، وذلك من خلال تسخير وسائل الصورة المتاحة والمحيطة بالمستهلك لتجعله على علاقة محببة ودائمة مع المنتج. واعتبرها الكاتب كيفن روبرتس، المدير التنفيذي لشركة «ساتشي آند ساتشي» للدعاية والإعلان، بأنها من ضمن الأسماء التجارية القليلة التي حظيت بعلاقة «حب وود» بينها وبين المستهلكين الصغار رغم مرور ما يقارب نصف القرن على ولادتها في الستينيات.

بيع في البعدين الثاني والثالث

واجهت شركة «والت ديزني» انحساراً في مبيعات منتجاتها، خصوصاً بما يتعلق بشخصياتها الكرتونية مثل «ميكي ماوس» و «دونالد داك» و «بلوتو». إلا أن تجربة دمية الكاوبوي الأمريكية تشكِّل مثالاً على «استعادة العافية» لتجارة الدمى من خلال الصورة المتلفزة عبر السينما والتلفزيون. فبعد تراجع كبير ومنافسة محمومة من قبل الدمى الحديثة في السوق، لجأت والت ديزني إلى البُعد الثالث لتنشيط حركة السوق من تحت أقدام الدمية التقليدية «راعي البقر»، وقامت بخطوتها العملية بإنتاج الفيلم الكرتوني «قصة لعبة» والذي كان بطله -كما توقَّع المحللون والمتابعون- دمية راعي بقر «رمز ثقافة السيطرة التقليدية» مع دمية فضائية «رمز ثقافة السيطرة الحديثة»،



Flickr

وذلك من أجل الظفر بقلب طفل «عاشق» للدمى. وتتصاعد الأحداث في وقع درامي فكاهي يأخذ بالأبصار، ليضع الطفل في الأخير الدمية «وودي» راعي البقر، بجوار الدمية «باز السنة الضوئية» الدمية الفضائية في رسالة مفادها أن كلاهما يُكمل الآخر.

وقد حقق الفيلم أرباحاً وصلت إلى 357 مليون دولار حول العالم، في حين كانت تكلفة إنتاجه 30 مليون دولار فقط!

ونتيجة لهذا النجاح الكبير الذي انعكس على مبيعات الدمى للشركة، أقدمت الشركة على إنتاج الجزء الثاني من الفيلم «قصة لعبة» مع «توسعة» دائرة الدمى المشاركة في الفيلم، لتوسعة نطاق الاختيار والشراء للمستهلكين.

مواجهة «بلاستيكية» على الرفوف!

قد تكون «باربي» متربعة على عرش مبيعات الدمى في العالم. إلا أن المنافسة من قبل الكثير من الشركات الأمريكية وغيرها، تجعل عرش هذه الدمية مهدداً بالإطاحة بطريقة أو بأخرى، سواء داخل الولايات المتحدة أو خارجها.

لقد أصبح سباق «الدمى» في العالم محموماً لدرجة الغليان، فبالرغم من «التاريخ» الذي تملكه الدمية باربي والسمعة التجارية العالمية التي استمرت قرابة نصف قرن إلا أن ذلك لا يشفع لها في مواجهة شركات مختلفة تريد أن تأخذ نصيبها أيضاً من «كعكة» السوق التي استأثرت بها الدمية الشقراء كل هذه المدة.

يقول إيزاك لا ريان، رئيس مجلس إدارة الشركة المصنعة للدمية «براتز» المنافسة الأولى لباربي: «آن الأوان لإحالة باربي إلى التقاعد حتى (نجم كرة السلة الأميركي) مايكل جوردان تقاعد». ويبدو أن تقاعدها في السوق بانت «تباشيره» من خلال تراجع مبيعاتها بنسبة 13% في عام 2005م أي بمقدار 417 مليون دولار، فضلاً عن تراجع أولي سُجل في عام 2004 و2003م على التوالي.

وعن السبب في «القوة» التي تمتلكها براتز وتفتقدها باربي، يقول البعض: «براتز دمية عصرية أكثر، وتجذب خصوصاً



Flickr

أغنيات تطمئن الصغار إلى وجود من هم أصغر منهم

لعبتي الصغيرة نامي في السرير
لتيجي العصفورة وتفيقك بكير
أنا الماما حدك نامي بأمان
كل الأولاد القدك ناموا من زمان
نامي بسريرك مثل ملاك صغير
أنا لأشتريلك لعبة حلوة كثير

في غالبية أغاني الأطفال، تحتل النشاطات التي تقوم بها الدمية، بإشراف الصبية، مساحة كبيرة.. ففي الأغنية القديمة التي تربى عليها كثيرون منًا، تهدهد فتاتنا الصغيرة، دميتها الأصغر منها، وتدعوها للنوم، مع وعد بلعبة جميلة.

عندي دمية صغيرة
أعتني بثيابها.
لها شعر كتاني ناعم
واسمها روز.
صغيرتي الظريفة روز
«كم عمر لعبتك الصغيرة؟»
أفترض أنها صغيرة جداً.
لأنها، لا تستطيع البقاء لوحدها.
صغيرتي العزيزة روز.

ولا تختلف أغنية «عروستي الصغيرة روز» والتي كتبتها إليزا لي فولين للأطفال في عام 1832م عن تلك العربية كثيراً، فهي تحكي عن الدمية الصغيرة روز، بعينين زرقاوين جميلتين، وأنف صغير جداً، وفمٌ ماكر.. وتجلس روز على المقعد الوثير، لتبدو كسيدة أنيقة. ولكن الأهم من كل شيء، أن روز صغيرة جداً، ولا تستطيع البقاء وحيدة.. ولذا نجدها دائماً تسعى إلى أن تكون مع صاحبتها.

وفي كل الأغاني التي كتبت عن الدمية، نلاحظ أن هناك تركيزاً على أن الدمية التي يحكى عنها، هي دمية صغيرة.. وكأن فيها طمأنةً من نوع ما للطفلة صاحبة الدمية، حيث إنها أخيراً وجدت من هو أصغر منها، ومن يحتاج للرعاية والحنان والاهتمام، أكثر منها.

دميتي جميلة
اسمها أميرة
وجهها ضحوك
يسعد السريرة
رأسها مدورٌ
وعينها كبيرة.
قربها يسلي
ساعة الظهيرة
إنها بقلبي
دميتي الصغيرة



طفلة ودمية أم أمٌ صغيرة؟

Flickr

الصغيرات، وتسمح بأن تكون لهن دمية مختلفة عن دمية شقيقاتهن الأكبر سناً».

والشعار الذي تحمله براتز يقول إنها لـ «الفتيات الوحيدات اللاتي يمتلكن عشق الموضة». والجدير بالذكر أن شركة «MGA Entertainment» الصغيرة ومقرها كاليفورنيا، أطلقت براتز في عام 2001م وهي توظف 550 شخصاً، في حين أن شركة «ماتيل» توظف 25 ألفاً. ويقول دايف ملاكريدا المسؤول الإعلامي لدى شركة «MGA»: «إن ماركة براتز باتت تساوي ملياري دولار في العالم».

وقامت باربي بمحاولات محمومة للبقاء على عرشها تمثلت أولاً في إطلاق دميتين جديدتين هما «مايسين» في 2002م و «فلافاس» في 2003م وتشبهان براتز إلى حد كبير مما حمل «MGA» على رفع دعوى قضائية في أبريل 2005م. كما أعلنت ماتيل أن «باربي ما زالت الدمية المفضلة في صفوف الفتيات في 2005م» بحسب دراسة أجرتها مجموعة «NPD» للأبحاث. إلا أن ماتيل لم تشر إلى أن الدراسة كشفت أن مبيعات براتز أهم بكثير من مبيعات باربي خلال فترات عيد الميلاد. ولاستعادة موقعها في السوق اتخذت ماتيل خطوة جديدة، بإعطاء صورة جديدة لـ «Ken» خطيب باربي بعد أن توقفت عن تسويقه في 2004م. ويبدو أن هذه الخطوة لم تشهد تفاعلاً من قبل الزبائن الصغار الذين «يهرعون» لشراء دميتهم المفضلة براتز إلى أجل غير مسمىً!



جميلة ولكن.. الدمية والتحدي العنصري

إن الاختلافات ما بين براتز وباربي تبقى في إطار ضيق جداً. والمنافسة بينهما هي تجارية في الدرجة الأولى. ولكن من جهة أخرى، وبموازاة السعي المستمر إلى صناعة دمية أجمل من الدمى الرائجة، برز السؤال: ما هو مقياس جمال الدمية؟ إن باربي شقراء.. فماذا عن الطفلة السوداء أو السمراء؟ هل عليها أن تتطلع إلى باربي كنموذج أعلى للجمال؟

في أمريكا، فرضت المسألة العنصرية خلال النصف الأول من القرن العشرين نفسها على سوق الدمى، ولا تزال حاضرة حتى اليوم. فقد كانت شركة «بيري وروس» أول شركة تنتج دمية سوداء سمتها «سارا لي». وقُدمت هذه الدمية كمحاولة للقضاء على العنصرية بين الأطفال، وروَّجت لها وقتذاك زوجة الرئيس الأمريكي إليانور روزفلت. وفي النصف الثاني من القرن العشرين، لم يختلف الأمر كثيراً. فقد أنتجت «ماتيل» نفسها الدمية السوداء «بلاك كريستي» عام 1968م. ولكنها كانت أشبه بنموذج للعرض فقط، يجمِّل صورة الشركة، إذ إن الأسر السوداء لم تكن تجد هذه الدمية بسهولة في المتاجر، وذلك بسبب ضعف الاهتمام بتسويقها.



هل تختلف فلة عن باربي؟
وبماذا؟

Flickr

رازان تنتصر للحشمة

«كنا أنا وزوجي ننظر بفزع إلى الفتيات الصغيرات في مجتمعاتنا عندما يتلقين دمى باربي كهدايا لهن في المناسبات»، هذا ما تقوله السيدة شيري ساده، وهي مغنية أوبرا أمريكية اعتنقت الإسلام، وتضيف: «كنا نفكر بأنها ليست الطريقة الصحيحة لبناتنا». ولذا، قام زوجها عمّار ساده، وهو مغترب فلسطيني يحمل الجنسية الأمريكية ويعيش في ولاية ميشيغان، بابتكار دمية «محافظة» سماها «رازان».

تمثل الدمية رازان، التي أنزلت إلى الأسواق عام 1996م، المزايا والمواصفات التي تتحلى بها الفتاة المسلمة الملتزمة مثل الاحتشام في الملبس والتقوى والتواضع.

وعلى الرغم من أن الكثيرين قد علقوا على ظهور رازان في الصحافة الأمريكية بالقول إنها «باربي محجبة» لتحاكي متطلبات المجتمعات المسلمة والمحافظة في الدول الغربية وخصوصاً في الولايات المتحدة، إلا أن هذا «التشبيه» لم يكن صائباً البتة، حيث إن القيم التي تروِّجها رازان سواء من ناحية المظهر أو المعنى مختلفة تماماً عن باربي، وإن تشابهت الملامح وحجم الدميتين.

وتقوم رازان بإيصال رسائل أكثر عمقاً من خلال إنتاج شركة «NoorArt» للكثير من متعلقات المدرسة، على سبيل المثال: الكراسات، الحقائب المدرسية، الأقلام، وغيرها من المتعلقات المدرسية، وذلك لتشجيع الفتيات على التعليم والذهاب إلى المدرسة بحجابهن، ولديهن الثقة الكبيرة بالتفوق في الدراسة. وهناك واحد من الإصدارات العديدة لرازان وهي تصلي، حيث يحتوي هذا الإصدار على سجادة للصلاة، ومجسم صغير للقرآن الكريم، بالإضافة إلى لباسها الخاص عندما تكون خارج المنزل.

وتعمل شركة NoorArt حالياً على دراسة الدخول في سوق الشرق الأوسط بعدما حققت نجاحاً في الأسواق الغربية، حيث يُباع منها سنوياً من خلال موقعها الإلكتروني ما يزيد على 30 ألف دمية، ويتراوح سعرها ما بين 9.99 دولار للدمية منفردة إلى 24.99 دولار لطقم واحد يشمل الكثير من الإكسسوارات المتعلقة بالدمية.

«حفاظاً على الهوية القومية»
الدمية في مواجهة العولمة

في العام نفسه الذي ظهرت فيه رازان في أمريكا، أي العام 1996م، طرح «المركز التربوي الفكري للأطفال والناشئة» في إيران الدميتين «دارا» و «سارا». عندها بدأت المجلات والصحف بتناقل الحديث عنهما وتحليل الهدف الذي من أجله أطلقت هاتان الدميتان.



دمى من قماش، أكثر «براءة» من غيرها

«دارا» و «سارا» هما أخوان توأم عمرهما 8 سنوات، يتميزان بوجه شرقي الملامح، وهناك نماذج متعددة منهما من حيث الوجه ولون العينين واللباس، وذلك وفقاً للمنطقة التي ينتميان إليها. وتشمل الملابس لكليهما كل المناطق الإيرانية والأقوام العربية والإسلامية في كل أنحاء العالم.

ويقول بائع للألعاب يُدعى مهدي هدايت: «إن دارا وسارا هما منتجان إستراتيجيان لحماية الهوية القومية»، ويضيف: «إنهما الرد على سيطرة باربي ورفيقها كين على السوق الإيرانية». وقد أُنتج من هاتين الدميتين 100 ألف وحدة، (80 ألف سارا و20 ألف دارا) حتى اليوم.

«فلة» العربية.. نجاح عربي

ويبدو أن الجواب على الهاجس الذي حمله الكثيرون بخصوص تقديم بدائل عربية محلية تناسب ثقافة المجتمع وتقاليده في مجال الدمى قد أصبح واقعاً، بل ومميزاً أيضاً في الوطن العربي. كان ذلك من خلال دمية شرقية الملامح والطلّة، مع حجاب يغطي شعرها، وعباءة تنسدل على جسمها الرشيق، واسم يدل على انتمائها لهذه الأرض العربية «فلة»، وتتكلم بلغة عربية فصيحة: «فلة»!.

فقد طرحت شركة «New Boy design Studio» ومقرها سورية الدمية «فلة» في الأسواق في نوفمبر عام 2003م، ومنذ ذلك الوقت أصبحت أكثر الدمى مبيعاً في الشرق الأوسط. ومن شبه المستحيل دخول محل للعب الأطفال في مصر أو الأردن أو قطر من دون ملاحظة منتجات «فلة» من الحبوب الغذائية أو اللبان أو مشاهدة فتيات يركبن دراجات «فلة»، وكلها تحمل العلامة المميزة وهي اللون الزهري الخاص بـ «فلة».

يقول «فواز عابدين» مدير تسويق الدمية «فلة» في الشركة المنتجة: «تطلّب الموضوع دراسات لمدة أربع سنوات، حتى طورنا شكل الوجه وشكل الجسم وشكل اللباس، وكل ما ستكون عليه «فلة»، ومنذ طرحها في الأسواق وحتى الآن، والمبيعات تتزايد يوماً بعد يوم. إذ استطعنا أن نبيع خلال سنتين تقريباً مليوناً ونصف المليون دمية». ويضيف عابدين: «في عام 2006م سيكون لـ «فلة» أخ وأخت هما «بدر» و «نور» ونعمل الآن على تطوير «فلة» المدرِّسة و «فلة» الطبيبة».

وقد اتخذت الشركة خطوة مميزة عبر تقديمها دمية «عربية» بكل ما للكلمة من معنى، ولتحيط الفتيات بباقة متنوعة من منتجات مختلفة تعكس القيمة التي تحملها «فلة»، فهي دمية سمراء ذات عينين بنيتين، تستيقظ فجر كل صباح لترتب سريرها ثم تتوضأ لتصلي صلاة الفجر، قبل أن تبدأ نهارها بترتيب بيت أسرتها وتسقي الزهور قبل أن تذهب إلى المدرسة الكائنة في حيها القريب.

وعلى عكس باربي الشقراء التي تظهر بعض مفاتن جسدها، فإن «فلة» محافظة لا تظهر مفاتن صدرها وجسدها حتى عندما تباع بأشكال مختلفة. هناك «فلة» في اللباس المنزلي لا ترتدي الحجاب، و «فلة» بثياب الصلاة و «فلة» بلباس الخروج والتسوق وترتدي الحجاب الأسود، وهناك «فلة» المتوسطية والسورية واللبنانية. لكنها دائماً محافظة ومؤدبة.

هذه الصورة المقدمة بما تحتويه من قيم إيجابية لم تدفع الأطفال لاقتنائها والتعلّق بها فحسب، بل دفع الآباء أيضاً لتفضيلها على باربي التي تحمل قيماً مُغايرة تماماً عن ثقافة المجتمعات في الوطن العربي.

ما سر «فلة» ؟

فما الذي يعطي «فلة» هذه القوة في الحضور لتحقيق أرباحٍ متصاعدة في الوطن العربي؟
يعتقد فواز عابدين مدير منتجات «فلة» في «New Boy Design Studio» : «أن ذلك يرجع إلى أن الشركة فهمت السوق العربية بطريقة لم يستوعبها المنافسون». ويضيف: «لا يرجع ذلك إلى تغطية رأس باربي



ألف حلة وحلة، والدمية واحدة

بحجاب، بل يجب أن نبتكر شخصية يمكن للآباء والأبناء الارتباط بها. وحملاتنا الإعلانية مليئة بالرسائل الإيجابية بخصوص شخصية «فلة»، فهي أمينة ومحبة وتحترم والدها ووالدتها».

وقد أصبح لـ «فلة» حالياً صديقتان هما «ياسمين» و «ندى» مع لون شعر أفتح، غير أنه لا يوجد حتى الآن رديف لـ «كين» صديق باربي، إذ إن وجود «صديق» لـ «فلة» لا يتفق مع الأخلاق في المجتمعات المحافظة على عاداتها وتقاليدها. وتجهد الشركة ضمن خطة سنوية أن تقدم «فلة» كمدرِّسة وطبيبة «لأننا نريد أن نسهم في تشجيع فتياتنا على الدراسة والعمل» يعلّق عابدين على تلك الخطة.

ويقول محمد صباغ مدير متجر «Space Toon» في دمشق: «إن النجاح الذي حققته الدمية في الأسواق يكمن في أن غالبية الأسر في المنطقة تستطيع التعرف على القيم الإسلامية التي تدعمها فلة».

إلى ذلك، يبدو أن الخطة التسويقية للدمية «فلة» قد لقيت صدىً ملحوظاً وما زال، فعبر «ثنائية التفاعل» بين الصورة المُرسلة «التلفزيون» والصورة الملموسة «الدمية» حققت «فلة» نجاحاً باهراً وما زالت، وتمثل قناة «Space Toon» محطة الإرسال الأولى لقيم «فلة» و «منتجاتها» المختلفة والمتعددة من اللبان إلى سرير النوم، ومن الدرَّاجة الهوائية إلى أدوات المدرسة، ويبدو أن ثلاثية (التلفزيون، الدمية، متعلقات الدمية) قد عملت بصورة ممتازة مع التجربة «العربية» للدمية «فلة»، وأعطت مفعولها الكبير بالنسبة لهذه الدمية، خصوصاً مع وجود قناة تلفزيونية مخصصة للأطفال «Space Toon» والتي تُبث من خلالها منتجات «فلة» ورسائلها التلفزيونية عبر «الأناشيد» الدينية كأنشودة «يا طيبة» والتي حفظها الكبار قبل الصغار، وأغنية «سمراء كأرض بلادي وصديقاتي سمراوات»، دلالة على الاعتزاز بالملامح العربية، فضلاً عن الكثير من الأغاني ذات الدلالات الإيجابية.

«فلّة» معادلة محلية لثقافة مستمرة!

ومع وجود هذه «الباقة» المتكاملة -نوعاً ما- من المنتجات والمتعلقات بهذه الدمية العربية أصبحت «فلة» «أيقونة» ممتدة من المغرب إلى عُمان، ولتأخذ على عاتقها «ملء» رفوف المحلات التجارية ومحلات الألعاب كبديل «يُزاحم» الدمى ذات الثقافات الغريبة على مجتمعاتنا العربية.

فمع وجود «الصراع» المحموم بين شركات تصنيع الدمى في العالم لكسب القلوب الصغيرة، وذلك من خلال «توجهات» مختلفة في الطرح والحملات الإعلانية، إلا أن السوق العربية كان لها رأي آخر كما كانت للسوق الإيرانية ولسوق المجتمعات الملتزمة في الدول الغربية، فـ «أهل البيت أدرى بما فيه»، ونعتقد بأن الخطة التسويقية التي اتبعتها شركة «New Boy» في تقديم «فلة» نجحت على أكثر من صعيد لتتدفق «فلة» في جميع المنتجات لتكون «أيقونة» أكثر من مجرد كونها «دمية» فهي «ثقافة» و «رسالة» نرجو أن تستمر على وتيرة الحفاظ على العناوين الكبرى لانطلاقتها كدمية محافظة ملتزمة متفوقة تنشر فكراً محافظاً منفتحاً وعصرياً في الوقت نفسه، وتلك هي قوة ثقافة الصورة المتحركة والملموسة في عالم الطفولة من خلال تجارة الدمى التي أصبحت حرباً ميدانها «الأطفال».

google

أرستقراطية من سيراميك

خيال الظل.. بطولة ولكن زائفة

في كتابه «من التراث الشعبي.. دراسة تحليلية للحكاية الشعبية» يعرض المؤلف، الدكتور أحمد زياد محبك، تاريخاً مفصلاً لمسرح خيال الظل، وهو المسرح الذي تلعب فيه الدمى دور البطولة، وإن كانت بطولة زائفة.. يغطيها ستار، ولا تتحرك إلا كما يريد لها مخرج المسرحية. وعادةً ما تكون الدمى في خيال الظل مسطحة من الورق المقوى أو الجلد، وتتخذ أشكالاً بشرية مختلفة وبألوان زاهية. وتتألف من عدة قطع ذات مفاصل تتحرك عليها بواسطة عصي، ويضاء وراءها مصباح لتسقط ظلالها على القماش الأبيض الرقيق، فتبدو ظلالها أمام المتفرجين. وبين كل مشهد وآخر، يستمتع الحضور بفقرة غنائية يؤديها ضارب الطبلة، وقد يصحبه نافخ الناي.

ونشأ مسرح خيال الظل في الهند ومنها انتقل إلى الصين واليابان وجزر جاوه، ومن جاوه عرفه العرب وانتقل إلى سائر البلدان العربية في القرن العاشر أو الحادي عشر الميلادي. فبعض مسرحيات خيال الظل يرجع تاريخها إلى عهد الخليفة العباسي المأمون (198 - 227هـ) حيث روي أن ابناً لأحد الطباخين في قصر المأمون قد أنذر الشاعر «دعبل الخزاعي» بأن يخرجه في الخيال إن هجاه.

وظهر في القرن الثالث عشر الميلادي أكبر رجال خيال الظل العرب، وهو ابن دانيال شمس الدين أبو عبدالله محمد ابن دانيال الخزاعي. ولد ابن دانيال عام 1238م في الموصل، ودرس الطب فيها حتى بلغ التاسعة عشرة، ثم اضطره اجتياح المغول للهجرة إلى القاهرة. وفي مصر، أنشأ لنفسه دكاناً يطبب الناس فيه، وعرف وقتها بالحكيم شمس الدين. في هذه الأثناء، بدأ يعرض على الناس فصوله، فذاع صيته حيث قدَّم نصوصاً عديدة لخيال الظل منها «طيف الخيال» و «عجيب وغريب» و «المتيم» وكان يميل إلى النقد الاجتماعي الساخر والتعبير الفكاهي.

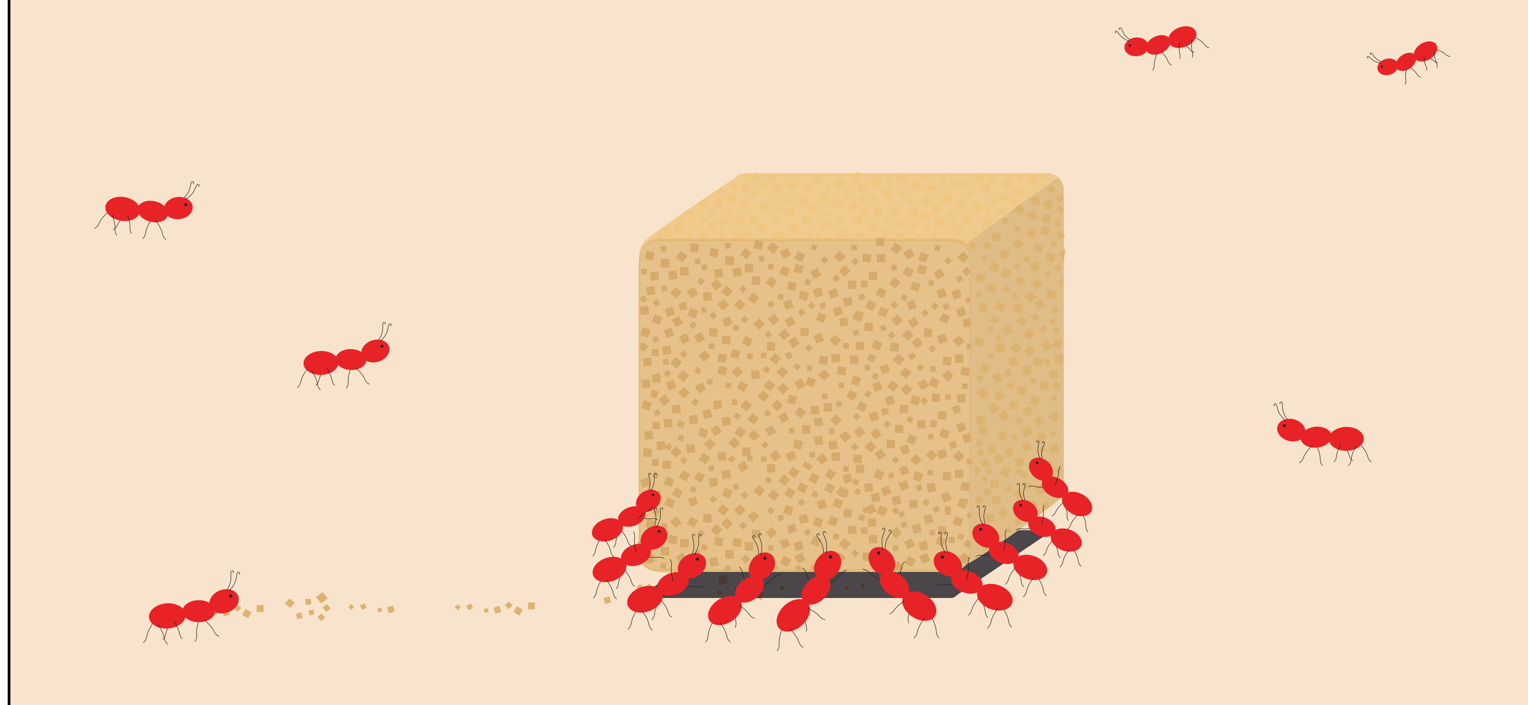
واستمرت عروض خيال الظل في المدن العربية كالقاهرة وحلب إلى بدايات القرن العشرين، وكان شائعاً في هذه الأثناء خاصة في سورية في فترة ما بين الحربين العالميتين الأولى والثانية، حتى إن بعض فصوله كانت تطبع على أسطوانات وتوزع لما تلقاه من رواج بين الجمهور سببه أنها كانت تنتقد أوضاعاً في عهد العثمانيين تشبه الأوضاع التي كانت تمر بها سورية في ظل الانتداب الفرنسي.

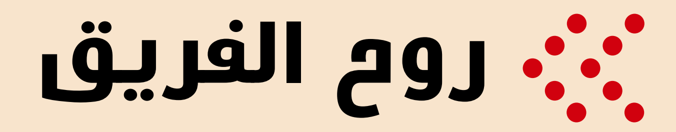
وكان جمهور مسرح خيال الظل من عامة الشعب كما كان محترفوه منهم. ولم يعترف الأدب العربي به ولم يحفظ شيئاً من نصوصه لسبب شكلي، وهو اعتماد الكراكوز على اللغة العامية لأنه كان موجهاً للعامة فلم يتح أديب أو شاعر يكتب له نصاً أقرب إلى الفصحى، كما لم يتح له ناقد أو مؤرخ يحفظ له قيمته ويرصد دوره.

وقد بدأ الاهتمام بخيال الظل في أواسط القرن التاسع عشر وكان اهتماماً محصوراً في دائرة المهتمين بالمسرح والتراث الشعبي. فكان من الطبيعي أن ينقرض خيال الظل وتغيب عروضه عن المجتمع العربي ولا سيما بعد انتشار السينما والاهتمام بالمسرح ودخول التلفزيون كل بيت. ولا تزال الشعوب تحتفل بخيال الظل وتعتني به بوصفه جزءاً من تراثها. فمنذ 1975م، يقام مهرجان الفنون التقليدية في مدينة رين بفرنسا، وتشترك فيه فرق من دول كثيرة، ولكن وللأسف لا تشترك أية دولة عربية فيه.

Flickr

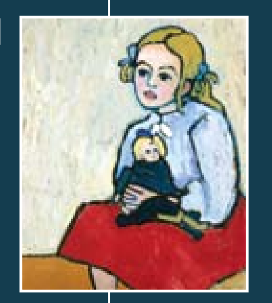






www.saudiaramco.com





القافلة

مجلة ثقافية تصدر كل شهرين
عن أرامكو السعودية
يناير - فبراير 2007
المجلد 56 العدد 1

ص . ب 1389 الظهران 31311
المملكة العربية السعودية
www.saudiaramco.com